مدخل إلى اللاهوت المسيحي

طرح تاريخيّ ولاهوتيّ لأهم ركائز الإيمان
المسيحيّ وفقًا لتعاليم آباء الكنيسة



أمجد بشارة

مَدْخَلٌ إلى اللَّاهُوت المَسِيحْيّ

دراسة تاريخيّة وكتابيّة وآبائيّة للعقائد والتعاليم الإيمانيّة الرئيسيّة للكنائس الأرثوذكسيّة الشرقيّة

أمجد بشارة

كتاب: مدخل إلى اللاهوت المسيحي

الكاتب: أمجد بشارة

Amgdbishara0@gmail.com

تصميم الغلاف: موريس وهيب

إخراج فني: رامز يسري

نشر وتوزيع: دار رسالتنا للنشر والتوزيع ومركز إيكونوميا للدراسات المسيحية

لطلب الكميات والتواصل:

0120387584- 01285470245- 01009706916

Email: resaltnasalampublshing@gmail.com

الطبعة:الأولى، ٢٠١٩

المطبعة:

رقم الإيداع بدار الكتب المصريّة: ٣١٩٢/ ٢٠١٩

الفهرس

مُقدّمة الناشر

إنّ المُحرِّك الأساسيّ لدار رسالتنا للنشر، والعامل الأوّل الذي دفعها في ميدان نشر الكتب والأبحاث هو إيمانها الراسخ بأنّ التقدُّم والإصلاح لا يأتي سوى من الاهتمام بالبحث والدراسة، أي بالعلم، ليس العلم وحده، بل ذاك القائم على الإيمان الراسخ، ذاك الإيمان الذي تولِّده المعرفة بداخل النفس.

لذا، اهتمّت الدار منذ وجودها بهذا النوع من الكتب، أي الكتب البحثيّة التي تتناول موضوعات الإيمان من شتى جوانبه بالبحث والدراسة الحُرّة، غير المُكبلة بقيود سوى قيد المحبّة، المحبّة النابعة من قلب طاهر يبحث عن رسوخ الوعي الإيمانيّ في الوسط المسيحيّ، وهذا أمر لم يكن له وجود من قبل سنوات قلائل، بل ربّما تنفرد الدار بتخصّصات بحثيّة لم يكتب له الوجود في اللغة العربيّة من قبل.

ونحن نعلم جيّدًا أنّ البناء يقوم على أيدي جيل من الشباب، الذي تكوَّن لديه وعيًا وإدراكًا لم يكن لجيل من قبله، لذا، اعتمدت الدار على شباب الباحثين، هؤلاء القُرَّاء المثقفين في الحقّ، ممن يملكون رؤية وهدفًا تتوافق ونشر الوعي الإيمانيّ الذي هو الهدف الأوّل للدار.

وما سبق يحدد الهدف الثاني للدار، وهو إخراج جيل من الباحثين العرب الشباب، حيث نؤمن إنّ على أكتاف هؤلاء، ومن ثمرة عقولهم سوف تفرخ كرمة المعرفة وتثمر، فليس الهدف فقط إنتاج كتب بحثيّة، أو الاعتماد الكلّيّ على الكتابات المُترجمة -وهو أمر جيّد بكلّ تأكيد- بل نسعى بإيمان راسخ نحو إنتاج جيل جديد من الباحثين العرب، ولا سيّما المصريّين، تنافس كتاباتهم وأبحاثهم الإنتاج البحثيّ، لا في الشرق الأوسط فقط، بل في المسكونة كلّها.

ونثق في إله كلّيّ القدرة دعانا أحبّاؤه لكي نكمل هذا الطريق، وهو ليس بالهيّن، لكن الله يمهد جميع الهضاب، ويبسط الجبال أمام أرجل أبناؤه الساعين لسكنى حضنه دائمًا. ونصلّي إلى الرّبّ أن يكون هذا الكتاب سبب بركة لحياتك عزيزي القاريء، لا مجرد كتاب يداعب عقلك بالمنهج البحثيّ فقط، بل يعطيك رؤية أقرب لله، فتعرفه، وتحيا له..

مدير دار رسالتنا للنشر

رامز يسري

مقدمة

منذ بدأت في القراءة والبحث في علم اللاهوت، وأنا أتطلّع لكتاب يجمع أهمّ العقائد المسيحيّة، من خلاله استطيع أن أقرأ وأعرف ما يقوله التعليم الكنسيّ المسيحيّ عن كلّ عقيدة أساسيّة في ما أومن به.

وبكثير من البحث في المكتبات المسيحيّة المختلفة، لم أجد كتابًا يشرح جميع العقائد المسيحيّة الأساسيّة، ويجمع بين طيّاته الكتابات الآبائيّة مع اللّتورجيًّا الكنسيّة، ممزوجة بما يقوله الرسل في الكتاب المُقدّس. ما عدا دراسة مبسطة قدّمها الأب باسليوس المقاريّ من جزأين،[1] وبعض الدراسات المتفرقة للأب العلّامة تادرس يعقوب،[2] وغير ذلك هو مجرد محاولات من الكنائس الإنجيليّة لا تنتمي لروح التقليد الأرثوذكسيّ الأصيل.

من هنا عكفت على دراسة المسيحيّة مما توفَّر لديَّ من كتابات الآباء خاصة، باللغتين العربيّة والإنجليزيّة، وصرت أدرسها بنهم مع القليل من الدراسات على كتابات الآباء من العلماء المختصيّن في مجال الباترولوجيّ لمدة عشر سنوات كاملة، أصدرت خلالها كتابين كانا باكورة أبحاثي في مجال العقيدة، وهما: قصة الحب العجيب، وموضوعه التدبير الإلهيّ من الخلق للفداء. وكتاب: الثالوث القدوس قبل نيقيّة، وهو دراسة عن الفكر العقيديّ عن الثالوث القدوس في القرون الثلاثة الأولى للمسيحيّة.

وبينما أكتب هذه الأبحاث كان قلبي ينبض شغفًا في انتظار اليوم الذي أجمع فيه خلاصة قراءاتي وبحثي في المجال العقيديّ واللِّيتورجيّ وأنا أكتب البحث تلو الآخر والمقال تلو الآخر على مدونتي الخاصّة، وعلى موقع فريق اللاهوت الدفاعيّ، وبعضها نُشِر في مجلة الحياة الأرثوذكسيّة التي تصدر في أمريكا.

وأخيرًا، كان هذا الكتاب الذي بين يديك، الذي هو خلاصة قراءات وأبحاث استمرت لأكثر من عشرة أعوام متتاليّة من البحث والقراءة والدراسة والمحاضرات، حاولت خلاله أن يكون بسيطًا رشيق الإسلوب، يختصر أهمّ النقاط في التعليم المسيحيّ دون أن يطغى السرد الأدبيّ على حقيقة الفكرة في

---

[1] إيماننا المسيحيّ، من جزأين، صدر عن دير أبو مقار.

[2] الحب الإلهيّ، وكتب عن دراسات لِتورجيًّا مثل المسيح في سرّ الإفخارستيا، والروح القدس بين الإيمان الجديد والتقديس المستمر، وأخيرًا أصدر تباعًا الكاتشيزم القبطيّ الأرثوذكسيّ.

بساطتها، أي لم يكن همّي الأوّل لجمال السرد واللُّغة بقدر ما شغلني عرض الأفكار بسلاسة في نقاط محدّدة صالحة للفهم والتدريس.

وأامل أن يكون هذا الكتاب نواة لدراسات أُخرى في اللغة العربيّة في ذات المجال العقيديّ، الذي تركناه منذ فترة طويلة والتجأنا إلى وسائل الترفيه والجذب، تلك الغريبة عن الروح الكنسيّة والتقوى التي ميّزت كنيستنا القبطيّة الأرثوذكسيّة على مدى عصور طوال. ليكن هذا الكتاب نواة لأبحاث أفضل وأدق وأعظم لباحثين آخرين تنجبهم كنيستنا أم الشهداء، وحافظة التقليد.

أمّا لي، فهذا الكتاب هو نواة دراسات متخصّصة قادمة في كل مبحث فيه، دراسات منفردة وليست مجمعة معًا، تشرح بمزيد من البحث والدقة مصادر وتاريخ وشرح كلّ فصل وكلّ عقيدة تمّ ذكرها في هذا الكتاب. كما أامل أن تصدر عنه طبعة أُخرى قريبًا خاصة بالأطفال، بإسلوب مناسب لهم، بصور توضيحيّة وقصص قصيرة، ليتعلموا منذ البداية تعليم كنيستهم، ويثبتون في إيمانهم الذي تسلمّوه بكفاح حتّى الدم من آبائنا.

غالبيّة مراجع أقوال الآباء التي ذكرتها بين صفحات هذا الكتاب قمت بتعريبها بقدر الإمكان حتّى يستطيع القاريء العاديّ غير المطّلع على كتابات الآباء أن يعرف أين كُتِبت هذه الكلمات. كما قصدت في نهاية كلّ فصل أن أذكر مراجع في اللغة العربيّة إذا ما أراد القاريء أن يعرف المزيد، ونادرًا ما كتبت مراجعًا أجنبيّة، وذلك لمساعدة القاريء البسيط وليس المتخصّص، فهذا الكتاب موجه فقط للمبتديء الذي يرغب في التعرُّف على أساسيّات إيمانه، وليس للمتخصّصين ودارسي اللاهوت.

كما سيلاحظ القاريء أنّنا وضعنا لقب "قديس" لكلّ أب سكندريّ بدلًا من لقب "علّامة"، مثل ديديموس، وأوريجانوس، وإكليمندس. كما وضعنا لقب "مطوَّب" لكلّ أب لاتينيّ مثل أغسطينوس، وأمبرسيوس وجيروم، حيث أنّ كنيستنا تؤمن بتعاليم آبائها هؤلاء السكندريّون، وتضع تعاليمهم فوق تعاليم اللاتين، وقد دخلت هذه الألقاب التي تحط من شأن آباء كنيسة الإسكندريّة من الكتب الغربيّة، وهو ما يجب أن ينتهي في كنيستنا، حيث نحترم ونوقِّر آباؤنا الذين تعلّمنا على كتاباتهم، ونضع الآباء اللاتين القديسين في مرتبة أقل، حيث لا تعدهم الكنيسة كمعلمين للعقيدة.

أرفع صلاتي إلى ربنا وسيد كلّ أحد أن يكون هذا الكتاب سبب بركة لكلّ من يقرأه، ينميَّ في داخله الحسّ العقيديّ الذي شارفنا على فقدانه، لبنيان جيل جديد متأسّس في الإيمان الذي للرسل، بصّلوات سيدتنا والدة الإله مريم العذراء الطوباويّة، والقديس أنطونيوس شفيعي، أبو الرهبان وفخر كنيستنا، وأبينا قداسة البابا تاوضروس الثاني، وجميع آباءنا الأساقفة والقسوس والرهبان.. آمين

أمجد بشارة

الفصل الأوّل:

مدخل لفهم كتابات الآباء

ليس هذا الفصل الذي نبدأ به كتابنا مدخلًا لدراسة علم الباترولوجي، فهذا ما تقدّمه الكتب المُختصّة بهذا المجال والتي صدر الكثير منها عن مركز دراسات الآباء، وعن الأب تادرس يعقوب، وغيرهم في اللغة العربيّة. لكن، هذا الفصل مدخل لفهم كتابات الآباء، فكثيرًا ما نقول: "هذا ما قاله الآباء"، وحين نسأل: "مَن مِن الآباء قال هذا"؟! تأتي الإجابة خليط من الأقوال لآباء شرقيّين وغربيّين على السواء، وكأنّ الآباء هم أي من وضع كتب في القديم!

ليس الآباء هكذا، بل هو علم بدأ مع ظهور عصر النهضة بشكل منهجيّ، وإن كانت الكنيسة تستخدم تعليم الآباء وتحيا به منذ بداية انتشار المسيحيّة. لكن، ليس جميع الآباء تأخذ بهم كنيستنا القبطيّة الأرثوذكسيّة، فيوجد آباء لا تعترف كنيستنا بتعليمهم اللاهوتيّ وإن كانت تعترف بقداستهم، فحياتهم المُقدّسة شيء، وتعليمهم عن الله شيء آخر، لا تختلط القداسة والتعليم، فكلّ مُعلّم كنسيّ قديس، لكن ليس كلّ قديس مُعلّم كنسيّ. لإنّ كلّ منطقة جغرافيّة انتمى إليها الآباء، واللغات التي تحدثوا بها، ومدى تأثرهم وتناولهم للفلسفة، كلّ ذلك أثّر على بنيتهم الفكريّة، وقدموا من خلاله شروحات مختلفة عن الإيمان، لا تقبل كنيستنا جميعها وكأنّها موحى بها! وفي القداس الإلهيّ نحن نذكر فقط بعض الآباء، ونأخذ منهم الحِل، ولا نذكر كلّ الآباء، حيث يقول الكاهن بعد أن يذكر من لهم دور في تدبير الخلاص كالعذراء مريم والدة الإله، ويوحنا السابق الصابغ والشهيد، وأوّل الشهداء:

"ناظر الإله الإنجيلي مرقس الرسول الطاهر والشهيد، والبطريرك القديس ساويرس، ومعلمنا ديسقورس، والقديس أثناسيوس الرسوليّ، والقديس بطرس الشهيد ورئيس الكهنة، والقديس يوحنا ذهبي الفم، والقديس ثاودوسيوس، والقديس ديمتريوس، والقديس كيرلس، والقديس باسليوس، والقديس غريغوريوس الناطق بالإلهيّات، والقديس غريغوريوس صانع العجائب، والقديس غريغوريوس الأرمنيّ، والثلاثمائة والثمانية عشر

المجتمعين بنيقيّة، والمئة والخمسين المجتمعين بالقسطنطينيّة، والمائتين بأفسّس، وأبانا العظيم أنبا أنطونيوس، والبار أنبا بولا، والثلاثة أنبا مقارات القديسيين....''

وهكذا لم تتركنا الكنيسة نتخبط كثيرًا متسائلين في حيرة: أيّ الآباء نتّبع؟! بل وضعت لنا أساس نرتكز عليه ونتحرك من خلاله.

وعلى هذا الأساس الكنسيّ ننطلق لنتعرّف كيف نفهم كتابات الآباء، وما هيَ المدارس الآبائيّة المختلفة، وجذورها الفلسفيّة التي شكلت تفكيرها.

لماذا كتابات الآباء

ترجع أهمّيّة كتابات الآباء إلى أهمّيّة **التقليد** باعتباره مصدر الإيمان. فعظمة الأرثوذكسيّة تتجلى في كونها لم تترك لكلّ واحد رأيه الخاص، بلا حاكم أو ضابط، فيما يخص الإيمان، بل وضعت لنا طريقًا مضيئًا نهتدي به، وهو تعاليم آبائها، تلك التي نجدها محفورة في وجدانها الليتورجيّ، فالتقليد جعل لكتابات وآراء الآباء أهمّيّة كبرى. فالكنيسة تعتبر ''اتفاق الآباء الإجماعيّ'' معصومًا حينما يخصّ العقيدة.[٣] ويصف ''نيومان– *J. H. Newman*'' أهمّيّة اتفاق الآباء واختلافه عن الآراء الخاصة للآباء حينما يقول:

''إنّي اتبع الآباء القدماء، ليس على أنهم في موضوع معيّن لهم الثقل الذي يملكونه في حالة العقائد والتعاليم. فحينما يتكلم الآباء عن العقائد، يتكلمون عنها على أنّ الجميع يؤمنون بها. **فالآباء هم شهود الحقيقة، فهذه التعاليم قد استلمت** استلامًا، ليس هنا أو هناك بل **في كلّ مكان**، ونحن نستلم هذه التعاليم والعقائد التي يعلّمون بها، ليس لمجرد أنّهم يعملّون بها، بل لأنّهم يشهدون أنّ كلّ المسيحيّين في كلّ مكان في عصورهم كانوا يؤمنون بها. فنحن نتخذ الآباء **كمصدر أمين للمعرفة**، ولكن ليس كسلطة كافية في ذواتهم، رغم **أنهم هم أيضًا سلطة**. فلو أنّهم قالوا بهذه التعاليم نفسها وأضافوا قائلين: ''إنّ هذه هيَ آراؤنا وقد استنتجناها من

[٣] لنلاحظ جيّدًا كلمة ''العقيدة''، ففي الأمور الاجتماعيّة، والعامّة، والتنظيمات القانونيّة، وما شابه ذلك، ليس لتعاليم الآباء ذات السلطان.

الكتاب المُقدّس، وهيَ آراء صحيحة''، فإنّنا في هذه الحال كُنّا نتشكّك في استلامها على أيديهم. وكنّا سنقول إنّ لنا الحقّ مثلهم أن نستنتج من الكتاب كما فعلوا هم، وأنّ الاستنتاج من الكتاب هو مجرّد آراء، فإن اتفقت استنتاجاتنا مع استنتاجاتهم، فهذا يكون تطابقًا سعيدًا معهم ولكن إن لم تتفق فإنّنا سنتبع نورنا الخاص.

وبلا شك ليس هناك إنسان، له الحق أن يفرض استنتاجاته الخاصة على الآخر في أمور الإيمان. طبعًا هناك التزام واضح على الجاهل أن يخضع لأولئك الذين هم أعلم منه، وهناك تناسب ولياقة أن يخضع الصغار والشباب مؤقتًا لتعليم شيوخهم، ولكن فيما هو أبعد من ذلك فليس هناك رأي لإنسان أفضل من آخر. ولكن الأمر ليس هكذا فيما يخص الآباء الأولين، فالآباء لا يتكلمون برأيهم الخاص، إنّهم لا يقولون ''هذا الأمر حقيقيّ لأنّنا رأيناه في الكتاب المُقدّس''- وهو أمر هناك اختلافات في الحكم بخصوصه، بل يقولون: ''**هذا الأمر حقيقيّ بسبب أن الكنائس كلّها تؤمن به، وكانت فيما سبق تؤمن به طوال الأزمنة السابقة بلا انقطاع منذ زمن الرسل**''. حيث يكون الأمر هُنا موضوع شهادة، أي عن وجود وسائل المعرفة لديهم بأنّ هذا الأمر كان يُؤمَن به طوال العصور السابقة، لأنّه كان إيمان كنائس كثيرة مستقلة عن بعضها البعض، ولكن كان هذا إيمانها في نفس الوقت، وذلك يكون على أساس أنّ هذا الإيمان من الرسل. فبلا شك أنّه لا يمكن أن يكون إلّا حقيقيًّا ورسوليًّا''.[4]

فالكنيسة في عصرنا وفي كلّ العصور السابقة قد اعتمدت كلّيًّا على تعاليم آباء الكنيسة، واستقت منهم العقيدة والإيمان، وحين تركت الكنيسة تعاليمهم جانبًا، انحرفت انحرافًا عظيمًا -كما حدث في الكنيسة اللاتينيّة خلال العصور الوسطى- لذا، فالكنيسة، ولا سيّما في المنطقة العربيّة، في حاجة ماسّة للعودة إلى ينابيع إيمانها الأولى عند آباء الكنيسة، أي ترجمة هذه النصوص إلى العربيّة من لغاتها الأصليّة.[5]

---

[4] نيومان : *Discussionsa Arguments II ,I*. ترجمة د/ نصحي عبد الشهيد.

[5] هُناك جهود فرديّة كثيرة مشكورة من بعض العلماء الأقباط الذين سيخلد اسمهم في التاريخ لما فعلوه لنا من جميل في هذا العصر، مثل أساتذة المركز الأرثوذكسيّ للدراسات الآبائيّة، وكتابات الأب تادرس يعقوب، وغيرها.. لكنها لا تزال جهود فرديّة تحتاج إلى عمل نظاميّ صادر عن الكنيسة نفسها.

كما أنّ لكتابات الآباء أهمّيّة كبرى أيضًا لأنّها **المصدر الذي تأخذ منه الكنيسة إلى الآن ومنذ العصور الأولى نصوص القداسات التي تصلي بها** ونصوص التسابيح والتماجيد التي تستعملها الكنيسة في عبادتها الجماعية أو في عبادة المؤمنين العائلية والفرديّة. فمثلًا القداسات الثلاثة المستعملة في كنيستنا وهيَ الباسيليّ والغريغوريّ والكيرلسيّ هيَ من وضع القديس باسيليوس أسقف قيصرية كبادوكية في آسيا الصغرى في القرن الرابع، والقديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات (أو النزينزى) أسقف القسطنطينيّة في القرن الرابع أيضًا، والقديس كيرلس السكندريّ (الملقب بعمود الدين) في أوائل القرن الخامس المتنيح في سنة ٤٤٤م. كما أنّ نصوص لِّيتورجيَّات أسرار المعمودية، والميرون، ومسحة المرضى، والزواج، والكهنوت، ونصوص صّلوات تقديس المياه في اللقان، وصّلوات تدشين الكنائس كلّ هذه من وضع آباء الكنيسة في القرون الأولى.

يمثّل الآباء القدّيسون فكر الكنيسة الجامعة الذي تسلّمته من الرسل بفعل الروح القدس الذي يعمل بلا انقطاع في حياة الكنيسة. يتحدّث عنهم **المطوّب أغسطينوس**، قائلًا:

''تمسّكوا بما وجدوه في الكنيسة، عملوا بما تعلّموه، وما تسلّموه من الآباء وأدعوه في أيدي الأبناء''،[6] ''من يحتقر الآباء القدّيسين ليعرف أنّه يحتقر الكنيسة كلّها''.[7]

اعتمد **القدّيس أثناسيوس** على تراث الآباء في دفاعه ضد الآريوسيّين[8]، كما اعتمد **القدّيس باسيليوس** على تعليم الكنيسة ولا سيّما الليتورجيّ في دفاعه عن الروح القدس ضد أنصاف الآريوسيّين. تزايد هذا الاتجاه، إي الالتجاء إلى أقوال الآباء السابقين، في القرن الرابع، ونما جدًّا في القرن الخامس[9]. **فالقدّيس كيرلس السكندري** كمثال، في كتاباته إلى الرهبان المصريّين[10] دفاعًا عن لقب القدّيسة مريم ثيوتوكوس – لتأكيد أنّ المولود هو كلمة اللهَّ المتأنّس دون انفصال اللاهوت عن الناسوت – أشار إليهم أن يقتفوا آثار القدّيسين. وفي حديثه ضدّ نسطور[11] التجأ إلى تعليم الكنيسة المُقدّسة الممتدّة في كلّ العالم وإلى الآباء

---

[6] *St. Augustine: Contra Julian, II 9.*
[7] *St. Augustine: Contra Julian 37.*
[8] *Athanasius: Ep. ad Afros 6.*
[9] *Kelly: Early Chrisian Doctrines, p. 48–49.*
[10] *Ad Monach PG 77:12,13.*
[11] *Adv. Nest. 4:2.*

المكرّمين أنفسهم، معلنًا أنّ الروح القدس تحدّث فيه. ولتدعيم حديثه عن السيّد المسيح استند إلى بعض مقتطفات آبائيّة في كتاباتهم الجدليّة[١٢]، قدّمها إلى مجمع أفسّس[١٣].

هُنا، ويجب أن نُشدّد على أنّ كتابات الآباء هيَ حجر أساس ننطلق منه، وليست سقفًا يصد امتدادنا ونمونا، فعلينا أن نبني على كلماتهم لأعلى، لا خارجًا عن الحدود التي وضعوها، لكن أيضًا لا نقف عند حدودهم فقط، يقول اللاهوتي المعاصر الشهير بلتزار:

"ليست الأمانة للتقليد على الإطلاق أن نكرّر ونبلّغ القضايا اللاهوتيّة حرفيًّا، بل هيَ بالأحرى أن نقتدي، عند آبائنا في الإيمان، بموقف التفكير الحميم ومجهود إبداع الجريء، وهما تمهيدان لا تستغنى عنهما الأمانة الروحيّة الحقيقيّة"[١٤]

تاريخ دراسة كتابات الآباء

أوّل من استخدم كلمة *Patrologia* اللاهوتيّ اللوثريّ جون جيرهارد *John Gerhard* من رجال القرن السابع عشر كعنوانٍ لعمله الذي نشرّه عام ١٦٥٣، إلاَّ إنّ فكرة نشر أقوال الآباء تمتد إلى القرون الأولى عينها، ويمكننا – إن جاز لنا ذلك – أن نُقسِّم تاريخ علم الباترولوجي إلى عدّة مراحل، وإن كانت هذه المراحل ليست محدّدة تمامًا.

١. بدء ظهور المسيحيّة

كانت أقوال الآباء في هذه الفترة تمثّل نصيبًا من التقليد الكنسيّ، يتقبّله كلّ جيل ويودعه لدى جيل آخر. وهكذا انتشرت أقوال الآباء لا لغرض دراسيّ ولا كهدف في ذاتّها، وإنّما كوديعة تحمل داخلها إيمان الكنيسة الحيّ.

ويمكن تلخيص حفظ كتابات الآباء في القرون الأولى في المسيحيّة في النقاط التاليّة:

---

[12] *De recta Fide ad regin; apol. contr. Orient PG 76:1212 For; 316.*

[13] *E. Shwartz: acta conciliorum oecumenicorum 1:1, 7:89 F.*

[١٤] أدَلبيرت-ج. همّان، دليل إلى قراءة آباء الكنيسة، ترجمة الأب صبحي حموي اليسوعي، دار المشرق، بيروت ٢٠٠٢، ص٤.

١- كونها وديعة للإيمان فقد حظتها الكنيسة، واهتمّت بحفظها أيّما اهتمام، لذا نجد القديس غريغوريوس النيسي يكتب:

''يليق بنا أن نحفظ التقليد الذي تسلّمناه بالتتابع من الآباء ثابتًا بغير تغيّر''.

ويتبعه القديس كيرلس السكندريّ قائلًا:

''إنني محب للتعليم الصحيح، مقتفيًا آثار آبائي الروحيّة''.[١٥]

٢- كان تلامذة الآباء يجلسون عندهم حين يلقون العظات، ويسجلونها مدوّنة، وحين يرتحلون فإنّهم يأخذونها معهم كعونٍ روحيٍّ في الطريق، وهكذا انتشرت كتابات الآباء في جميع الأرجاء، ونسخت كثيرًا، كما تُرجِمت في وقت مُبكِّر إلى لغات كثيرة.

٣- مشاهير مؤرخي الحياة الرهبانيّة قاموا بعمل هام في حفظ كلمات وتعاليم آباء الرهبنة، ولا سيّما في مصر، حيث زارها يوحنا كاسيان، وبالاديوس، وروفينوس الإكويليّ، ووضعوا كتابات عمّا شاهدوه وتعلموه في صحراء مصر، حفظت لنا هذه الكتابات تعاليم الآباء النُسَّاك، ومن هذه الكتابات:

المناظرات *Conferences* لكاسيان.

مؤسّسات نظام الشركة *Institutions* لكاسيان.

التاريخ اللوزياكي لبالاديوس.

هستوريا موناخرم لروفينوس وآخرين.

٢. ظهور مؤرّخين كنسيّين

ننتقل هُنا إلى حقبة أُخرى من الحقب التي مرّت على علم الباترولوجي، وهي حقبة المؤرخين الكنسيّين. يعتبر **يوسابيوس القيصري** (حوالي ٢٦٠-٣٤٠م) أبًا لعلم الباترولوجي ومؤسّسا لفكر نشر أقوال الآباء وكتاباتهم[١٦]، حيث قال في كتابه ''التاريخ الكنسي *Ecclesiastical History*'' الذي نُشر عام ٣٢٦م:

[١٥] الأب تادرس يعقوب، مفاهيم إيمانية (٢): الكنيسة والتقليد، ص ٩.

[16] *J. Quasten: Patrology, vol 1.*

"هذا هو هدفي أن أكتب تقريرًا عن خلافات الرسل القدّيسين... وأن أشير إلى أولئك الذين – في كلّ جيل – نادوا بالكلمة الإلهيّة سواء كان شفاهًا أو كتابةً".[17]

وقد حاول الكثيرين من الكُتّاب الكنسيّين شرقًا وغربًا تكملة هذا العمل الضخم الذي بدأه يوسابيوس، منهم سقراط *Socrates* وسوزومين *Sozomen* وثيودريت *Theodert* الذين جاءت أعمالهم متقاربة إلى حدٍ ما، لكنّهم تجاهلوا الكنيسة الغربيّة اللهم إلاّ فيما يخص علاقتها بالكنيسة الشرقيّة. وفي الغرب قام روفينوس الإكويليّ *Rufinus* بترجمة يوسابيوس إلى اللاتينيّة، وأضاف إليه بعض الأحداث حتّى عصر ثيودوسيوس الكبير عام ٣٩٢.

ثمّ جاء **المطوّب چيروم** في السنة الرابعة عشر من حكم ثيودوسيوس، أي عام ٢٩٣م، بناء على طلب صديقه *Dexter* بكتابة "مشاهير الرجال". حيث أراد بعمله هذا أن يرد على كلسوس *Celsus* وبروفري *Prophyry* ويوليان *Juluan* وغيرهم من الوثنيّين في اتّهاماتهم المستمرّة بأن المسيحيّين قليلو الذكاء، فسجّل چيروم الكتّاب الذين يعتزّ بهم الأدب المسيحيّ (حتّى عام ٣٧٩م) في ١٣٥ فصلًا، حيث بدأ بالعصر الرسوليّ وانتهى بنفسه في السنة التي وضع فيها هذا العمل، مُقدّمًا في كلّ فصل عرضًا لسيرة الكاتب وتقييمًا لأعماله.

ويؤخذ عليه أنّه اعتمد في أوّل ٨٧ فصل على تاريخ يوسابيوس القيصريّ إلى حد بعيد، كما أنّه لم يفصل بين المسيحيّين وغير المسيحيّين، حيث اعتبر بريسكيليان وباسديسانيس الآريوسيّان من المسيحيّين، كما اعتبر أمونيوس ساكاس وهو أشهر الفلاسفة السكندريّين، وسينيكا الفيلسوف اللاتينيّ الرواقيّ مسيحيّان! كما ضمّ إلى الكتاب أعمال بعض اليهود مثل فيلو ويوسيفوس واعتبرهم مسيحيّان أيضًا، كما تجاهل أعمال أغسطينوس تمامًا، رُبّما يرجع ذلك للخلاف الذي نشأ بينهما.

بعد چيروم قام أحد نصف البيلاجيّين ويدعى جيناديوس بتكملة عمله إلى العام الذي عاش فيه. ثمّ بعد جيناديوس كثيرون قدّموا أعمالًا تحمل ذات المنهج، نذكر منهم ايسيذورس *Isidore of Serville* (تنيّح عام ٦٣٦) الذي أعطى اهتمامًا خاصًا بالكتّاب الأسبان، والأسقف إيلديفينوس *Ildephonsus of*

The Oxford Dictionary of the Christian Church, 1974, p. 481.

[17] *Eccl. Hist. 1:1:1.*

Toledo (تنيّح عام ٦٦٧م). وفي أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر قام مؤرّخ سيَر الآباء البندكتي *Sigebert of Gembloux* ببلچيكا بمحاولة جديدة لتقديم المؤلّفات المسيحيّة بصورة معاصرة لزمانه. وفي عام ١١٢٢م قام هونوريوس *Honorius Ausgusodunum* بعمل مشابه تحت اسم "الكنيسة المنيرة *De Luminaribus Ecclesaie*". وحواليّ عام ١٤٩٤م أمدنا الأب ترثيموس *John Trithemius* بسير ٩٦٣م من الآباء والكُتَّاب مع تفصيل لكتاباتهم، منهم من هم غير لاهوتيّين. وقد استقى معلوماته عن الآباء الأولين من چيروم وجيناديوس.

هذا عن الغرب، أمّا بالنسبة للشرق فقد قام البطريرك فوتيوس *Photius* بطريرك القسطنطينيّة الذي تنيّح عام ٨٩١م بعمل مماثل تحت عنوان *Photil Bibliotheca* يمتاز بالدقّة كما يحوي أعمال بعض المؤلفين الوثنيّين.

أمّا في الكنيسة القبطيّة قام بعض المؤرّخين مثل يوحنا النقيوسي وغيره، كما اهتمّ الأقباط بنسخ كتابات الأولين.

٣. بداية الدراسة المنهجيّة لكتابات الآباء

في عصر النهضة (القرن السادس عشر) بدأ الاهتمام بترجمة ونشر كتابات الآباء، إمّا بأعمال فردية أو كمجموعة كاملة، وقد ازدهر هذا العمل جدًّا في القرن السابع عشر، حيث نَشر **مارجور دو لا مين موسوعته الشهيرة** *(Marguerin de la Migne)*، مجموعة كبيرة لأكثر من ٢٠٠ كاتب في عمله *(Bibliotheca Sanctorum Patrum)* أُضيفت إليها أعمال أخرى بالتدريج، وقد صارت عام (١٦١٦) أربعة عشر مجلدًا باسم *(Magna Bibliotheca Veterum) Patrum* أُعيد طبعها في ليون عام (١٦٧٧م) في (٢٧) مجلد باسم *(Bibliotheca et antiq orum eccelsiasticorum)*.

في القرن التاسع عشر اغتنت المكتبات بالكتب المسيحيّة القديمة، وظَهرت الحاجة إلى كتابتها بعد تحقيقها علميًا وتنقيتها من الدخيل عليها من النسَّاخ، وتُعتبر أعظم مجموعة كاملة تلك التي قام بها *(Migne)* في القرن التاسع عشر باسم *(Patrilogiae)* ، وهي عبارة عن إعادة طبع للنصوص السابق نشرها لتكون في متناول اللاهوتيين وهي عبارة عن مجموعتين:

١- مجموعة الآباء اللاتين *(P.L.)* طبعة باريس (١٨٤٤ -١٨٥٥) وتتكون من (٢٢١) مجلدًا بها فهارس.

٢- مجموعة الآباء اليونان *(P.G.)* أي الكتابات اليونانية طبعة (١٨٥٧ -١٨٦٦م)، وتتكون من ١٦١ مجلدًا وَرد بها ترجمة كاملة باللغة اللاتينية وهي بغير فهارس، وقد تُرجم الكثير من هاتين المجموعتين إلى اللغات الحديثة من ألمانية وفرنسية وإنجليزية ولهجات عديدة أخرى.

انضمت إلى المجموعة السابقة مجموعة *(Patrologia Orientals)* قام بنشرها *(Nau, Graffin)* بباريس عام (١٩٠٧) في (٢٨) مجلد، وهيَ نصوص للآباء الشرقيّين في اللغات السريانيّة والقبطيّة والعربيّة.

أهمّ المصادر الآبائيّة في اللُّغات الحية

١- موسوعة *The ante-Nicene Fathers& Nicene and Post-Nicene Fathers* وهي أشهر الموسوعات الآبائيّة، قام بتحريرها فيليب شاف، لكن لغتها قديمة جدًّا، ولم تعتد بنصوص هامّة ككتابات القديس كيرلس.

٢- موسوعة *The Fathers of the Church* وهي أفضل كثيرًا من السابقة حيث ترجمتها أدق وأفضل ووصلت عدّد مجداتها حتّى الآن إلى ما يقرب من الـ ٣٠٠ مُجلّد.

٣- موسوعة الينابيع المسيحيّة *Sources Chrétiennes* بالفرنسيّة، وهي أفضل الموسوعات الآبائيّة على الإطلاق، وصل عدّد مُجلداتها حتّى الآن إلى ما يقرب من الـ ٧٠٠ مُجلّد.

تقسيم كتابات الآباء

يمكن تصنيف كتابات، خاصة في القرون الخمسة الأولى، على **أساس زمني**، فيرى البعض أن أوّل مجمع مسكونيّ (٣٢٥م) مع تحوّل الإمبراطوريّة الرومانيّة إلى المسيحيّة يُعتبر خطًا فاصلًا بين نوعين من الآباء من جهة كتاباته وتراثهم:

١. آباء ما قبل نيقيّة، يتسم تراثهم بالبساطة الشديدة.

٢. آباء ما بعد نيقيّة.

وربما يُمكن تقسيم آباء ما قبل نيقية إلى: ما قبل إيرينيئوس، وما بعد إيرينيئوس، حيث يُعدّ أسقف ليون هذا حدًا فاصلًا بين الكتابات الرعويّة، والكتابات اللاهوتيّة المنهجيّة، أو ما يُعرف اليوم في الكنائس غير الأرثوذكسيّة باللاهوت النظاميّ.

كما يمكن تقسيم كتابات الآباء على **أساس اللغة** التي كتبوا بها:

١. آباء يونان (شرقيّون) حيث كتب غالبيّة الآباء الشرقيّون باللغة اليونانيّة بجانب كتابات البعض بلغاتهم القوميّة كالقبطيّة والسريانيّة والأرمنيّة.

٢. آباء لاتين (غربيّون).

وبعد التقسيم اللغويّ، يجب تقسيم الآباء حسب المناطق التي عاشوا وتعلّموا وعلَّموا فيه، كالتالي:

١. كتابات آباء مصر، خاصة مدرسة الإسكندريّة وآباء البريّة.

٢. الآباء الأنطاكيون (السريان).

٣. الآباء الكبادوك.

٤. الآباء اللاتين (شمال إفريقيا وروما).

وكل مجموعة تحمل فكرًا خاصًا واهتمامات خاصة تناسب الظروف المحيطة بها، لذا جاءت كتابات كلّ منها إلى حد ما لها طابعها الخاص.

الخلفيات الثقافيّة لكتابات الآباء

أفلاطون *plato*

ولد أفلاطون أريستون في القرن الخامس ق. م. ولد في أحداث مؤسفة حيث هُزِمت أثينا من إسبارطه.

قام بالكثير من الرحلات حيث ذهب إلى مختلف المدن اليونانيّة وجنوب إيطاليا، ووصل رحلاته في الشرق حتّى مصر القديمة.

حاول كثيرًا أن يعمم فلسفته السياسيّة من خلال الحُكّام، خاصة مع ديونسيوس حاكم مدينة سيراقوصة، ولكنه فشل، واقتنع حينها أن عليه اولًا أن ينشيء الشباب على حبّ الفلسفة، واحترامها، ثمّ ستتغيّر حينها الأحوال السياسيّة.

ومن هُنا أنشأ مدرسته الفلسفيّة، وهي اولى المدارس الفلسفيّة في أثينا عند حديقة البطل أكاديموس، وأسماها الأكاديميّة، وقد قامت على الحوار والنقاش.

تقوم ركيزة نظريات أفلاطون الفلسفيّة على نظرية المُثل، وتقول النظريّة بأنّنا نعيش في عالم من الظلال والأوهام، والتي لن نستطيع أن نكتشف حقيقتها إلّا حين نفك عنّا القيود التي تُكبلنا بهذا العالم، وهذا يحدث عن طريق معرفة الحقيقة..

ومن هُنا جاء المثل الذي وصلت شهرته إلى شهرة أفلاطون نفسه، وهو الكهف، حيث يقول إنّنا نحيا داخل كهف كبير، مُكبلين إلى الحائط، ولا نرى سوى الظلال المنطبعة على حائط الكهف المقابل لمدخله الذي منه يأتي النور من عالم الحقيقة، لكن الذين في الكهف، لم يروا سوى الظلال، فاعتقدوا أنّها حقيقة.

وتنقسم النفس الإنسانيّة عنده إلى ثلاث: النفس الشهوانيّة، والنفس الغضبيّة أو الحماسيّة، والنفس العاقلة. وربما من هذه الثلاثيّة تحدث أفلوطين عن الثالوث الذي يوصله نحو الله.

ومن هذا التقسيم السابق أخذ أوريجانوس تقسيمه للنفوس الروحانيّة، ولقُرَّاء الكتاب المُقدّس.

وتعدُّ محاورتيه "تيماوس أو عن الخلق، وفيدون أو عن النفس" من أهمّ المحاورات التي استند عليها آباء الكنيسة الشرقيّة عامّة في تعاليمهم.

وقد تأثر بفلسفته كثيرًا الآباء الكبادوك، والسكندريون، ولكن السكندريّين دخلت عليهم كتابات أُخرى طورت من فكرهم كما سنعرف.

أرسطو

وُلِد أرسطو طاليس نيقوماخوس في مدينة باسطاغير على ساحل إيونيا في أوائل القرن الرابع ق. م.

مات والده وهو في الثامنة عشر، فترك مقدونيا والتحق بأكديمية أفلاطون بأثينا، وتتلمذ على يد أفلاطون الذي لمح نبوغه ودعاه بـ"عقل الأكاديمية"، ولسعة اطلاعه وقراءاته دعاه بـ"القَرَّاء".

بعد وفاة أفلاطون، ترك الأكاديمية وانتقل من أثينا إلى مقدونيا، وبعد عدّة سنوات دعاه فيليب ملك مقدونيا ليتلمذ ابنه الإسكندر (الأكبر)، ولبى أرسطو الدعوة وتلمذ الإسكندر لمدة أربع سنوات.

وبعد أن مات الملك فيليب وقاد الإسكندر الجيش ليفتح شرق البلاد، غادر أرسطو مقدونيا إلى أثينا، وبدأ يتطوَّر فكره عن فكر مُعلِّمه أفلاطون.

أسّس مدرسته الخاصة "اللوقيون" لتكون منافسة للأكاديميّة، أو لنقل متميّزة عنها، حيث ألحق بها متحفًا به العديد من النباتات والحيوانات التي كان يجري عليها التجارب، وجعل فترة مسائيّة خاصة بالجمهور من العامّة يلقي عليهم علومه وخطاباته، وهو ما قضى تمامًا على السفوسطائيّة التي فشل سقراط وأفلاطون في القضاء عليها.

نظرية المعرفة عند أرسطو تبدأ من الحواس التي تقودنا إلى المعرفة العقليّة التأمليّة، فليس العقل الخالص هو ما يقودنا إلى المعرفة.

وأهمّ ما يُميّز فلسفته هو الجوهر والعرض *συμβεβυκος* وببساطة تعني أنّ الجوهر هو الطبيعة أو استقلال الشيء بذاته في حدود، أمّا العرض فهو الوجود من خلال الطاقات، فهو صورة الجوهر لا الجوهر ذاته. وإنّ الاتحاد والاختلاط لا يحدث بين جوهرين، بل بين طاقات جوهرين، لإنّه في حالة اختلاط جوهرين فإنّهما يُنتجان شيئًا جديدًا ويتلاشيان فيه.

من هذه النظريّة أخذ الأنطاكيّون تفسيراتهم عن: وجهي الكتاب المُقدّس التاريخيّ والروحيّ، وطبيعتي المسيح، ومفهومهم عن التألُّه بالطاقات غير المخلوقة.

وهكذا نجد أنّ أكثر من تأثر بفلسفته هم الأنطاك.

فيلو *Philo*

فيلسوف يهوديّ عاش في الفترة من (٣٠ ق. م- ٥٠م)، بمدينة الإسكندريّة، حيث التحق بمدرستها الفلسفيّة، وهو أشهر فيلسوف دينيّ في عصره، حاول أن يوفق بين الفلسفة اليونانيّة ونصوص الكتاب المُقدّس، فكان ينطلق من الحدث الدينيّ ليتحرك نحو المفهوم الفلسفيّ الذي يحمله.

تأسّست الرمزية في اليهودية الإسكندرانية على وجهها الأكمل على يد **فيلون**[18] *Philo* الذي وضع لها نظامًا لتضييق الفجوة بين إعلان العهد القديم والفلسفة الأفلاطونية، إذ حمل إلى اليهود الفكر الهيليني في شرح العهد القديم لكسب المثقفين، مستخدمًا الرمزية. ويقارن فيلون المعنى الحرفي للكتاب بالظل، باحثًا عن الحقيقة الأصلية العميقة في المعنى الروحي الذي يرمز إليه[19]. وهو في هذا لا يقلل من شأن المعنى الحرفي أو يتجاهل المغزى التاريخي، لكنه ينظر إليه كجسم الإنسان الذي يحظى بكل احترام[20]، وإن كانت النفس أثمن منه.

تأثر به وبمنهجيته في التوفيق بين الدين والفلسفة جميع آباء الكنيسة.

أمونيوس ساكاس *Ammonius Saccas*

أحد أشهر مُدرسي مدرسة الإسكندريّة الفلسفيّة، خلط المطوَّب جيروم في كتابه مشاهير الرجال بينه وبين مسيحيّ يُدعى أمونيوس، فاعتقد أنّه مسيحيًّا وبقيَّ على مسيحيّته، إلّا إنّ أغلب الدراسات الحديثة ترفض كونه مسيحيًّا، فقد كان يونانيّ الدين والثقافة.

وقد دمج المفاهيم الفلسفيّة بالصبغة الصوفيّة الدينيّة، وهو ما ظهر عند كلّ تلامذته، فقد تتلمذ على يديه أفلوطين وأوريجانوس.

---

[18] *Philo (c. 20 BC.- c. AD. 50), the Jewish thinker and exegete in whom that literature flourished also lived in Alexandria. He belonged to a prosperous priestly family of Alexandria, and was firmly convinced that the teaching of the Old Testament could be combined with Greek speculation. His philosophy of religion embodies such a synthesis.(Esmat Gabriel: St. Clement of Alexandria, Coptic Church Review, Spring 1980, v.1, No. 1, p. 22.)*

[19] *De confus. ling. 190.*

[20] *De. migrat. Abrah. 89-93; J.N.D. Kelly: Early Christian Doctrines, 1978, p. 9.*

أفلوطين *Plotinus*

ولد أفلوطين بليكوبوليس بأسيوط بصعيد مصر، وذهب إلى الإسكندريّة ليتتلمذ على يد أمونيوس ساكاس، ثمّ ذهب إلى روما حيث أنشأ مدرسته الفلسفيّة هُناك.

أسّس الفلسفة الأفلاطونيّة الحديثة، وهي فلسفة تمزج بين الأرسطية والرواقيّة والأفلاطونيّة.

وفي فلسفته هُناك ثلاثة مباديء انبثقت منها الحياة، هم الواحد أو الله والعقل أو صور الأشياء الموجودة، والنفس وهي ما يتم به تحقق الصور في العالم الماديّ.

ويتحدث عن الانتقال من النفس إلى العقل عن طريق التأمل، ثمّ بكثرة التأمل ينخطف العقل البشريّ لنرى الله الواحد.

والإنسان عند أفلوطين عالم صغير *Microcosmos*، يحوي في داخله كلّ ما في العالم بالقوة، فهو مُشتت مثل الرياح، وحالم كالطبيعة، وحياته يُمكن أن تنجرف نحو المادة أو الطبيعة أو تسمو فوق السماوات بالمعرفة والتأمل.

ومن فكرته عن الثالوث، والإنسان، والصوفيّة أي انخطاف العقل والالتصاق بالواحد أخذت عنه المسيحيّة الكثير من الشروحات لتؤسّس عليه تعليمها.

وكان لمدرسته أثر كبير على الفكر الآبائيّ الشرقيّ، ولا سيّما السكندريون.

الآباء اللاتين

هم الآباء الذين يتحدثون باللاتينيّة، وهي لغة لم يُترجم إليها التراث الفلسفيّ اليونانيّ فلم يهتدوا إلى المسيحيّة بعقول وقلوب فلسفية، كما كان اليونان، بل حاربوها عن عدم معرفة بها إذ كانوا يظنون بالخطأ أنها خطرًا على الإيمان، لذا نجد ذلك القول الشهير للعلامة ترتليان: ''أنا أومن لأن الإيمان غير معقول''. ومهما قيل عن الثقافة الهيلينية التي كانت عند كبارهم، أمثال أمبرسيوس وأغسطينوس وجيروم، فهي لم تكن بعيدة ولا عميقة.[21] فها هو ترتليان يكتب:

[21] *P. Courcelle, Les Letters Greeques en Occident (Paris, 1943), P. 37 - 78, 137 - 182.*

''ما حكمة سُقراط ومن تبِعه من الفلاسفة إلاّ وحي من الشيطان''،[22] وأيضًا: ''ما الفلاسفة إلاّ بطاركة الهراطقة''،[23]

ويكتب جيروم:

''أي مودة بين النور والظلمة، وأي اتفاق بين المسيح وبعل، وما الذي يُمكن أن يفعله هوراس مع صاحب المزامير، أو فرجيل مع الإنجيل، أو شيشرون مع بولس، علينا ألاّ نشرب من كأس المسيح وكأس الشيطان معًا''.[24]

والذي يدعو للاهتمام أنّ هذه الكراهية ظهرت بشكل واضح جدًّا في النصف الغربي من الإمبراطورية فقط، أيّ عند هؤلاء المُتحدثين باللاتينيّة – كما قلنا – هذا العداء الذي نتج عن خلو الجانب الغربي من العالم القديم من المدارس الفلسفية اليونانية، تلك التي كانت سائدة في كلّ من آسيا الصُغرى والإسكندريّة وسوريا بجانب بلاد اليونان ذاتها.

هذا إلى جانب عامل اللغة نفسه، الذي أشرنا إليه سابقًا، فاللغة اللاتينيّة بطبيعتها لا تُشجع على المُناقشات الجدلية، بينما اللغة اليونانية بثراء مُترادفاتها وحيويتها نجدها على النقيض تمامًا.

لذا اختلف الفكر الشرقي عن الفكر اللاتينيّ الغربي، فهذا اختلاف طبيعي بين ثقافتين مُتناقضتين، بين من تمرّن على حل المُشكلات الجدلية، ومن قبّع خلفها مُتحدثًا عن ضعف العقل البشري؛ بين من انطلق حرًا يسعى نحو الجمال اللانهائي، والنور غير المخلوق الذي يتعدّى حدود المادة، وبين من توقف عقله عند المادة ولم يرغب في بذل الجُهد الفكري في سبيل الحوار والانفتاح المعرفي.

لذا نجد هذا الفارق الواضح بين المفاهيم المُختلفة بين آباء الكنيستين، فمثلًا المُطوّب أغسطينوس، وعلى خلاف بقية الآباء الشرقيين السابق ذكرهم، نجده يكتب مؤكدًا وراثة الذنب والخطية، قائلًا:

''إنَّ ذرية آدم المولودة منه قد نالت الثأر المناسب لعصيانه''.[25]

---

[22] *Copleston, History of Philosophy, VOL, II, P. 38.*
[23] *Laistner, Thought and Letters in Western Europe, P. 45.*
[24] *Epistola, XXII, 29.*
[25] *The Enchiridion, 26-27, PL 40:245.*

"إنّهم لا يُعاقبون بناء على الخطايا التي يضيفونها بتساهل مشيئتهم فقط، بل بناء على الخطيئة الأصلية، كما في حالة الرضع. هذه هيَ وجهة نظري المحدّدة في هذه المسألة".[٢٦]

"البشرية مُذنبة ومحرومة من النعمة بسبب قرار إلهيّ عقابي. المسيح أتى ليبطل غضب الله المبرّر".[٢٧]

كما تولّدت عند آباء الكنيسة اللاتينيّة، منذ القِدم، بعض التعاليم المُختلفة عن الآباء الشرقيين، والتي أدت فيما بعد إلى الفرقة الكبيرة بين الشرق والغرب، فمثلًا الغرب اللاتينيّ كان يُعَلِّم بأن الروح القدس هو رباط الوحدة بين الآب والابن، فنجد المُطوّب أغسطينوس يكتب: "**إنَّ الروح القدس لا ينبثق من الآب إلى الابن، ثمّ من الابن لأجل تقديسنا. لكنه، ينبثق من كليهما في الوقت نفسه**".[٢٨] هذا التعليم الذي كان وابلًا على الكنيسة، وكان أساس الفرقة بين الشرق والغرب في القرن الحادي عشر.

كما علّم بأن مريم قد حُبِل بها بلا دنس، تلك العقيدة التي لها أصول عند مُعلِمه أمبرسيوس ومن سبقوه، والتي ترسّخت في التعليم الكنسيّ الكاثوليكي إلى يومنا هذا، ولكنه لا يُرجع خلو مريم من الخطية منذ ميلادها، بل منذ اصطفاها الله كسابقة لخلاص جنس بني البشر، فيكتب: "**نرفض أن تدخل مريم في حساب الشيطان، لا بسبب حالة ميلادها، بل لهذا الأمر فحسب، وهو أن هذه الحالة قد إنحلّت عن مريم بسبب ميلادها الجديد**".[٢٩]

وبعكس الآباء الشرقيون الذين أكدوا على حرية الإرادة البشرية، يكتب أغسطينوس: "**إنَّ الله نفسه يُحوِّل مشيئة الإنسان من الشر إلى الخير، ومتى تحوَّلت فإنه يوجهه نحو الأعمال الصالحة**".[٣٠] وأيضًا: "**إني أتكلم هكذا على الذين قُضِيَّ لهم بملكوت الله، والذين عدّدهم مؤكد جدًّا بحيث لا يُمكن لأحد أن يُضاف أو ينقص منهم**".[٣١]

---

[26] *On the Soul and its Origin, Book IV, Chapter 16.*
[27] *The Enrichidion, chapter 30.*

[٢٨] الثالوث، ١٥: ٢٧.

[29] *Bulle: Ineffabilis Deus, de PIE. IX. 8. F. C. 397.*
[30] *On Grace and Free Will, 41.*
[31] *On Rebuke and Grace, XIII, 39, 940.*

هذه بعض التعاليم فقط التي تُخالف تعاليم الآباء الشرقيين، وهناك الكثير غيرها، مثل احتقار الزواج واعتباره فقط طريق لانجاب الأولاد، وغير ذلك.

وقد أقمنا الحجة على التعليم اللاتينيّ من كتابات المُطوّب أغسطينوس، لا لأنه قد أخطأ، أو أننا لا نعتقد في كونه أحد الكُتّاب الكنسيّين الهامين في تاريخ الكنيسة، بل وتاريخ الفلسفة أيضًا، إنما لكونه أهمّ آباء الكنيسة اللاتينيّة الأربعة (ترتليان - كبريانوس - أمبرسيوس - أغسطينوس)، ويُعد أخرهم وناقل تراثهم، وهو أوّل من استفاض في شرح تعاليم اللاهوت الغربي مُعتمدًا على تقليد من سبقوه.

يجب أن نعي هذه النقطة جيدًا — الفارق بين الآباء الشرقيين والآباء اللاتين - عند أيّ دارسة تختص بآباء الكنيسة أو تعاليمهم العقيدية.

الآباء اليونان

قد تهيّأ آباء الكنيسة الشرقية لمُطالعة أفلاطون عن طريق التعاليم التي شاعت في وقتهم، بل وقبل وقتهم، في المدارس الهيلينية سواء بالإسكندريّة أو بمدن آسيا الصُغرى (تركيا حاليًا). فقد اطلَّع آباء الكنيسة الشرقية على كتب أفلاطون، فاللغة التي كتب هو بها هيَ لغتهم، والكتب بين أيديهم، كما كانوا يتدارسونها في مدرسة الإسكندريّة، هذا ما يبدو واضحًا من كتابات أثيناغوراس المُتأثرة بالفلسفة الأفلاطونية، وإكليمندس السكندري، وتلميذه الأشهر أوريجانوس، هؤلاء الذين طالما ذكروا الفلاسفة في كتاباتهم، وكثيرًا ما استشهدوا مُباشرة بأقوالهم. فقد كانت فلسفة الإسكندريّة قبل كلّ شيء فلسفة دينية إلهية ترجع إلى أفلاطون، وبنوع خاص إلى فلسفته الإلهية الدينية التي أظهرها بجلاء في محاوراتيه فيدون وطيماوس.[٣٢]

وهذا بسبب وحدة اللغة، التي هيَ أساس وحدة الحضارة، أو استمرارها على الأقل، فآباء الكنيسة الشرقية، والفلاسفة الإغريق، جميعهم كانوا يتحدثون ويكتبون باليونانية.

[٣٢] انظر: رأفت عبد الحميد (الدكتور)، الفكر المصري في العصر المسيحيّ (القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠١٢)، ص ٥٣.

لكن، بكلّ تأكيد، لم تكن الفلسفة هيَ المُحرك للفكر الآبائي، بل فقط استخدم الآباء منهجياتها وبعض مُصطلحاتها لشرح الأمور اللاهوتيّة. القديس ساويرس الأنطاكي، من القرن السادس، قد أرسل عتابًا وسط رسائله مع سرجيوس النحوي (وهو شخص لديه خلط في مفاهيمه عن الخريستولوجي)، وقال له ألاّ يُفرط في الاحتكام للفلسفة، أنّ الفلسفة لم تكن قائدة للآباء، بل كانت خادمة لهم.[٣٣]

وينقسم الآباء اليونان إلى ثلاث فئات:

١ – أنطاك.

٢ – كبادوك.

٣– سكندريون.

١ – الآباء الأنطاك

أبرز الآباء الأنطاك هو القديس يوحنا ذهبي الفم، لكن هُناك آباء أخرون أقل أهمّيّة منه، مثل: لوكيانوس مؤسّس المدرسة الأنطاكيّة اللاهوتيّة، ودوروثيوس، وديودوروس الطرسوسي، وبولس السمساطي، وساويرس، وثيودورس المبسوسطي، ورومانوس المرنم (الحِمْصي)، ومكسيوس المعترف، وقزما المنشئ أخو يوحنا الدمشقي بالتبنّي، ويوحنا الدمشقيّ وآخرون.[٣٤]

كما يمكننا، بدون أدنى شك، إضافة ''الآباء السريان''، الذين كتبوا بالسريانيّة لغة سوريّة القديمة، إلى مجموعة ''الآباء الأنطاك''، أمثال: إفرام السريانيّ، ويعقوب السروجيّ، وإسحق السريانيّ، بالإضافة إلى إفرهاط الفارسيّ وغيرهم..

بحلول القرن الرابع أصبح الكرسي الأنطاكيّ في الترتيب بعد كرسي روما والإسكندريّة كثالث كرسي رسوليّ للمسيحيّة، وبلغت كنيسة أنطاكية أوج شهرتها في نهاية ذلك القرن.

---

[33] *Ian torance, Christology After Chalcedon,Wipf & Stock Pub (1998), P. 137.*

[٣٤] الكثير من هؤلاء لا تعترف بهم كنيستنا القبطيّة الأرثوذكسيّة.

يعتبر الدارسون الحديثون أنّ لوسيان (لوقيانوس) الأنطاكيّ هو المؤسّس لمدرسة أنطاكية. ولكن البداية الحقيقيّة لمدرسة أنطاكية كانت مع ديودور الطرسوسيّ في العقود الأخيرة من القرن الرابع.

يقول شاف:

"لم تكن مدرسة أنطاكية معهدًا مستديمًا منتظمًا يتعاقب عليه باستمرار وعلى التوالي سلسلة من المدرسين مثل مدرسة الإسكندريّة التعليميّة، ولكن كانت بالحري اتجاهًا لاهوتيًّا، وبالأخص نمطًا مميزًا لتفسير الكتب المُقدّسة وشرحها والذي كان مركزه أنطاكية".[٣٥]

كان كلّ من المعلمين والطلبة يعيشون في داخل المدرسة على نظام أسكيتيريون (*Hermitage* – دير)[٣٦] تحت قواعد وقوانين خاصة تنظم البرنامج اليوميّ لحياة الشركة هذه. وكان الطلبة داخل الأسكيتيريون يمارسون حياة النسك ودراسة الموضوعات اللاهوتيّة وكان عليهم أن يظلّوا بدون زواج.

وقد كانت ساعات الدراسة طويلة، والمادة الرئيسيّة في منهاج الدراسة كانت الكتاب المُقدّس، بالإضافة إلى مسائل عقائديّة وأخرى أخلاقيّة وما يخصّ الدفاع عن المسيحيّة، وذلك إلى جوار دراسة الفلسفة.

أعلن ديودور الطرسوسيّ في معارضته لطريقة التفسير التي اشتهرت بها جدًّا مدرسة الإسكندريّة

"إنّنا نطلب منهم أن يعرفوا أنّنا نفضّل التفسير الحرفيّ لنصوص الكتاب المُقدّس عن التفسير الرمزي".

تميّزت مدرسة أنطاكية اللاهوتيّة باعتماد منهج أرسطو في التفكير والاستدلال والتفسير. فهي، على عكس منافستها مدرسة الإسكندريّة الأفلاطونيّة، لم تعتمد المنهج الرمزيّ في التأويل، بل اجتهدت على التفسير الحرفي التاريخي، وعلى الاستدلالات المنطقيّة والواقعيّة، ولكنّها لم تلقَ رواجًا وسلطة بالقياس مع منافستها الإسكندريّة، رغم أن آباءها لمعوا بشكل كبير، وصُنِّف العديد منهم في لائحة "العصر الذهبيّ للآباء".

---

[35] *P Schaff, History of the Christian Church, vol. 2, Eerdmans Publishing Company, Michigan, 1910, p. 816.*

[35] *J Quasten, Patrology, vol. 3, Christian Classics, Maryland, p. 7.*

[36] *CJ Hefele, A History of the Councils of the Church, vol. 1, AMS Press, New York, 1972, p. 237.*

إنَّ "المدرسة الأنطاكيّة" وجوديّة الفكر، لا تنطلق، في أنثروبولوجيّتها، من "عالم المُثُل" الأفلاطونيّ، بالإضاءة على قيمة "النفس" في الإنسان؛ بل تركّز على واقعيّة الإنسان ككيان موَّحد. ولا تركّز، في خريستولوجيّتها، على إلوهيّة المسيح وحسب، بل على إنسانيّته الفيّاضة. وكما أنّ العهد الجديد، الذي انطلق مع الإزائيّين متّى ومرقس ولوقا، بلاهوت "تصاعديّ" للتأكيد أنّ يسوع المسيح الإنسان هو "ابن الله"، بالتوازي مع يوحنّا وبولس في لاهوتهما "التنازليّ": إنّ ابن الله تجسّد إنسانًا بيسوع المسيح.

٢- الآباء الكبادوك

كبادوكيا إقليم في آسيا الصغرى يقع غربي أرمينية، وكان محمية رومانيّة في القرن الأوّل قبل الميلاد، ثمّ ولاية رومانيّة في القرن الثاني الميلاديّ، وصار فيما بعد مركز انطلاق المسيحيّة، قسمها فالِنس الإمبراطور الآريوسي في ٣٧١م إلى كبادوكيا برايما (كبادوكيا الأولى) وعاصمتها قيصرية، وكبادوكيا سيكوندا (كبادوكيا الثانية) وعاصمتها تيانا *Tyana*. (وقد قاوم القديس باسيليوس ذلك التقسيم ولكن دون جدوى).

لمع في القرن الرابع ثلاثة أسماء في كنيسة كبادوكيا. هؤلاء الآباء الكبادوك العظام كَوَّنوا مدرسة محليّة للفكر اللاهوتيّ وهم: القديس باسيليوس أسقف قيصريّة الكبادوك، وأخوه القديس غريغوريوس أسقف نيصص وصديقه القديس غريغوريوس النزيانزي، "اللاهوتيّ" أسقف القسطنطينيّة.

هذا الثلاثي الرائع ثبَّت وأكَّد عقيدة القديس أثناسيوس، وقد وجدت أعمال القديس أثناسيوس تألقًا فيهم، بل وبلغت بواسطتهم أوج عظمتها.

انتعشت الآريوسيّة في كبادوكيا، وظهر من هذه المنطقة بعض الأسماء التي عُرفت كقيادات للهرطقة الآريوسيّة منهم: استيريوس السوفسطائي، غريغوريوس الكبادوكي، جرجس الكبادوكي، فيلاجريوس والي الإسكندريّة، وأخطرهم إفنوميوس *Eunomius of Cyzicus* والذي كان بينه وبين القديس باسيليوس جدالًا كبيرًا، أكمله غريغوريوس النيسي بعد انتقال باسيليوس أخيه.

إفونومسيوس هذا من إحدى تعاليمه أنّه قال إنّ الله يُمكن إدراكه بالملكات العقليّة، وهذا ما دفع الآباء الكبادوك للحديث عن الجوهر والطاقات، أي أنّ الله لا يصل إلينا عن طريق جوهره، بل عن

طريق طاقاته الإلهيّة غير المنفصلة عن جوهره، والتي تصلنا بجوهره ذاته. وهذا ما يختلف كثيرًا عن مدرسة الإسكندريّة في شرح مفهوم ''التألُّه''، الذي قام في الإسكندريّة على أساس أنّ الله يسكن فينا بأقنومه، بشخصه، وليس عن طريق ما وجد في كبادوكيا عن طريق طاقات.

وهُناك ملاحظة هامّة، إنّه بينما يتحدث الكبادوك عن الجوهر والطاقات، فإنّهم لم يتركوا الطريق الأصيل لشرح اللاهوت على مثال السكندريّين، حيث شرحوا أنّ اله يسكن فينا بشخصه، ولم يستخدموا مصطلح الطاقات سوى في الجدليّات مع إفونوميوس فقط لأجل الرد على هرطقته.

٣- السكندريّون ومدرستهم

يُخبرنا المطوَّب جيروم أن القديس مرقس الرسول نفسه هو مؤسّسها، وقد أنشأها كمدرسة للموعوظين، حيث يتقدّم إليها أولئك الراغبون في دراسة الإيمان المسيحيّ والكتاب المُقدّس كمرحلة تأهيليّة للعماد المُقدّس.

أُطلق عليها ''الأكاديميّة المسيحيّة الأولى''. وقد أُسّست لتواجه العالم اليونانيّ، ليس كعدوٍ، بل لتجذب طبقة المثقّفين والفلاسفة إلى المسيحيّة. كانت مثل معهدٍ للدراسات المسيحيّة المتقدمة. وكما يقول *Farrar*:

> لم تكن هناك مدينة في الإمبراطورية أُسند إلى الباحثين العظماء معلمي المسيحيّة فيها عملًا أخطر مما أُسند للذين في مدينة الإسكندريّة. فقد كانت مركزًا لأعظم نشاط عقلي حي. هناك وُجدت مضاربات بين الناس من كلّ دين وجنس، في تفاعل مع بعضهم البعض... ففي مدينة مثل هذه – الإسكندريّة – بمتحفها ومكتباتها ومحاضراتها ومدارسها الفلسفية ومجامعها (اليهودية) الفخمة وملحديها العلنيين وأفكارها الشرقية الباطنية العميقة، لا يحمل فيها الإنجيل قوة إن لم يكن قادرًا على خلق معلمين قادرين على مجابهة فلاسفة وثنيين ويهود أفلاطونيين وشرقيين اختاروا خليطًا من الفلسفات، يجابهونهم بنفس أُسّسهم. فمثل هؤلاء

المفكرين يرفضون الإنصات لمن هم غير قادرين على فهم أفكارهم والاهتمام بما ينشغلون به وتفنيد حججهم الأساسية، بهذا يلتقون بهم بروح مسيحيّ لطيف.[٣٧]

كان آباء الإسكندريّة أفلاطونيّين بالأساس، لكنّهم تأثروا أيضًا بأفلوطين وفيلو، فنتج عن هذا الخليط، بجانب الثراء الثقافي الموجود بالإسكندريّة، حيث يوجد بها المسيحيّين جنبًا إلى جنب مع الوثنيّين واليهود، كلّ هذا أدّى إلى وجود سمات خاصّة بالاهوت السكندريّ، حيث أخذوا من كلّ مدرسة فكريّة ما يتوافق والعقائد المسيحيّة. فقد اعتمدوا على أفلاطون في شرحهم للأخرويّات وطبيعة الله، واعتمدوا على أفلوطين في شرحهم للتأله والاتحاد بين الإنسان والله، وأخذوا من فيلو التفسير الرمزيّ للكتاب المُقدّس، وهكذا نتج الفكر السكندريّ على تنوعه وآفاقه الواسعة وصار مركزًا لكلّ من يرغب في تعلُّم المسيحيّة في كلّ العالم.

[37] *FW Farrar, Lives of the Fathers, vol 1, London, 1907, pp. 350-351.*

لمزيد من القراءة

- الباترولوجي في الستة قرون الأولى، القمص تادرس يعقوب.
- مدخل لعلم الباترولوجي، د نصحي عبد الشهيد.
- الاحتكام للآباء، د جورج فرج.
- تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة، كيرلس بسترس وآخرون.
- دراسات في آباء الكنيسة، الراهب باسليوس المقاريّ.

الفصل الثاني:

الخلق والتجسُّد

ينقسم آباء الكنيسة إلى قسمين رئيسيّين كما قلنا:

١- الآباء اليونان، وهم من تحدثوا وكتبوا باللغة اليونانية، وهم أساقفة ومُعلمي مناطق الإسكندريّة، وأنطاكية، وآسيا الصُغرى (كبادوكيا، والقسطنطينيّة).

٢- الآباء اللاتين، وهم من تحدثوا وكتبوا باللغة اللاتينية القديمة، وهم أساقفة ومُعلمي غرب أفريقيا، وروما.

سوف نعتمد في شرح كل جزئية على عرض أفكار الآباء: أثناسيوس، كيرلس السكندري، ذهبي الفم، غريغوريوس النيسي، غريغوريوس النيزنزي في الشرق.

والمغبوط ترتليان، وكبريانوس، وأمبرسيوس، وأغسطينوس، وتوما الإكويني، وأنسلم في الغرب.

بينما تشبّعت المسيحيّة الشرقيّة بالتعليم الفلسفيّة، وعمدتها لخدمة الكنيسة، نجد عند الغرب ذلك القول الشهير للعلامة ترتليان: "أنا أومن لأن الإيمان غير معقول". ومهما قيل عن الثقافة الهيلينية التي كانت عند كبارهم، أمثال أمبرسيوس وأغسطينوس وجيروم، فهي لم تكن بعيدة ولا عميقة.[٣٨] لذا نجد هذا الفارق الواضح بين المفاهيم المُختلفة بين آباء الكنيستين.

سوف نستعرض تعاليمهم عن التجسد في النقاط الآتية:

١- الخلق.

٢- قابلية الإنسان للموت قبل السقوط.

٣- الخطية الأصلية.

٤- لماذا التجسُّد؟

وسوف يتوقف حديثنا عند حدث التجسُّد وأسبابه..[٣٩]

---

[38] *P. Courcelle, Les Letters Greeques en Occident (Paris, 1943), P. 37 - 78, 137 - 182.*

[٣٩] هذا الفصل تلخيص لما جاء بتوسُّع في كتابنا: قصّة الحبّ العجيب. مع إضافة بعض الإيضاحات الخاصة بفصل التعليم الشرقيّ عن التعليم الغربيّ.

١- الخلق

نرى في سفر التكوين، في رواية نشأة الخليقة، في بزوغ فجر الحب الإلهيّ مكونًا الإنسان، **مكانة خاصة بين الإنسان والله**. هذا الفارق الجوهري هو -وعلى وجه الخصوص- **ما يفرق بين الكتاب الموحى به من الله والأساطير الإنسانيّة القديمة**[٤٠]، فبينما تنسب الأساطير، في غالبيتها، نشأة الكون لصراع ما بين الآلهة، أو لتناسل ونسب الآلهة![٤١] يُرجعه سفر التكوين إلى **تفرّد الله** وقدرته الواحدية اللانهائية من جهة، **وتفرّد العلاقة بينه وبين الإنسان** من جهة أُخرى.[٤٢]

علّة الخلق

لا يوجد اختلافات في موضوع الخلق بين مدرستي الشرق والغرب، ما عدا في موضوع العلّة أو السبب في الخلق. في المدرسة الغربية مُمثلة في **أغسطينوس** الذي يرى أن **التساؤل عن إرادة الله، يعني ضمنيًا أنه يوجد شيء، أو رغبة، سابقة على الإرادة**، بينما إرادة الله سابقة على كل شيء، ومُتزامنة في الوجود مع وجود الله.[٤٣]

بينما يرى **توما الإكويني** إنه **لا يُمكن تصور أي علة على الإطلاق للفعل الخالق**، سواء من الداخل أو من خارج الله، **فالقول بوجود علّة في أفعال الله يعني أننا سوف نُميز تمييزًا حقيقيًا بين القُدرات والصفات،**

---

[٤٠] الإسطورة بحسب تعريف كلود ريفيير استاذ الأنثروبولجي بجامعة السربون: هيَ تعبير الخيال عن الواقع، فالبدائي مثل الطفل الذي يُعطي روحًا للأشياء التي يجهل آليتها، ويُمكن للخيال الجماعي والخلاَّق بتحويل الواقع المادي إلى فكر إسطوري خيالي يجذب المستمع، والذي عادة ما كان يُستخدم في العبادات الطقسية القديمة. فحركات الطبيعة وتقلباتها، وجاذبيتها الخلاَّبة وألوانها الساحرة، أنشأت في عقل البدائي خليط بين الدهشة والخوف، الذي تأثر به خياله لينتج كائنات وروايات إسطورية تُجسد أحلامه في الواقع. (انظر: كلود ريفيير، الأنثروبولوجيا الاجتماعية للأديان، ترجمة أسامة نبيل (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥)، ص ١٧، ٧٣، ٧٤، ٩٠، ٩٣، ١٠٣). وطالما إتُهِم الفكر اللاهوتي في العهد القديم، واختذل في أنه نتاج أساطير شعوب الشرق الأدنى القديم، وإن شاء الرّبّ سوف نصدر دراسة في هذا الصدّد.

[٤١] ملحمة إينوما إيليش، الألواح الأولى.

[٤٢] للمزيد انظر: فالتر كاسبر، اللاهوت والكنيسة، ترجمة الأب يوحنا منصور (طرابلس: المكتبة البولسية، ٢٠٠٦)، ص ١٥٢- ١٥٤. أيضًا: روبير بيندكتي، التراث الإنساني في التراث الكتابي (بيروت: دار المشرق، ١٩٩٠)، ص ٣٤، ٣٥، ٣٧، ٣٨.

[٤٣] إيتن جيلسون، الفلسفة المسيحيّة في العصر الوسيط، ١٣٨.

وهذا ما لا يُمكن التفكير فيه مع اللاهوت، فإنه من غير المُمكن أن يتصور المرء أي علاقات سببية داخل الله.[٤٤]

وهذا يرجع إلى الفلسفة الأرسطية التي كانت تُسيطر على الفكر الغربي بشكل عام حتى نهاية القرون الوسط، وبداية عصر العلم مع جاليليو.

أمّا في الشرق، المُتأثر بالفكر الأفلاطوني، فإنه يُرجع عملية الخلق إلى عدة أسباب أُخرى مثل محبّة الله، وشغفه للشركة مع خليقته، وكون الخلق عمل من فيض الصلاح الإلهيّ.[٤٥]

٢- قابلية الإنسان للموت قبل السقوط

"خلق الإنسان قابلًا للموت والألم قبل السقوط وذلك بسبب طبيعة الإنسان أنه مخلوق من العدم وليس لأن الله خلق فيه خاصية الموت والألم. والذي كان من الممكن أن ينجو منه أن أبقى الله في معرفته"

القديس أثناسيوس الرسوليّ[٤٦]

هذه واحدة من النقاط الحاسمة بين اللاهوت الشرقي، واللاهوت الغربي، إذ أن الموت في اللاهوت الشرقي هو نتيجة طبيعية لفقدان نعمة الله مُعطية الخلود..

بينما في اللاهوت الغربي، فإن الموت هو حكم إلهي، هو دينونة من الله على البشرية الخاطئة، وهذا ما لا نجد له أثر في اللاهوت الشرقي، ولا في الكتاب المُقدّس!

الإنسان خُلق من العدم، وبحسب طبيعته هذه فإنه قابل للفناء والعودة إلى العدم مره أُخرى، وقد وهبه الله نعمة الخلود حتي إن بقي محافظًاعلى هذه النعمة يظل خالدًا إلى الأبد في شركة حقيقية في الله.

[٤٤] المرجع السابق، ١٣٩.
[٤٥] يمكن قراءة المزيد في كتاب: قصّة الحبّ العجيب، قراءة في لاهوت الخلق والسقوط والفداء، للمؤلف.
[٤٦] أنظر تجسد الكلمة ٤: ٦.

أما وقد سقط الإنسان من نعمة الله وفقد شركة الروح القدس فقد أصبح عائدًا مرة أخرى إلى الأرض التي أُخِذَ منها وفي طريقه إلى العدم والاضمحلال .

وإذا تساءلنا عن المرجع الكتابيّ لهذه القضية، فيوضحه لنا القديس سوايرس الأنطاكيّ، قائلًا:

"الإنسان فانٍ بالطبيعة، لأنه أتي إلى الوجود من العدم ... ولكن مع ذلك لو انه قد استمر موجهًا نظره نحو الله، لكان قد تجاوز قابليته الطبيعية للفساد وبقي غير فاسد[٤٧] وقد قال الله لآدم: 'أنت تراب وإلى تراب تعود'، ولم يقل له: 'لقد صرت الآن تُرابًا'، مما يعني ضمنًا أنّ آدم قد خُلِقَ في الأصل قابلًا للموت والفناء[٤٨]. ولكن آدم قد أُعطي وعدًا بعدم الموت وعدم الألم كهبة إلهية تُمنح له بنعمة الله، وبالسقوط فقد الإنسان هذه النعمة الإلهية، على الرغم من أنه لم يُجرد من طبيعته".[٤٩]

وهذا يعني أيضًا أن جميع المخلوقات خُلقت كأدم قابله للموت بحسب طبيعتها، ولأن الحيوانات وباقي الكائنات الحيه لا تُكَون شركه مع الله بل خُلقت لخدمة البشرية، فإنها كانت تموت قبل سقوط آدم بل وقبل أن يُخلق آدم. وذلك بحسب طبيعتها.

٣- الخطية الأولى مفهومها ونتائجها[٥٠]

آباء الكنيسة الذين كتبوا باليونانية فرأوا أنّ خطيئة آدم كانت الخطيئة الأولى، وأنّ الجميع خطئوا بعد الإنسان الأول. فالخطيئة الأصلية مكوّنة إذًا، في نظرهم، ليس من خطيئة آدم وحسب، بل أيضًا من خطايا جميع الناس إذ أخطأ الجميع: "من أجل ذلك كإنما بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع" (رومية ٥: ١٢).

---

[47] *La Polimque Antijulianiste, II B, ed. Robert Hespel, C. S. C. O., Vol. 244, p. 30.*
[48] *la polemique … I, p. 34.*

[٤٩] ساويرس الأنطاكي. مجمع خلقيدونية إعادة فحص بحث تاريخي ولاهوتي، الأب ف.سي.صموئيل. ترجمة د/ عماد موريس اسكندر، مراجعة د/ جوزيف موريس فلتس. سلسلة دراسات عن المسيحيّة في العصور الأولى. إصدار دار بناريون للنشر. ص ٤١٢ : *A. SANDY*
ANTI JULIANISTICA , BEYROUT , 1931 , SYRIAC , P. 69

[٥٠] مُختصر عن كتاب: قصة الحب العجيب، قراءة في لاهوت الخلق والسقوط والفداء، للمؤلف.

بالنسبة للأرثوذكسية: الخطية ليست جريمة ضد العدالة الإلهية، لكنها مرض يتلف الإنسان. لم يأتِ المسيح لكي يشفي كرامة الله المجروحة، بل ليشفي الإنسان من مرضه. بسبب الخطية صار الإنسان أسير الموت والفساد. الله حياة، والإنسان قطع نفسه عن الله مصدر الحياة الأبدية. جاء المسيح ليُعيد هذه الحياه الضائعة للإنسان.

بسبب خطيئة آدم وحواء صارت الطبيعة البشرية فاسدة وأسيرة للموت. لم يرث الإنسان ذنب خطيئة آدم. هذا ذنبٌ شخصي. بل ورث نتائج السقوط التي اصابت الطبيعة البشرية العامة ككل. أيضًا لم نرث طبيعة مائتة فحسب، بل أيضًا طبيعة أصاب الفساد ملكتها. الإرادة البشرية صارت مشلولة بالخطية وتفضل الشرّ على الخير[٥١].

يوستينوس:

إن المسيح لم يتنازل ويولد ويُصلب لأنه كان مُحتاجًا للميلاد أو الصلب، بل فعل هذا فقط لأجل الإنسان الذي منذ وقت آدم وهو ساقط تحت سلطان الموت وغواية الحية، إذ كان لكل إنسان تعدياته وشروره الخاصة.[٥٢]

وفي موضع آخر:

الله خلق الإنسان علي مثاله حيًا لا يموت حرًا من المعاناة، ولكن، الإنسان فعل فعل آدم وحواء فجلب الموت على نفسه...

وفسر المزمور الحادي والثمانين كما تشاء، فيظل يشهد أن جميع الناس يستحقون أن يكونوا آلهة وأن كلًا منهم سُيدان ويُحكم عليه كما حُكِم على آدم وحواء.[٥٣]

القديس كيرلس السكندري:

حينما تعرّض آدم للسقوط في الخطية، وغاص فيها حتى وصل إلى أعماق الفساد والموت، من هذا الوقت فصاعدًا بدأت الشهوات غير الطاهرة مُهاجمتها للطبيعة الجسدية، وبدأ ناموس

---

[٥١] د/ عدنان أديب طرابلسي ومجموعه من العلماء واللاهوتيين الارثوذكس. سألتني فأجبتك الجزء الاول. ص ٢٨٩.

[٥٢] يوستينوس، الحوار مع تريفو ٨٨: ٤.

[٥٣] الحوار مع تريفون فصل ٢٤

الخطية ينشب أظافره في أعضائنا، ولذلك، فالطبيعة البشري احتضنت مرض الخطية من خلال عصيان إنسان واحد هو آدم، وبهذه الطريقة أصبح الكثيرون خطاة، ليس هكذا بتعديهم الفعلي، لأنهم لم يكونوا قد وجدوا في الحياة الفعلية بعد، ولكن، إذ صار لهم نفس الطبيعة البشرية، سقطوا تحت ناموس الخطية مثل آدم... وهكذا نمت الطبيعة البشرية ضعيفة، وقابلة للفساد في شخص آدم، بسبب فعل المعصية، وهكذا دخلت في مُعاناة الآلام.. ولكن، في شخص المسيح، نالت البشرية حريتها، وصارت مُطيعة للآب، ولم تعد ترتكب الخطية.[٥٤]

وفي موضع آخر:

"لأنه يكون من الجهل أن نعتقد بأن قوة لعنة آدم الذي كان أرضيًا وانسانا قد نقلت بطريقة طبيعية إلى الجنس البشري كما لو كانت ميراثًا، بينما نزعم أن هؤلاء الذين يفضلون أن يعيشوا معه حياة الإيمان لا يشتركون في الحياة الغنية التى لعمانوئيل الذي أتى من فوق ومن السماء وهو من طبيعة الله وهو الذي صار شبيهًا بنا، أي صار آدم الثاني. لأننا صرنا جسدًا واحد معه بواسطة البركة السرائرية. واتحدنا بطريقة أخرى معًا، لأننا صرنا شركاء طبيعته بالروح. لأن الروح سكن في نفوس القديسين، وكما يقول يوحنا الطوباوى: " *وبهذا نعرف أنه يثبت فينا من الروح الذي أعطانا* " (١يو٣:٢٤)".[٥٥]

وهذا ما تسلّمته الكنيسة القبطية أيضًا..

ربما قد تشذّبت عقولهم بتعاليم الآباء التي حُفِظت بالقبطية في بعض النُسخ التي هيَ الآن زخيرة حية داخل أديرتنا العامرة. فها هو **أبي إسحق بن أبي الفضل بن العسّال**، المُكنَّى بـ"مؤتمن الدولة"، في كتابه الأشهر: "أبلغ الوسائل إلى علم الرسائل"، والذي يُعد دراسة مُختصرة جيدة جدًا عن رسائل وتعاليم القديس بولس الرسول، وفي معرض حديثه عن رسالة روميه نجده يكتب:

---

[٥٤] القديس كيرلس السكندري، *PG. 74, 788D- 789B*

[٥٥] تعليقات لامعة على سفر التكوين، ٣.

"إنَّ خطية آدم كانت موجبة لموته وموت الناس جميعًا، أمَّا تسلط الموت على آدم فكان بسبب مُخالفة ربه، وبأكله من الشجرة، وأمّا تسلطه على بنيه فلأجل ما يفعلوا من خطايا. فآدم أظهر الخطية الموجبة للموت، إلاَّ إنَّ أفعالها اختلفت منه ومن بنيه.. أمَّا قوله إن الموت تسلط على الذين لم يُخطئوا، فيُشير إلى الأنبياء والمُرسلين كموسى وبطرس الذيّن لم تُعد لهم خطايا كبار، بل سهوات وهفوات".[٥٦]

ومُعاصره **ابن كاتب قيصر**[٥٧] يقول:

"إن الخطية دخلت إلى العالم بتوسط إنسان واحد، وبها ملّك الموت على كل الناس من آدم إلى موسى، وليس لأنهم أخطأوا كخطيئة آدم من أكل الشجرة، لكن فعلوا غير ذلك من الخطايا".[٥٨]

والقس **منسّى يوحنا**، والذي هو من أعلام الأقباط في القرن العشرين، يكتب:

"إنّ الخطيئة الأصلية ليست إثمًا نرتكبه بإردتنا، ولا يحكم الله عليه بالعذاب حاسبًا إياها على إرادتنا، بل هيَ موت النفس، والموت هو الخلو من الحياة، وحياة النفس الروحية هيَ النعمة المُبرّرة، فالخطيئة الأصلية هيَ خلو من البر الأصلي، أي الخلو من النعمة المُبرّرة، وضياع الحالة المجانية الأولى، لأن ذريته صاروا يولدون دون هذه النعمة".[٥٩]

ونيافة المُتنيح **الأنبا أثناسيوس** مُطران بني سويف، وفي مَعرِض تفسيره لرسالة رومية، يقول:

"يقول البعض إنّنا نرث خطية آدم، ونؤمن لكي تُغفر لنا هذه الخطية، لكن الكتاب يقول عكس ذلك على لسان إرميا النبي (٣١: ٢٩ – ٣٠)، وحزقيال النبي (حز١٨: ٢ – ٤)، بل أنّ

---

[56] مؤتمن الدولة بن العسال، أبلغ الوسائل إلى علم الرسائل، تقديم ومُراجعة الأنبا ديمتريوس أسقف ملوي (مريوط: دير الشهيد مارمينا العجائبي)، ص ٨٩.

[57] علم الرئاسة أبو إسحق إبراهيم ولد الثناء ابن صفي الدولة أبي الفضائل كاتب قيصر، وكنيته ابن كاتب قيصر، أحد العلماء الأقباط في القرن الثالث عشر، كان أباه "صفي الدولة" كاتبًا للأمير "علم الدين قيصر". كان مُعاصرًا لأولاد العسّال، ولحق أيام ابن الراهب. له كتاب عن قواعد اللغة القبطية، وتفسير لسفر الرؤيا، وتفاسير على رسائل بولس الرسول (المسيحيّة والحضارة العربية، الأب الدكتور جورج شحاته قنواتي، ص ١٩٣).

[58] ابن كاتب قيصر، تفسير رسالة رومية (القاهرة: جمعية أبناء الكنيسة القبطية الأرثوذكسيّة)، ص ١٠٨.

[59] القس منسى يوحنا، حياة آدم، ص ١٠٥.

الخطية ساكنة في الطبيعة البشرية، ونحن نأخذ منها ونُحاسب على خطايانا نحن (انظر: يع١: ١٣ – ١٤). لو كُنَّا نُحاسب على خطية أبينا آدم لكانت غُفِرت منذ أن تمّ الفداء والعفو عن آدم (زك٩: ١١ – ١٢).. فمهما كانت خطايا البشر وجُمِعت كلها، فإنها تُعد محدودة، أمَّا فداء يسوع فإنه غير محدود..[60] فالإنسان يفعل الشر ويموت بخطيته هو وليس بإثم غيره".[61]

أمّا الكنيسة اللاتينية، فقد رآت في الخطية الأصلية أنها خطية موروثة، أو ذنب موروث، إنتقل إلينا، من آدم، عن طريق التزاوج. فنجد المطوَّب أمبرسيوس يقول:

لقد كان بطرس نقيًا ، ولكنه كان ينبغي أن يغسل رجليه إذ كانت فيه خطية موروثة عن الإنسان الأوّل عندما قهرته الحية وقادته إلى الخطية ، إذًا فقد غُسلت رجلاه حتى يطهر من الخطايا الوراثية ، فإن خطايانا تُغفر في المعمودية.[62]

وتلميذه المُطوّب أغسطينوس، وعلى خلاف بقية الآباء الشرقيين السابق ذكرهم، نجده يكتب مؤكدًا وراثة الذنب والخطية، قائلًا:

"إنَّ ذرية آدم المولودة منه قد نالت الثأر المناسب لعصيانه".[63]

"إنّهم لا يُعاقبون بناء على الخطايا التي يضيفونها بتساهل مشيئتهم فقط، بل بناء على الخطية الأصلية، كما في حالة الرضع. هذه هيَ وجهة نظري المحدّدة في هذه المسألة".[64]

"البشرية مُذنبة ومحرومة من النعمة بسبب قرار إلهيّ عقابي. المسيح أتى ليبطل غضب الله المبرّر".[65]

لذلك بينما ينظر أغسطينوس وآباء الكنيسة اللاتينية إلى الخطيئة في أصلها التاريخي، فيتكلمون عن "خطيئة أصلية" اقترفها آدم وانتقلت منه بالوراثة إلى جميع البشر، ينظر آباء الكنيسة اليونانية إلى الخطيئة

[60] أثناسيوس (نيافة مُثلث الرحمات الأنبا)، رسالة رومية (بني سويف: لجنة التحرير والنشر بمطرانية بني سويف، ١٩٩٧)، ص ٦٥.
[61] المرجع السابق، ص ١٩.
[62] أمبرسيوس، الأسرار، ٥.

[63] *The Enchiridion, 26-27, PL 40:245.*
[64] *On the Soul and its Origin, Book IV, Chapter 16.*
[65] *The Enrichidion, chapter 30.*

في واقعها الإنساني الشامل. وفي هذه النظرة تصبح مسؤولية الخطيئة مسؤولية شخصية يتحمّلها جميع الناس كما تحمّلها الإنسان الأول.

فالخطية الأصلية عند الآباء اللاتين، تُمثل أحد الدُعامات التي تقوم عليها نظرية البدلية العقابية التي سوف نتحدث عنها بعد قليل، وهي:

١- الجبرية والاعتماد التام على عمل النعمة.

٢- الذنب الموروث، وهو ذنب في صحبته اللعنة والحكم.

٣- عقوبة الموت.

٤- خطية آدم، مُضافة إلى خطايانا الشخصية التي وُجِهت في حق الله، تحتاج فادي غير محدود ليرفع الغضب الإلهيّ عن البشرية كلها.

وهذا الاختلاف في النظرة إلى الخطيئة الأصلية يبدو واضحًا عندما يتكلّم الآباء عن **معمودية الأطفال**. فالنظرة الأولى ترى أن المعمودية ضرورية للأطفال لتنزع عنهم الخطيئة الأصلية التي ورثوها عن آدم؛ أما النظرة الثانية فتؤيّد معمودية الأطفال، لا لنزع الخطيئة عنهم، بل لإدخالهم في حياة النعمة. وبينما يتساءل **ترتليانوس**: لماذا نعمِّد الأطفال، إذا كانوا أبرارًا وبلا خطيئة؟ يجيب القديس كبريانوس: ولِمَ لا نعمِّدهم؟ إنهم بلا خطيئة، لذلك تستطيع النعمة أن تعمل فيهم بدون عائق. وهذا أيضًا رأي **القديس يوحنا الذهبي الفم**:

"وإن كان الأطفال بلا خطايا، فإننا نعمِّدهم ليزداد فيهم البرُ والقداسةُ ويصبحوا هياكل للروح القدس".[٦٦]

يقول **القديس غريغوريوس النيسي**:

"لإنّه كما أن الطفل المولود حديثًا حُر من الاتهام ومن العقاب، هكذا مَنْ له ميلاد جديد من المعمودية ليس عليه أي شيء إذ قد تحرّر بالنعمة الإلهية من الدينونة".[٦٧]

---

[٦٦] اللاهوت المسيحيّ والإنسان المعاصر. ج١. المطران كيرلس سليم بسترس. ص ١١٤ ، ١١٥. *Catecheses Babtismales , iii , 5 - 6 , dans Sources Chretiennes N. 50 , pp 153 , 154*

٤- لماذا تجسّد الابن الوحيد؟

أصبح جليًّا أمامنا الآن أنّ الهدف لم يكن من أجل أن يُصلح الله مشكلة بين عدله ورحمته، ولا لكي يرفع عقوبة وضعها على البشريّة بسبّب خطيّة الواحد، بل أن يرفع نتيجة الشرّ الإنسانيّ الذي أثقل كاهله، ويُدمر سلاح الخطيّة الفعَّال الذي هو الموت. ويمكن أن نقول إنّ أسباب التجسُّد هيَ:

أ- سداد الدين الذي وقع تحته الإنسان نتيجة فعل الخطيّة، وهو الموت.

ب- محبّة الله دفعته كي يُخلِّص الإنسان الذي خلقه من براثن الموت الماديّ والروحيّ على السواء.

فلم يكن الله واقعًا تحت ضرورة دفعته كي يتجسَّد، لا يُمكن أن نضع الله تحت ضرورة، الإنسان فقط لأجل ضعفه ومحدوديّته يقع تحت الضرورة والحتميّة، أمّا الله فهو فوق الكلّ ومالك الكلّ ولا يعسر عليه أمر. ولأجل محبّته للبشريّة تحرّك لكي يُخلِّصها من براثن الموت الذي كاد يدمرها، حيث:

١- اتخذ جسدًا ماديًّا، ووحده معه، أي صار خاصًا به، جسده الخاص بحسب تعبير القديس كيرلس السكندريّ، وفي هذا الاتحاد اتحدت وتصالحت طبيعتنا جميعًا مع الله، وما حدث قديمًا حين فارق روح الله الإنسان (تك٦: ٣)، تبدّل بالمسيح ليكون لنا برّ الله فيه، ويكون لنا به سلام مع الله (رو٥: ١). وهذا ببساطة ما يدعوه الآباء بالتألُّه، فيقول **العلامة أوريجينوس**:

"صار مثلهم ليصيروا هم مثله، مشابهين صورة مجده (رو ٨: ٢٩). في مجيئه الأوّل صار مشابهًا لجسد تواضعنا (في ٣: ٢١)، إذ أخلى نفسه وأخذ شكل العبد، حتى يدخل البشر إلى شكل الله، يجعلهم على شبهه"[٦٨].

هذا أيضًا ما قاله **القديس إيرينيئوس**:

"صار الله إنسانًا لكي يصير الإنسان إلهًا".[٦٩]

[67] *Gregory of Nyssa, "On the Baptism of Christ", trans. Henry Austin Wilson In , in The Nicene and Post-Nicene Fathers Second Series Vol. V (Oak Harbor: Logos Research Systems, 1997), 519.*
[68] *Comm. Matt. 12:29.*
[69] *Adv. Haer 3:10:2;19:1.*

والقديس إكليمندس الإسكندري:

"صار كلمة الله (اللوغوس) إنسانًا حتى تتعلم كيف يصير الإنسان إلهًا".[70]

وواضح بكلّ تأكيد أنّ ليس المقصود أن يصير الإنسان الله حرفيًّا بعيدًا عن نعمة الله المؤلهة، بل يجب أن يخضع الإنسان لله، وبخضوعه يُنير الله للجميع من خلاله، فيتأله، يصير إلهيًّا، له فكر الله، وفي طريقه للاتحاد الكامل مع الله في الأبديّة، وسوف نتحدث عن هذا الموضوع بتفاصيل أكثر في الفصول الأخير من هذا الكتاب.

٢- بتعاليمه بدّل تعاليمنا المشوهة عن الله، وعن تعاملاتنا مع بعضنا البعض! فإذ هو صورة الله، وكامل إعلان الله عن ذاته، أعطانا معرفة بحياة الله، وبشخصه، وبمشاعره نحونا -إن جاز التعبير- حيث تعرّفنا على الله معرفة تفوق كلّ استنارة في العهد القديم، وكلّ رؤية حدثت قبل مجيئه، هُنا نحن نعاين الله ذاته، ويتكلم الله ذاته لنا في ابنه (عب١: ٢)، هذا من جهة. ومن جهة أُخرى بدّل يسوع مفاهيمنا المشوّهة عن تعاملاتنا تجاه بعضنا البعض، فمثلًا في الخدمة بدلًا من أن يكون الخادم هو العبد، صار الخادم هو أعظم الكلّ، وإنّي أتوقّف كثيرًا أمام نص الإنجيليّ يوحنا حين يكتب:

"أَمَّا يَسُوعُ قَبْلَ عِيدِ الْفِصْحِ، وَهُوَ عَالِمٌ أَنَّ سَاعَتَهُ قَدْ جَاءَتْ لِيَنْتَقِلَ مِنْ هذَا الْعَالَمِ إِلَى الآبِ، إِذ كَانَ قَدْ أحبّ خَاصَّتَهُ الَّذِينَ فِي الْعَالَمِ، أَحَبَّهُمْ إِلَى الْمُنْتَهَى.فَحِينَ كَانَ الْعَشَاءُ... يَسُوعُ وَهُوَ عَالِمٌ أَنَّ الآبَ قَدْ دَفَعَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى يَدَيْهِ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَرَجَ، وَإِلَى اللهِ يَمْضِي،قَامَ عَنِ الْعَشَاءِ، وَخَلَعَ ثِيَابَهُ، وَأَخَذَ مِنْشَفَةً وَاتَّزَرَ بِهَا،ثُمَّ صَبَّ مَاءً فِي مِغْسَل، وَابْتَدَأَ يَغْسِلُ أَرْجُلَ التَّلاَمِيذِ وَيَمْسَحُهَا بِالْمِنْشَفَةِ الَّتِي كَانَ مُتَّزِرًا بِهَا". (يو١٣)

هُنا نرى يسوع، الذي يعلم من أين أتى، وإلى أي مجد يمضي، وأنّ كلّ قوة هيَ بين يديه، جلس يغسل أرجل التلاميذ، راكعًا أمامهم! هذا هو المفهوم الصحيح للخدمة والخادم، المفهوم الصحيح للسيّد والرّبّ واتباعه، إنّه يخدمهم لا يُخدم بهم.فمجيء الابن كان ليصوّب لنا مفاهيمنا المشوّهة هذه.

[70] *Prot. 1; Strom 4:23; 7:3; 7:10; 7:13.*

في تفسيره على سفر نشيد الأنشاد يقول القديس غريغوريوس النيسي:

" الذي جاء من الأعالي والذي هو فوق الجميع أرانا الطريق من خلال ظهوره في الجسد، فقد كان لنا مثالًا عاليًا لكل فضيلة وصلاح. وكما قال السيِّد المسيح: "**تعلموا مني، لأني وديع ومتواضع القلب**" (مت ١١: ٢٩). وقد تكلم الرسول في نفس الموضوع عندما تحدث عن التواضع، ودعوني أقرأ النص لأوضح الحقيقة العامة: يقول بولس ينظرون إلى أعلى "فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح أيضًا. الذي إذ كان في صورة الله لم يُحسب خلسة أن يكون معادلًا لله. لكنه أخلى نفسه آخذًا صورة عبد" (في ٢: ٥). لقد شاركنا حياتنا بالجسد والدم وبإرادته أخذ هذا".[٧١]

وهكذا بوعي شديد يرى النيسي أنّ الله تجسّد لكي يُعلمنا طريق الفضيلة فيه، فلم يتمحوَر سبب التجسُّد فقط في حدث الصليب، بل الخلاص هو قصة طويلة بدأت منذ خلق الله الإنسان، وتمتد إلى المجيء الثاني، ومركزها الفترة من ميلاد المسيح لصعوده، تلك التي دعاها بولس الرسول بملء الزمان (غلا٤: ٤).

٣- بموته مات الموت، بموت الرّبّ ذُبِح الموت الذي ساد على البشريّة منذ آدم، دُمِّر سلاح الخطيّة الفعَّال، يشرح القديس أثناسيوس باستفاضة هذا الأمر في كتابه "تجسد الكلمة" قائلًا:

"وهكذا إذ اتخذ جسدًا مماثلًا لطبيعة أجسادنا، وإذ كان الجميع خاضعين للموت والفساد، فقط بذل نفسه للموت عوضًا عن الجميع، وقدمه للآب. كل هذا فعله من أجل محبته للبشر، أولًا: لكي إذ كان الجميع قد ماتوا فيه، فإنه يُبطل عن البشر ناموس الموت والفناء، ذلك لأن سلطان الموت قد استنفد في جسد الرب، فلا يعود للموت سلطان على أجساد البشر (المماثلة لجسد الرب). ثانيًا: وأيضًا فإن البشر الذين رجعوا إلى الفساد بالمعصية يعيدهم إلى عدم الفساد ويحييهم من الموت بالجسد الذي جعله جسده الخاص، وبنعمة القيامة يبيد الموت منهم، كما تبيد النار القش".[٧٢]

---

[71] *Homilies on Song of Songs, 4.*

[٧٢] تجسد الكلمة٨:٤.

ويكتب أيضًا:

"إن كان موت الرّبّ هو فدية عن الجميع وبواسطة موته هذا نقض "*حائط السياج المتوسط*" وصارت الدعوة لجميع الأمم، فكيف كان ممكنًا أن يدعونا إليه لو لم يكن قد صُلِبَ؟ لأنه على الصليب وحده يمكن أن يموت إنسان باسطًا ذراعيه. لهذا كان لائقًا بالرب أن يحتمل هذا الموت ويبسط ذراعيه، لكي بأحدهما يجتذب الشعب القديم وبالذراع الأخر يجتذب الذين هم من الأمم، ويوّحد الاثنين في شخصه".[73]

"افرحوا وتهلَّلوا يا جنس البشر

لأنّه هكذا أحبّ الله العالم

حتّى بذل ابنه الحبيب عن المؤمنين به

لإنّه غُلِبَ من تحنُّنِه

وأرسل لنا ذراعه العالية"

ثيوطوكية الإثنين

[73] تجسد الكلمة، ٣:٢٥.

لمزيد من القراءة

- الكفارة بين النظرية والتطبيق، د/ فينيس نيقولا.
- قصة الحب العجيب، قراءة في لاهوت الخلق والسقوط والفداء، أمجد بشارة.
- الخطية الجدية حسب تعليم القديس ساويرس الأنطاكي، د/ جورج فرج.
- التجسد فيض المحبة، المطران كيرلس بسترس.
- تجسد الكلمة، القديس أثناسيوس الرسوليّ.
- التجسد الإلهي، الأنبا بيمن أسقف ملوي.
- الخلاص الثمين، أحد رهبان برية مقاريوس.
- هكذا أحبّ الله العالم، القس موسى فايق.

–Justaf Aulen, Christus Victor, A Historcal Study of the Three main Types of the Idea of the Atonement.

- George Florovsky, Creation and Redemption.

- John Roomanides, Original sin According to ST. Paul.

الفصل الثالث:

الثالوث القدوس

الثالوث القدوس ليس فلسفة ولذلك فهو ليس تعليمًا خاصًا بالفهماء والحكماء. لكنه حياة تُعطَى لجميع الناس. وجميع الناس يمكنهم أن يشتركوا في حياة الثالوث. الحياة تكون مختلفة تمامًا إذا كان هناك ثالوث أو لم يكن. والإيمان المسيحيّ ليس فلسفيًّا أي أنّ هذا الإيمان لا يتكوَّن من عنصر أرضيّ، لذا يمكن للجميع أن يفهمه، فهو ليس فلسفة صعبة المنال، بل أدركها أبسط المسيحيون على مرّ التاريخ. فالثالوث القدوس هو الألف والياء في المسيحيّة.

الله واللغة

لكي نتكلم في عقيدة الثالوث يلزم أن نقرّر منذ البداية أن الحديث عن الله **يكون للكلمات فيه معانٍ غير المعاني المألوفة**. وهذا الكلام عن الله نسميه التكلُّم بالإلهيّات. وعندما نتكلم عن الله فنحن نعطي للكلمات معاني غير المعاني المعروفة والشائعة. فمثلًا إذا قلنا أنّ هذا الإنسان واحد وليس اثنين فهذا له معنى مختلف عن قولنا إنّ الله واحد. فعندما نقول عن إنسان إنه **واحد** فنحن لا نعني نفس الشيء الذي نعنيه عندما نقول كلمة **واحد** عن الله. فليس هناك مدلول واحد لنفس الكلمة عن الله وعن الإنسان.

الله هو الذي نتصل به ونعبده وهو لا يُتكلم عنه. لكن لابد من الكلام. إذًا سيكون كلامنا منزهٌ عن الكلام البشريّ.

ماذا عن مثال الوجود والعقل والحياة

ينبغي أن نلاحظ أنّه طبقًا لتعاليم الآباء **فإن الكينونة أو الوجود ليس قاصرًا على الآب وحده، لأن الآب له كينونة حقيقيّة وهو الأصل في الكينونة بالنسبة للابن والروح القدس، والابن له كينونة حقيقيّة بالولادة الأزلية، والروح القدس له كينونة حقيقيّة بالإنبثاق الأزلي**. ولكن ليس الواحد منهم منفصلًا في كينونته أو جوهره عن الآخرين.

وكذلك العقل ليس قاصرًا على الابن وحده، لأن الآب له صفة العقل والابن له صفة العقل والروح القدس له صفة العقل، لأن هذه الصفة هيَ مُشخصنة في الله، فكلّ صفة في الله هيَ مُشخصنة، أي شخصانيّة، مرتبطة بالشخص الإلهيّ ذاته، فالمحبة ليست صفة في الله بل هيَ الله ذاته، والبر ليس صفة في الله بل هو الله ذاته... فصفات الله ليست كصفات البشر، بل هيَ صفات مُأقنمة، وذلك لإنها ليست خارجيّة –مثل الصفات البشريّة– بل هيَ تامّة وكاملة ونهائيّة، وتنبع من داخل الله ذاته الذي لا يُمكن أن يُبدّلها أو ينمو فيها.

وفي **قداس** القديس غريغوريوس النزينزي نخاطب الابن ونقول:

"أيها الكائن الذي كان والدائم إلى الأبد".

لأن الآب له كينونة حقيقيّة وهو الأصل في الكينونة بالنسبة للابن والروح القدس، والابن له كينونة حقيقيّة بالانبثاق الأزلي، ولكن ليس الواحد منهم منفصلًا في كينونته أو جوهره عن الآخرين. وكما قال **القديس أثناسيوس**:

"لماذا تكون صفات الآب هيَ بعينها صفات الابن؟ إلا لكون الابن هو من الآب وحاملًا لذات جوهر الآب".

وبالنسبة لخاصية **الحياة** فهي ليست قاصرة على الروح القدس وحده، لأن الآب له صفة الحياة والابن له صفة الحياة والروح القدس له صفة الحياة، لأن الحياة هيَ من صفات الجوهر الإلهيّ. والسيد المسيح قال "كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن أيضًا أن تكون له حياة في ذاته" (يو ٥:٢٦). وقيل عن السيد المسيح باعتباره كلمة الله "فيه كانت الحياة" (يو ١:٤). ولكن الروح القدس لأنه هو الذي يمنح الحياة للخليقة لذلك قيل عنه أنه هو "الرب المحيي" (قانون الإيمان والقداس الكيرلسي)، وكذلك أنّه هو "رازق الحياة" أو "معطي الحياة" (صّلاة الساعة الثالثة).

من الخطورة أن ننسب الكينونة إلى الآب وحده، والعقل إلى الابن وحده، والحياة إلى الروح القدس وحده:

١ – لأنّنا في هذه الحالة نقسم االجوهر الإلهيّ الواحد إلى ثلاثة جواهر مختلفة.

٢- وربما يؤدي الأمر **إلى أن ننسب الجوهر إلى الآب وحده** (طالما أن له وحدَهُ الكينونة) وبهذا ننفي الجوهر عن الابن والروح القدس أو كينونتهما، ويتحولان بذلك إلى صفات لأقنوم إلهيّ وحيد هو أقنوم الآب (وهذه هيَ هرطقة سابليوس).

وقد أشار القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيّات إلى هذه المفاهيم فقال:

"فكرت كذلك في الشمس، والشعاع، والنور. وهذا لا يخلو أيضًا من خطر:

أ- يُخشى أولًا تصوُّر تركيب ما في الطبيعة غير المركبة - كما يكون ذلك في الشمس وخصائصها.

ب- ويُخشى ثانيًا **أن يُخص الآب وحده بالجوهر** فنزول أقنوميّة الآخريْن، ويكونان قوتيْن لازمتيْن لله لا أقنومين فليس الشعاع شمسًا وليس النور شمسًا، بل فيض شمسيّ ومزيّة (خاصية أو صفة) جوهريّة".

وهو هنا لا يرفض التشبيه المذكور ولكن يُحَذِّر من الفرق بين التشبيه والأصل في فهم عقيدة الثالوث.[٧٤] ولقد حدّد **القديس غريغوريوس**[٧٥] في تعليمه الصفات المتمايزة للأشخاص الثلاثة في الثالوث الأقدس. وعلَّم قائلًا:

"دعنا نلتزم بحدودنا ونتكلم عن "غير مولود" و"المولود" و"ذاك الذي ينبثق من الآب" كما قال الله الكلمة نفسه في أحد المواضع".

ولم يتكلم القديس إغريغوريوس أو أي من الآباء عن أي تمايز آخر في الثالوث القدوس.

---

[74] *P.Schaff & H. Wace N. & P.N. Father, series 2, Vol. VII, Eerdmans Pub. Company, Sept. 1978,Gregory Nazianzen, Fifth Oration on the Spirit p.328.*

[75] *Phillip Schaff & Henry Wace, Nicene & Post Nicene Fathers, Vol. VII, Second Series. Hendrickson Publishers. June 1995, 3rd Theological Oration Article II P.301.*

التمايز الأقنوميّ

مفهوم الشخص

أقنوم كلمة سريانيّة تعني شخص، لكن تغيّر مفهوم الشخص منذ الفيلسوف جون لوك في العصر الوسيط، الذي أصبح معناه الكائن المُفكر بذاته،[٧٦] وأضاف إليه كانط أنّه الشخص الذي تنسب إليه أفعاله الذاتيّة.[٧٧]

بينما في اللاهوت المسيحيّ فإنّ الشخص موجود لعلاقة مع آخر، وجوده الحقيقيّ مرتبط باتحاده بآخر وتحرّكه نحوه، فانعزال الشخص وانحصاره في ذاته هو موت بكلّ تأكيد.

لذا فضلت الكنيسة أن تستخدم ذات المصطلح سريانيّ الأصل للتعبير عن إيمانها.

مفهوم التمايز الأقنوميّ

عندما نقول الإله الواحد الآب الذي منه يولد الابن، ومنه ينبثق الروح القدس، فمن الواضح إننا نؤكد هنا على وحدانية الله، وضد ما يُفهَم خطأ من تعدّدية حينما نتحدث عن الأقانيم الثلاثة. عندما نقول: الآب بكلمته وروحه لا يبقى مجال للتحدث عن التعدّدية في الثالوث.[٧٨] وقد جاء في كتاب الروح القدس في التراث الأرثوذكسيّ الذي ألّفه " بول إفدوكيموف" ونقله إلى العربية المطران إلياس نجمة ما يلي:[٧٩]

"إن الاقانيم في الثالوث جوهر واحد، ولكل منهم خصائص شخصية هذه الخصائص هيَ **الصفات الأقنوميّة** التي **تميز** الآب بوصفه **غير مولود ومبدأ الألوهية** وينبوعها وجذرها، والابن بوصفه **مولودًا** أو الروح بوصفه **منبثقًا** وهذه الصفات من شأنها التمييز بين الأقانيم والتعبير عن الطرائق الوجودية في الأقانيم فالآب آب منذ البدء والابن مولود بدون ابتداء

[76] *Essay on Human Understanding II, ch 27 (The Works of John Locke, London 1823. Vol 2).*
[77] *I. Kant, Grundlegung zur Metaphysik der Sitten AB 22.*
[٧٨] دكتور موريس تاوضروس: علم اللاهوت العقيدي- الجزء الثاني – ١٩٩١ – ص٧٧.
[٧٩] منشورات المكتبة البوليسية ١٩٨٩ ص ٤٣،٤٢.

كائن معه مساو له كصورته الحية وصورة جوهره وانبثاق الروح القدس لا يختلط أصلًا بهذا الميلاد غير أن الآب يصدر الروح القدس كما يلد الابن. **إن كلمتي الولادة والانبثاق تشيران إلى مصدر ومبدأ الولادة والإنبثاق، وكلاهما صدور باطني، لا يمكن فصلهما عن الآب الذي يُعطي الجوهر الذي لا ينقسم كله،** جوهر الألوهة وهكذا فالآب هو مبدأ الابن والروح وهو جذر وينبوع ولأجل هذا فالألوهية معبودة في وحدة الرئاسة''.[80]

ويتحدث **القديس هيلاري** عن هذا التمايُز في كتابه عن ''الثالوث'':[81]

''هناك تمايز لأنهما آب وابن. ولا يعني هذا أن الوهيتهما مختلفة في النوع، فكلاهما واحد: إله من إله، إله واحد مولود من إله واحد غير مولود ليسا إلهيّن، **وإنما واحد من واحد**. ليسا غير مولوديْن، وإنما الابن مولود من غير المولود. **ليس هناك تعدّد لأن حياة الإله الحي هيَ في المسيح الحي؛ ''أنا والآب واحد'' (يو١٠: ٣٠)** هيَ كلمات الابن الوحيد للغير المولود. هيَ صوت الإله الوحيد يعلن عن نفسه أنه الآب والابن. الآب يتكلم في الابن، والابن في الآب..**لأن فيه يحل كلّ ملء اللاهوت جسديًا** (كو٢: ٩)''.

وعن نفس الموضوع يتكلم يوحنا الدمشقي، فيقول:

''الآب والابن والروح القدس هم واحد من جميع الأوجه، فيما عدا من جهة عدم الميلاد الميلاد، والانبثاق''.[82]

الأعمال المنسوبة لأحد الأقانيم

وعلى ذلك فالخواص الأقنوميّة يتفرد بها كلّ أقنوم، بينما تشترك الأقانيم الثلاثة في الخواص الجوهرية. ومن ناحية أخرى فهناك أعمال تنسب لكل أقنوم دون أن يعني ذلك – عدم اتصال هذه الأفعال بالأقنوميّن الآخرين، فمثلًا **التجسد ينسب للابن، والاختيار ينسب للآب والتبرير والتقديس**

---

[80] *contre sabellius hom24,4 pg31.609.*
[81] *Book 2:10,11,p.55 , 20:,p.57 , 18:p.76,77 - Nicene &Post: Vol.IX- second Series*
[82] *John of Damascus, An Exposition of the Orthodox Faith: Book I, Ch.8, p.10 Nicene &Post: VoI. VII- second Series*

ينسبان للروح القدس، ولكن من ناحية أخرى، فإن كلّ فعل من هذه الأفعال، هو فعل القدرة الإلهيّة التي تخص الأقانيم الثلاثة معًا.

وأقنوم الابن لا يمثل جزءًا من الالوهية، بل هو ملء اللاهوت. وكذلك الأمر بالنسبة للروح القدس، فهو الله.

فالقصد النهائيّ من تخصيص هذا التمايز الأقنوميّ من جهة تخصيص الأعمال هو أن يُصبح التمايز الداخليّ للثالوث القدوس مرئيًّا.

الآب

إنّ لفظ ''آب''، لفظ يدل على علاقة وليس اسم علم، لذا نجد القديس غريغوريوس النيزنزيّ يكتب:

''**إن لفظ " الآب " ليس اسم جوهر ولا اسم فعل. إن قلنا أنه اسم جوهر جعلنا الابن من جوهر آخر**، وإن قلنا إنه اسم فعل اعترفنا اعترافًا واضحًا بأن الابن مخلوق لا مولود، إذ حيث يكون الفاعل يكون من وقع عليه الفعل. إن الآب ليس اسم جوهر ولا اسم فعل، إنه اسم علاقة، اسم يدل على ما هو الآب بالنظر إلى الابن أو ماهو الابن بالنظر إلى الآب''.[٨٣]

ويكمل:

''لم يكن للآب بدء في كينونته ولا بدء في أبوته، فمن كان لكينونته بدء، كان لأبوته بدء أيضًا. فالكينونة بالنسبة للآب لا تسبق الأبوة، والأبوة بالنسبة للآب لا تعقب الكينونة. فالأبوة والكينونة يرتبطان معًا بالنسبة للآب ولا يسبقهما أي بدء.

الأبوة في الآب تختلف عن الأبوة في البشر. الآب أب بالمعنى الحقيقيّ، بينما الأبوة في عالم البشر ليست أبوة في مدلولها الحقيقيّ. في عالم البشر يكون الأب أبًا وفي نفس الوقت ابنًا''.[٨٤]

---

[٨٣] خطاب ٢٩:١٦
[٨٤] خطاب ٢٩:٥

الابن

الولادة

يقول القديس غريغوريوس النيزنزي عن ميلاد الابن:

نحن نستغرب القول بإن الله يلد، **لأننا نضع في ذهننا الولادة كما نراها في عالمنا الجسداني،** وكأنك تقول إن الله لا يمكن أن يلد إلاّ بحسب صورة الولادة التي نراها في عالمنا الماديّ... بينما من كانت طبيعته غير طبيعتنا، كانت ولادته غير ولادتنا. (خطاب ٤:٢٩)

ميلاده لا زمنيّ

يكتب العلامة أوريجانوس:

"**ابن الله الوحيد هو حكمته القائمة جوهريًا..كيف يَظُنُ أحدٌ أن الله الآب يمكن أن يوجد في أي وقت دون ولادة الحكمة؟**..يليق بنا أن نؤمن أن الحكمة لا بداية لها..لقد دُعِي "الكلمة"، لأنه مُفَسِّر أسرار عقل الله..محظور علينا الظن الخاطئ بأن الآب قد وَلَدَ الابن الوحيد الجنس بذات الطريقة التي يلد بها إنسان إنسانًا... إنه ميلاد سرمدي لايتوقف، شعاع يتولد من نور. فإنه لم يصر الابن خارجًا عنه، بتبني الروح، إنما هو الابن بالطبيعة، لذا دُعِي "الابن الوحيد". [٨٥]

ويشرح ذلك أيضًا القديس ثيوغنسطس السكندريّ:

"إن جوهر الابن لا يصدر عن عدم، وإنما عن جوهر الآب، كالبهاء الصادر عن النور، والبخار الذي لا يتجانس مع الشمس ولا مع الماء ولا هو غريب عنهما؛ هكذا جوهر الابن ليس مطابقًا للآب ولا هو مُغَايِر له. وهو فيض(*aporroia*) من جوهر الآب، دون حدوث عملية تجزئة". [٨٦]

[٨٥] الكنيسة القبطية الأرثوذكسيّة والعقائد-الله-القمص تادرس يعقوب.

[٨٦] المرجع السابق.

ويقول كيرلس السكندريّ:

"إن خروج الكلام من الذهن وولادته منه تحدث بدون ألم وإن المولود لا ينفصل عنه، ومن ناحية أخرى فإن الكلام يظل في الذهن الذي ولده ويكون واحدًا معه..وهذا يُثبت حقيقةً أن الذهن يمتلك مع الأفكار شركة طبيعة واحدة ووجود واحد، بدون وسيط بينهما".[٨٧]

هل وَلَدَ الآب الابن بإرادته أم بغير إرادته؟

السؤال هُنا خاطيء لإنّ الابن مولود بالطبيعة وليس نتاج إرادة أو عدم إرادة، فطبيعة الله الآب مرتبطة ومُتحدة منذ الأزل بميلاد الابن، وهذا لا يتوقف على عمل الإرادة، كما يكتب القديس غريغوريوس النيزنزيّ:

"بالطبع إذا كانت الولادة بغير إرادة يكون الله مكرهًا عليها، ويكون التساؤل: من الذي أكرهه؟ وكيف يكون المكره إلهًا؟

إذا كانت الولادة بإرادة كان الابن ابن الإرادة، فكيف يكون ابن الآب بالطبيعة؟

التساؤل هنا يفرق بين المولود بالإرادة والمولود بالطبيعة. وبالطبع لو أن الابن ولد بالإرادة وليس بالطبيعة فيكون الابن مخلوقًا.

بلا شك أن الابن مولود بالطبيعة، ولكن هل من هو مولود بالطبيعة بالنسبة لله لا يكون بالإرادة.

هذه مغالطة من المعترض، فما يصدر لا يصدر عن الإرادة وحدها بل عن المريد. المراد ليس للإرادة بل للمريد. إن الله يلد الابن بالطبيعة ويريد هذه الولادة".[٨٨]

---

[٨٧] حوار حول الثالوث-الحوار الثاني.
[٨٨] خطاب ٢٩:٦.

الروح القدس

انبثاق الروح القدس

للأقنوم الثالث في الثالوث القدوس خاصية الانبثاق من الآب، وهي خاصية يصعب فهمها وإدراكها على نحو الصعوبة التي نواجهها في الحديث عن ميلاد الأقنوم الثاني.[٨٩] وبلاشك أن هذا الانبثاق أزلي غير منفصل، على نحو ميلاد الابن الأزلي غير المنفصل.[٩٠]

يجب أن نميز بين الانبثاق وبين الميلاد ويجب ألا نوحد بينهما وإلا صار الروح القدس في وضع الأخ.[٩١] ولو أن الروح القدس كان مولودًا من الآب فسوف يكون في الألوهية "ابنان أخان" الواحد منهما أكبر من الثاني. ولو أن الروح القدس كان ابنًا للابن، فعند ذلك سوف يكون الآب في موضع الجد، والروح القدس في موضع الحفيد وليس هذا هو الحقيقة.[٩٢]

ولقد ميَّز القديس **غريغوريوس** تمييزًا واضحًا بين ولادة الابن وانبثاق الروح القدس. وفي تعليمه لا يوجد خلط بين الصفات المميزة للأقانيم في الثالوث الأقدس.

وبعد أن تكلم عن الاسم الخاص بالجوهر الإلهيّ "أهية الذي أهية" وبعد ذكر الأسماء الأخرى للاهوت مثل "الكلّي القدرة"، "ملك المجد"، "ملك الدهور"، "ملك القوات"، قرّر أن:

"هذه هيَ الأسماء العامة للاهوت ولكن الاسم المناسب لغير المنبوع هو الآب وللمولود بلا بداية هو الابن وللمنبثق غير المولود الروح القدس".[٩٣]

من الواضح أن الروح القدس منبثق دون ولادة ولا علاقة له بالابن في انبثاقه من الآب.

---

[89] *M. Basil., hom. 24 Contra Sabel. 6, M. 31, 613.*
[90] *Theoph. John. 15, 26, M. 124, 205.*
[91] *M. Basil. hom. 24, Contra Sabel. 7, M. 31, 616.*
Greg. Naz. Log. 31, 8+39, 12, M. 36, 141+348.
[92] *Greg. Naz. Log. 31, 7, M. 36, 140.*
[93] *Phillip Schaff & Henry Wace, Nicene & Post Nicene Fathers, vol. VII, Second Series. Hendrickson Publishers June 1995, 4th theological Oration(2nd on the son), Article XIX, p. 316.*

ملحوظة: **إن الانبثاق شيء والإرسال شيء آخر؛** الانبثاق أزلي وأما الإرسال فزمني مثلما حل الروح القدس على التلاميذ يوم الخمسين. ومكتوب في سفر إشعياء النبي: **"منذ وجوده أنا هناك والآن السيد الرّبّ أرسلني وروحه"** (إش ٤٨: ١٦). لو كان الإرسال لأحد الأقانيم بواسطة الآب وأقنوم آخر دائمًا هو صورة من علاقة الأقنوم بالآب الذي هو الينبوع والأقنوم الآخرالذي شارك في الإرسال؛ فإن إرسال الابن سيكون بُناءً على هذا الافتراض الخاطئ، هو صورة من ولادته الأزلية، وبذلك يكون الابن مولودًا منذ الأزل من الآب والروح القدس لأنه قد أُرسِلَ من الآب والروح القدس، وهذا غير صحيح. ونلاحظ أن تعبير روحه في الآية السابقة (إش ٤٨: ١٦) جاء في صيغة الفاعل وليس المفعول به. بمعنى أن السيد المسيح قد أُرسِلَ من الآب ومن الروح القدس. فهل لهذا ينبغي أن يكون الابن مولودًا من الآب ومن الروح القدس قبل الدهور؟ أم أن الولادة الأزلية شيء والإرسال الزمني شيء آخر؟

الروح القدس روح البنوة

دائمًا ما يؤكّد الآباء في دفاعهم عن إلوهيّة الروح القدس أنّ الروح القدس إله لأنّه هو الذي يُعطينا التبني للآب والتألُّه، لذا نجد القديس أثناسيوس الرسوليّ يكتب:

"هو الروح الذي في الله، وليس نحن من أنفسنا. وكما نحن أبناء وآلهة بسبب الكلمة الذي فينا، هكذا في الابن وفي الآب سنكون، وسنُحسب في الابن وفي الآب لنصير واحدًا بسبب أن الذي فينا هو الروح، الذي هو في الكلمة الكائن في الآب".[٩٤]

"لإنّهم لا يستطيعون أن يصيروا أبناء بسبب كونهم بالطبيعة مخلوقات، ما لم ينالوا روح الابن الحقيقيّ الكائن بالطبيعة. لذلك ولكي يصير هذا فإن " الكلمة صار جسدًا "، لكي يجعل الإنسان قادرًا على تقبل الألوهية... نحن لسنا أبناء بالطبيعة، بل الابن الذي فينا، والله ليس

[٩٤] ضد الآريوسيين ٣:٢٥.

أبانا بالطبيعة، بل هو أب الكلمة الذي فينا، هذا الذي فيه وبسببه نصرخ يا أبا الآب. وبنفس الطريقة أيضًا بالنسبة للآب، فالذين يرى هو فيهم ابنه فهؤلاء يدعوهم أبناء".[95]

التجديف على الروح القدس

أورد القديسين مرقس ولوقا نصًا في غاية الأهمّيّة عن الروح القدس، وهو:

"وَلكِنْ مَنْ جَدَّفَ عَلَى الرُّوحِ الْقُدُسِ فَلَيْسَ لَهُ مَغْفِرَةٌ إلى الأَبَدِ، بَلْ هُوَ مُسْتَوْجِبٌ دَيْنُونَةً أَبَدِيَّةً" (مر٣: ٢٩؛ لو١٢: ١٠).

والسؤال الذي يفرض نفسه هُنا: لماذا أقنوم الروح القدس (فقط) هو الذي خصّه بأنّ التجديف ضده لا يُغفر؟! هل هو أهمّ من الأقنومين الآخرين؟

في كتابه ضد الآريوسيّين يشرح القديس أثناسيوس هذا النصّ في كتابه ضدّ الآريوسيّين، ويُمكن تلخيص ما قاله كما يلي:

١ ـ إن الموضوع لا يختص إطلاقًا بامتياز أقنوم عن آخر في الثالوث، فالتجديف على الروح القدس هو تجديف على الآب والابن أيضًا.

٢ ـ والتجديف لا يختص بالمعمودية ونوال الروح القدس فيها، لأنها تتم باسم الآب والابن والروح القدس إله واحد. فكل مَنْ يُخطئ ويجدِّف بعد المعمودية فهو يخطئ ويجدِّف على الله الثالوث الآب والابن والروح القدس. لذلك فالرب لم يكن يقصد بالتجديف الخطية بعد المعمودية.

٣ ـ إن الخطية بل كلّ الخطايا بعد المعمودية تُغفر جميعها بالتوبة، ولا توجد خطية قط يمكن أن يُقال إنه من المستحيل غفرانها.

٤ ـ المعمودية هيَ التي لا يمكن بل ويستحيل أيضًا أن تتكرّر، وهي التي تسمَّى بالتجديد أو الميلاد الثاني فهي معمودية واحدة.

---

[95] ضد الآريوسيين ٢:٥٩

٥ ـ كذلك هناك فرق بين الخطايا كتعدّي على الوصايا وبين التجديف على الله نفسه.

٦ ـ إنّ الالتباس الظاهر في فهم عب ٦:٤ـ٦ راجع إلى أن بولس الرسول يخاطب اليهود (العبرانيين) الذين اعتادوا أن يتخلَّصوا من خطاياهم بالتطهير بالماء كلّ يوم، وكلما أرادوا (حتى الزنا كان في عرفهم يمكن التخلُّص منه بالاستحمام بالماء)، فنبَّههم أن المعمودية في المسيحيّة ليست تطهيرًا بالماء، ولكنها موت عن الإنسان العتيق وخطاياه وولادة روحية من فوق بإنسان جديد، ولا تتم إلاَّ **مرَّة واحدة فقط بنعمة الروح القدس.**

٧ ـ العنصر الجوهري في عدم غفران خطية التجديف على الروح القدس هو المتعلِّق بالذين **ينسبون أعمال اللاهوت التي كان يعملها المسيح إلى أنها أعمال الشيطان.**

٨ ـ وعلى نفس المستوى، **فالذين يعتبرون المسيح أنه مجرَّد إنسان** كان يعمل المعجزات بقوة الشيطان فهذا هو التجديف على روح الله أي الروح القدس، **لأن المسيح كان يعمل كلّ الأعمال بروح الله.**

٩ ـ وهنا يقرّر أثناسيوس أنه **لا فرق بين التجديف على الروح القدس والتجديف الموجَّه ضد لاهوت المسيح.**

وحدانيّة الثالوث القدوس

ليس الله واحدًا، لكنه وحيد أي متفرّد، فجوهر الله غير موجود غير مرة واحدة، ومن طبيعة الله بالأساس تنتج الوحدة.

نقدر نتعرّف وندرك وحدانيّة الثالوث القدوس من خلال الآتي:

١- ليس الله واحد ولا ثلاثة.
٢- الثالوث غير قابل للتقسيم.
٣- وحدة الجوهر.
٤- وحدة الأصل في الآب.
٥- وحدة العمل.
٦- نعمة واحدة من الآب في الابن بالروح القدس.
٧- وحدانية الثالوث في أسرار الكنيسة.
٨- الاحتواء المتبادل.

١- ليس الله واحد ولا ثلاثة

إذا قلنا إن الله **ثلاثة أقانيم** وإذا قلنا إنه **واحد في الجوهر** فهذا ليس معناه بالمرة، أنه هو ثلاثة أو أنه واحد. فهو ليس **ثلاثة بمعنى العدّد**. العدّد لا علاقة له بالله. الإنسان بطبيعته يعد المحسوسات، أما الله فلا يُعد لأن من عده فقد حده... الله لا يُحد وعلى ذلك فواحد ليس أقل من ثلاثة. فإذا كان ثلاثة عدّدا فواحد عدّدا أيضًا. فالله ليس واحدًا إلّا إن كنا نقصد بهذا أنه ليس أثنين. نعم، إن الله واحد: فهكذا تكلم عن نفسه:

"الرب إلهنا رّبّ واحد" (تث٦:٤). "أنا الرّبّ وليس آخر" (إش٤٥:٥، ٢١، ١٤، ١٨) وأيضًا انظر (إش٤٤:٨)، و(إش٤٦:٩) **"أنا الله وليس آخر. الإله وليس مثلي"**. هكذا تكلم الله عن نفسه بمعنى لا استطيع أن أعرفه بعقلي. **ولكن هكذا كشفه هو عن نفسه**. ويمكننا بالاتصال الروحيّ، وبالصلاة، وبخبرة القديسين، واختبار الجماعة. بهذه معًا يمكن أن نتذوق كيف أن الله ثلاثة وكيف هو واحد. ولكن خلاصة هذه النقطة أن معرفة الثالوث ليست عملية أحصائية.

فلا يمكن أن نعرف الله بالطرق الحسابية، لأننا نحن البشر لا نستوعب الله بل هو الذي يستوعبنا. ولذلك فلا مبرّر للتساءل البشريّ كيف أن الثلاثة واحد والواحد ثلاثة، فلا يمكننا ان نفهم هذا بعقلنا. وبل لا يمكننا أن نفهم كيف أن الله واحد.

٢- الثالوث غير قابل للتقسيم لانه غير مكون من أجزاء

الثالوث القدوس كيان واحد، غير قابل للقسمة بمعنى أنّه لا يُمكن أن يفترق ويتشرذم، أو يصير أجزاء، لإنّ الله غير مكوّن من أجزاء، فكل أقنوم هو كلّ ما هو الله منذ الأزل، فالأقنوم هو كلّ الله وليس جزءًا من الله أو بعض من الله، لإنّ الأقانيم الثلاثة فوق الزمان والمكان، فوق الحدود، لا توجد ولا يُمكن أن توجد بينهم مسافة في الزمان أو في المكان.

"لأن الثالوث لا يختلط به أي شيء غريب، وهو غير قابل للتقسيم وهو متماثل مع ذاته. هذه الحقائق كافية للمؤمنين"[٩٦].

"حيث إن الآب ينبوع، والابن يسمى نهرًا، **لذلك نقول إننا نشرب الروح** لأنه مكتوب " *جميعنا سقينا روحًا واحدًا*" (١كو١٢: ١٣)"[٩٧].

"ولكن **حينما نشرب الروح، فإننا نشرب المسيح**. " لأنهم كانوا يشربون من صخرة روحية تابعتهم، والصخرة كانت المسيح" (١كو١٠: ٤)".

٣- وحدة الجوهر

ولقد اتفق الآباء على أن الآب والابن والروح القدس إله واحد.. **جوهر واحد** ***Essence or One Substance*** **متطابق** ***Identical***، **ومتساو** ***Equal***، **بغير انقسام** ***Indivisible***، وليسوا ثلاثة آلهة. وقاوموا أي بدع قامت ضد هذا الإيمان.

إنَّ الوحدانية في الثالوث القدوس لا تلغي تمايز أقانيمه بل يجتمع الثالوث دون فقدان للوحدانية **لأن الثلاثة أقانيم غير منفصلين، ولم يوجد أحدهم قبل الآخريْن.** إنهم كالنار التي لها لهيب ونور وحرارة في ذات الوقت. هكذا نفهم أن الوحدانية غير متجزئة إلى ثالوث، بالعكس يجتمع الثالوث دون فقدان للوحدانية.[٩٨]

يقول يوحنا الدمشقي:

"نعرف ونعترف أن الله لا بداية له ولا نهاية؛ أزلي وأبدي، غير مخلوق، غير متغير، غير متبدل، بسيط، غير مركب. **وأن الله واحد، بمعنى جوهر واحد؛ وأنه معروف وكائن في ثلاثة أقانيم، في**

---

[٩٦] الروح القدس للقديس أثناسيوس الرسولي: ترجمة د. موريس تاوضروس ود. نصحى عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسى للدراسات الآبائية، ٢٠٠٥، رسالة١ فصل ١٧ ص٥٨-٥٩.

[٩٧] المرجع السابق رسالة ١: ١٩.

[98] *On the Opinion of Dionysius 17.*

الآب والابن والروح القدس؛ وأن الآب والابن والروح القدس واحد من جميع الأوجه فيما عدا من حيث كون الواحد غير مولود، والآخر مولود، والثالث منبثق".[٩٩]

ويقول **القديس أثناسيوس** عن الثالوث في الواحد:

"حينما ندعو الله آب، فنحن نعني في ذات الوقت وجود الابن. وهكذا أيضًا من يؤمن بالابن يؤمن أيضًا بالآب لأن اللاهوت واحد، وكذلك الكرامة واحدة، والعبادة التي تُقَدَّم للآب في الابن ومن خلاله واحدة أيضًا. ومن يعبد هكذا يعبد الإله الواحد؛ فهناك إله واحد ولا إله غيره.. إن الله واحد وحيد وأوّل لكن هذا لا يعني إنكار الابن..حاشا! لأنه في ذاك الواحد والأول والوحيد، لأنه من ذاك الواحد والوحيد والأول، الكلمة الوحيد، والحكمة والضياء".[١٠٠]

٤- وحدة الأصل في الآب

هذه النقطة محوريّة للغاية لفهم وحدانيّة الثالوث القدوس بين الشرق والغرب، ففي الغرب نجد أنّ رباط الوحدة في الثالوث هو الروح القدس، الذي من الآب والابن ينبثق، هذا التصوُّر نجده عند المطوَّبين أغسطينوس وهيلاري أسقف بواتيه.[١٠١] وللأسف نجد لمحاته الأولى عند القديس أبيفانيوس أسقف سلاميس،[١٠٢] الذي لا يُعدُّ لاهوتيًّا شرقيًّا بقدر ما هو جامع لتعاليم عصره.

هذا الاختلاف راجع بالأساس لأنّ الغربيّين يُحدّدون العلائق كمكونة للأشخاص، بينما في الشرق فإنّ الشخص يسبق العلاقة، والوجود أو الكينونة هيَ التي توجد الشركة.

---

[99] *John of Damascus: An Exact Exposition of the Orthodox Faith, Book I, Ch.2 p.1 –VoI.9 Nicene and post Nicene Fathers*

[100] *Athanasius Discourse III Against the Arrians, ch.23:6 p.397 - Nicene &Post: VoIV second Series*

[١٠١] الثالوث لأغسطينوس ٦: ٧؛ ١٥: ٢٧؛ الثالوث لهيلاري ٢: ٦.

[102] *Anc 4:7; Haer 62: 4; 74: 11.*

القديس أوريجانوس:

"الآب يلد الابن غير المخلوق ويأتي بالروح القدس. ليس كما لو كان الابن لم يكن له وجود سابق (ثم وَلَدَه الآب)، **لكن لأن الآب هو الأصل والمصدر للابن وللروح القدس".**[١٠٣]

لقد اتخذ الآباء في شرح علاقة الابن والروح القدس بالآب اصطلاح إنجيلي ومتكرّر في أسفار العهد الجديد وهو "من الله؛ أي أنهما "من الآب" وذلك من أجل الحفاظ على وحدة الأصل أو السلطان أو الملوكية في الثالوث. ومن ذلك **تكوَّنت عقيدة *Monarchia* عند الآباء لحراسة** مفهوم "وحدانية الله" **ضد أي انحراف في مفهوم الثالوث ناحية الوثنية وتعدّد الأصول في الفلسفة، أي أن الآب نفسه هو علة وسبب وجود أقنوميّ الابن والروح القدس.**

ولقد أكد **القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيّات** مرارًا كثيرة على أحادية الأصل الأبويّ كالأصل الوحيد للثالوث الأقدس *patriki-archy* الآب هو الوحيد غير المنبوع (*unoriginated*):

"لماذا إذن ليسا (الابن والروح القدس) بالمثل غير منبوعيْن ماداما أيضًا أزليين؟ لأنهما منه (من الآب) وإن كانا ليسا لاحقيْن له. لأن غير المنبوع أزليّ ولكن الأزليّ ليس بالضرورة غير منبوع مادمنا نشير إلى الآب كأصل لهما. لذلك فبالنسبة للسبب هما ليسا غير منبوعيْن. ولكن من البَيِّن أن السبب ليس بالضرورة سابق لنتيجته كالشمس مثلًا ليست سابقة لنورها".[١٠٤]

وقد علَّم **القديس إغريغوريوس**[١٠٥] أيضًا بوضوح أن:

"الآب هو الوالد والباثق".

وعلَّم أيضًا في حديثه عن الله المثلث كسيد واحد لخليقته قائلًا:[١٠٦]

"إن أحادية الأصل هيَ ما نحفظه بتكريم. إنها مع ذلك أحادية الأصل (من جهة الثالوث بالنسبة للخليقة) غير المقصورة على أقنوم واحد بعينه. بل إنها ناشئة من تساوي الطبائع

---

[103] ANF, Vol. IV, p. 270.
[104] Phillip Schaff & Henry Wace, Nicene & Post Nicene Fathers, Vol. VII, Second Series. Hendrickson Publishers. June 1995, 3rd theological Oration(on the son), Article III, p. 302.
[105] Ibid, 3rd theological Oration(on the son), Article II, p.301.
[106] Ibid.

ووحدة الفكر وتطابق المشيئة والتئام المكونات نحو الوحدة –وهي ما تعجز الطبائع المخلوقة أن تصله. حتّى أنه رغم التعدّدية فليس هناك أبدًا انقسام في الجوهر".

وعلى هذا النحو نقرأ قانون الإيمان "نؤمن بإله واحد الله الآب"؛ ففي عبارة "نؤمن بإله واحد الله الآب، الوحدانية هنا هيَ وحدانية الآب بصفته هو مصدر اللاهوت والألوهية. **والقديس غريغوريوس النزينزي** في عظته عن القديس أثناسيوس يقول:

"إن الثالوث هو ثالوث حقيقيّ وليس عدّدا لأشياء غير متماثلة، وإنما هو ربط بين متساويين. فكل من الأقانيم ، هو الله بالمعنى الكامل.. **الابن والروح القدس يستمدان كينونتهما من الآب، ولكن بمعنى أنهما متساويان معه في الجوهر، ولا يختلف أي منهما عنه في خاصية من خواص الجوهر**. أما نقاط التمايز فتكمن في الصفات الشخصية: الآب غير مولود ومصدر الألوهية؛ والابن يستمد كينونته أزليًّا من الآب، وهو ذاته مصدر كلّ الأشياء المخلوقة، والروح القدس منبثق أزليًا من الله، ومرسل إلى العالم".[١٠٧]

ويُعَلِّم **القديس أثناسيوس**[١٠٨] أن الآب هو الأصل الوحيد في الثالوث قائلًا:

"الآب والابن هما اثنان، ولكن ألوهيتهما واحدة وغير منقسمة وغير منفصلة وهكذا يكون هناك بدء واحد للاهوت وليس بدءين، من ثمّ فإن هناك أصلًا واحدًا.} كما قال أيضًا[١٠٩] {هناك آبًا واحدًا وليس اثنين، والابن هو من هذا الواحد (الآب). وبما أنه ليس هناك أبوان، بل أب واحد، فليس هناك بدءان بل بدء واحد".

كما أكّد أننا لا نعرف سوى بداية واحدة قائلًا:[١١٠]

"نحن لا نُقدِّم ثلاث بدايات أو ثلاثة آباء كما يفعل أتباع ماركيون وماني حيث أننا لن نعرض صورة ثلاث شموس بل شمس واحدة وشعاع واحد. **وهناك نور واحد من الشمس في**

---

[107] *Gregory of Nazianzen, on Athanasius: 21: 10, p.280, 281 – Nicene & Post Nicene Fathers: Vol. VII-second Series.*
[108] *Athanas., Contra Arian, IV, 1.*
[109] *Ibid 3.*
[110] *Ibid, III, 15.*

الشعاع، وهكذا فنحن لا نعرف سوى بداية واحدة ونعترف أن الكلمة خالق الكلّ ليس له مصدر آخر للاهوته سوى لاهوت الإله الوحيد، لأنه مولود منه".

وفي القداس القبطيّ نقول "ثالوث الآب" المساوي؛ أي أن الثالوث القدوس هو ثالوث الآب: أي الآب وكلمته وروحه فيُنظَر للآب باعتباره المصدر في الثالوث.

والـ *Monarchia* أي وحدة الأصل **تجعلنا نُدرِك المعنى الصحيح لوحدانية الله**؛ الله واحد وذلك **لأن فيه "علة" أو "سبب" واحد وهذا ليس هو الجوهر فالجوهر فكرة غامضة وإنما وحدانية الله هيَ أقنوم الآب وشخصه.**

فالله واحد لأن الآب الواحد العلة أو السبب في ولادة الابن وانبثاق الروح القدس وحسب لاهوت الثالوث عند الآباء، الآب هو مبدأ وعلة وسبب وأصل كيان الابن والروح. وبالتالي إذا قلنا أن الله كائن، فهذه الكينونة لا تعني الوجود غير المتأقنم أي الوجود الخاضع لضرورة بل الوجود الحر لأنه وجود شخص.

إذًا الله كائن لأنّه ثالوث وكيان الله هو أشخاص أو أقانيم الثالوث. **هنا وصل الوعي الإنساني إلى قمة تطوره لأنه أدرك أن وجود الله هو وجود متأقنم وليس وجودًا عاريًا مثل وجود الكائنات الأخرى التي لا شخصية لها.**

فلا وجود لجوهر أو طبيعة بلا وجود شخص أو أقنوم أو كيان مميز. وكذلك لا يوجد الشخص أو الأقنوم بلا جوهر أو طبيعة ولكن ما يجعل أي كائن كائن فعلًا ليس الطبيعة وإنما الشخص. فالوجود لا يُفهَم كوجود ولا يقتفي أثره في الوجود وإنما الوجود عائد إلى الشخص وليس الشخص إلى الوجود.

٥- وحدة العمل

إن الأقانيم الثلاثة التي للثالوث القدوس لها إرادة واحدة من حيث النوع، وثلاث إرادات من حيث العدّد؛ بمعنى أن كلّ أقنوم له إرادة ويحب الأقنوميّن الآخريْن لأن نوع الإرادة واحد، ويجمعهم جوهر واحد وطبيعة إلهيّة واحدة، فما يقرّره الآب، يقرّره الابن، ويقرّره الروح القدس بالطبيعة.

ويتحدث **القديس إيرينيؤس** عن الابن والروح القدس كيَدَيّ الله الآب، وهذه الصورة المفضلة لدى القديس مستوحاه من قول المرتل في المزمور "يَدَاكَ صَنَعَتَانِي وَأَنْشَأَتَانِي. فَهِّمْنِي فَأَتَعَلَّمَ وَصَايَاكَ." (مز ١١٩: ٧٣).[١١١]

"لقد خلق الله الإنسان على صورته بواسطة يديه: الابن والروح القدس قائلًا لهما " نَعْمَلُ الإنسان عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا " (تك١: ٢٦)".[١١٢]

"هناك تقديس واحد يصير من الآب بالابن في الروح القدس".[١١٣]

"كما أن الابن الكلمة الحي واحد، هكذا فإن القوة الحية والهبة التي بها يقدّس وينير، ينبغي أن تكون واحدة كاملة تامة، وهي نفسها التي قيل أنها منبثقة من الآب لأنها تشرق بواسطة الكلمة المعترف بأنه من الآب. وهي المرسلة والمعطاة منه".[١١٤]

"عمل الثالوث واحد، وما يُوهب فهو يُوهب في الثالوث لأن الكلّ هو من الله الواحد.

لا يوجد شيء لم يُخلق ولم يُصنع بالابن في الروح القدس.

التبرير هو "باسم ربنا يسوع المسيح وروح إلهنا" (١كو٦: ١١) لأن الروح غير مفترق عن الكلمة.

عندما يقول "سنأتي أنا والآب" (يو١٤: ٢٣)، فإن الروح يحل معهما، ليس بكيفية مختلفة عن الابن الساكن فينا".[١١٥]

[111] *The mystery of the Trinity Trinitarian Experience and vision in the biblical and Patristic Tradition, by Boris Bobrinskoy. Translated by Anthony Gythiel, ST Vladimir's Seminary Press Crestwood, NY10707 1999. P 207.*

[112] *Adv. Haereses, IV, praefatio 4, PG 7: 975.*

[١١٣] الرسالة الأولى إلى سرابيون ١: ٢٠

[١١٤] الرسالة الأولى إلى سرابيون ٢٠

[١١٥] إلى سرابيون ١: ٣١

تكلم **القديس أمبروسيوس**[116] عن وحدة الجوهر ووحدة العمل الذي للثالوث القدوس قائلًا:

"قال الرسول أن "ملء اللاهوت حل جسديًا في المسيح" (كو٢: ٩). وهذا الملء هو ذاته الذي في الآب والذي في الروح القدس. وكما أن هناك وحدة في جوهر اللاهوت، كذلك فهناك أيضًا وحده في العمل.

ولدليل على صحة ما نقوله هو ما وُرد في تسبحه موسى، لأنه عندما قاد شعب اليهود في البحر اعترف موسى بالعمل الواحد الذي عمله الآب والابن والروح القدس في قوله "يمينك يا رّبّ معتزة بالقدرة يمينك يا رّبّ تُحطِّم العدو" (خر١٥: ٦) وهنا اعترف بالآب والابن لأن الابن هو يد الآب اليمنى وبعد ذلك اعترف بالروح القدس عندما أضاف وقال"أرسلت روحك فغطاهم البحر" (خر١٥: ١٠) وبهذا الاعتراف أعلن موسى وحدة جوهر اللاهوت وليس عدم المساواة في الثالوث.

وهكذا نرى كيف عمل الروح القدس عملًا واحدًا مع الآب والابن عندما جمَّد المياه في البحر الأحمر فصارت المياه مثل السور وعَبَرَ الشعب ثمّ حرَّك الروح القدس الماء فغرق المصريون. ومن ترتيب الأحداث نفهم أيضًا أن عمود السحاب الذي تقدَّم الشعب بالنهار وعمود النار بالليل إنما كان نعمة الروح القدس الذي خلَّص وفدى الشعب.} كما يقول أيضًا: {كيف يمكن أن نعبد الآب في المسيح؟ أليس لأن الآب في المسيح، ويتكلم في المسيح ويبقى في المسيح؟ وحقًا الآب ليس في المسيح كجسد في جسد لأن اللاهوت ليس له جسم ولا كواحد يذوب في آخر وإنما كإله حق في إله حق ونور في نور، وآب أزلي في ابن أزلي. فالكلام هنا ليس عن علاقة جسدية وإنما عن وحدة الجوهر ووحده القوة. وهكذا بسبب وحدة قوة الآب والابن نعبد الآب في ابنه يسوع المسيح. وهكذا بسبب <u>وحدة نفس القوة</u> نعبد الروح القدس عندما نعبد الله الآب بالروح القدس".[117]

---

[116] *On the Holy Spirit, Book III, chap. IV, 19-21.*
[117] *Ibid, Book III, chap. VI, 82.*

وفي تعليم **القديس غريغوريوس النزيانزي**[118] عن العطايا الإلهيّة هيَ من **الآب من خلال الابن في الروح القدس** قال في عظته عن عطايا الله بالروح القدس:

''أنه هو العطية، الموهبة، الإلهام، الوعد، الوسيط لنا، وبدون أن يدخل في مزيد من التفاصيل والتعبيرات الأخرى من هذا النوع تنسب إلى السبب الأوّل حتّى يُرى من أي وأن الناس بطريقة وثنية يعترفون بثلاثة عناصر. لأنه بالمثل غير تقى أن يخلط الأقانيم مع أتباع سابيليوس أو يقسم الطبائع مع الأريوسيين''.

التعبير''السبب الأول'' الذي ذكره القديس إغريغوريوس في هذه القطعة يشير إلى أن عطايا الله تنبع من الآب وتُعطَى بالابن في الروح. وفي عظته اللاهوتية عن الابن تكلم القديس إغريغوريوس عن القوة المزدوجة للنفخة في الابن. وهو يقصد بالقوة المزدوجة للنفخ أن العطايا الآتية إلينا من الآب وتعطى لنا بالروح من خلال الابن.

يشير **المطوّب أغسطينوس** إلى المساواة في الجوهر على الرغم من التمايز في العمل فيقول:

''يقول الرسول: ''لنا إله واحد الآب الذي منه جميع الأشياء ونحن له. ورب واحد يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن به'' (١كو٨: ٦)؛ ''لأن منه وبه وله كلّ الأشياء. له المجد إلى الأبد. آمين'' (رو١١: ٣٦)...وفي إنجيل يوحنا ''كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان'' (يو١: ٣) فإذا كانت بعض الأشياء قد عملها الآب، والبعض عمله الابن، فإذًا لم يعمل الآب كلّ الأشياء، ولا الابن كلّ الأشياء. ولكن إذا كانت كلّ الأشياء قد عملها الآب، وكلّ الأشياء قد عملها الابن، إذن ذات الأشياء قد عملها الآب والابن. وهكذا فإن الابن مساو للآب، وعمل الآب والابن غير منقسم، وبالتالي فإنه هو نفسه غير مخلوق، وإنما هو والآب عملًا كلّ شيء كان''.[119]

[118] *Phillip Schaff & Henry Wace, Nicene & Post Nicene Fathers, vol. VII, Second Series. Hendrickson Publishers June 1995, 5th theological Oration(on the Holy Spirit),Article XXX, p. 328.*

[119] *Augustine: the Trinity, Book I, Ch.6:12, p.22 VoI. III –First Series*

٦- نعمة واحدة تُعطَى في الثالوث من الآب بالابن في الروحِ القدس

يقول القديس بولس الرسول **"نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح مع جميعكم" (٢كو ١٣:١٤)**، هذه النعمة والهبة تُعطَى في الثالوث من الآب بالابن في الروح القدس وكما أن النعمة المعطاه هيَ من الآب بالابن هكذا فإنه لا يكون لنا شركة في العطية إلا في الروح القدس، لأننا حينما نشترك فيه تكون لنا محبّة الآب ونعمة وشركة الروح نفسه. ولقد علَّم أيضًا أن النعمة المعطاة في الثالوث هيَ واحدة قائلًا: **"رب واحد إيمان واحد معمودية واحدة" (أف ٤: ٥)** لأنه كما أن هناك معمودية واحدة فهناك أيضًا إيمان واحد لأن من يؤمن بالآب فإنه في الآب يعرف الابن ولا يعرف إلا في الابن ولذلك فهو يؤمن بالابن وكذلك بالروح القدس، لأن إلوهة الثالوث واحدة إذ هو يعرف من واحد هو الآب **وكما أن المسيح هو قوة الله وحكمة الله (١كو١: ٢٤) لذلك عن الروح القدس أنه روح الحكمة وروح القوة (إش ١١: ٢) وحينما نشترك في الروح يكون الابن لنا وحينما يكون الابن لنا يكون الروح لنا صارخًا في قلوبنا يا أبا الآب كما قال في (غلا ٤: ٦).**

ويُعلّق **القديس يوحنا ذهبي الفم**[120]:

"**إن كل ما يخص الثالوث غير منقسم. حيث توجد شركة الروح فهي شركة الابن أيضًا، وحيث توجد نعمة الابن توجد نعمة الآب والروح.** أقول هذه الأمور دون أن يوجد خلط في التمييز بين الأقانيم بل نتعرف على كلّ أقنوم على حدى، وعلى الوحدة المشتركة في جوهرهم".

لقد تكلم القديس بولس الرسول عن المواهب الروحية في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس:

"فَأَنْوَاعُ مَوَاهِبَ مَوْجُودَةٌ وَلَكِنَّ الرُّوحَ وَاحِدٌ. وَأَنْوَاعُ خِدَمٍ مَوْجُودَةٌ وَلَكِنَّ الرَّبّ وَاحِدٌ. وَأَنْوَاعُ أَعْمَالٍ مَوْجُودَةٌ وَلَكِنَّ اللهَ وَاحِدٌ الَّذِي يَعْمَلُ الكلّ فِي الْكُلِّ."(١كو ١٢: ٤-٦).

إن وحدة القوة تستلزم وحدة الجوهر، لذلك فلو أن هناك انقسامًا في الجوهر فهذا يستلزم تعدّد القدرات. ولهذا يجد القديس أثناسيوس في هذه الحقيقة **تعليلًا لتعليمه اللاهوتي عن النعمة الإلهيّة الواحدة للثالوث الواحد، والتي تمدنا بقداسة واحدة.**

---

[120] *In 2 Cor. Hom 30:3.*

ويتضح مما سبق أن فعل الثالوث هو واحد. فالرسول لا يعني أن ما يُعطَى من كلّ واحد متنوعًا ومجزئًا، ولكن ما يُعطَى إنما يُعطَى في الثالوث، والكل من إله واحد.

٧- وحدانيّة الثالوث في أسرار الكنيسة

كانت المعمودية قديمًا تتم بطريقتين، إما باسم المسيح أو باسم الثالوث القدوس، وكانت كلتا المعموديتين معتبرة صحيحة، **لإن استعداء اسم أحد الأقانيم هو استدعاء لكل الله وليس جزءًا منه.**

"الإيمان الرسوليّ ليس كذلك (أي ليس كما يدّعي محاربو الروح القدس). لإنّ الثالوث القدوس المبارك لا يفترق، وهو واحد في ذاته، **وحيثما ذُكر الآب فإن كلمته يكون حاضرًا والروح الذي في الابن. وإذا دُعى الابن فيكون الآب في الابن والروح ليس خارج الكلمة** لأن واحدة هيَ النعمة التي من الآب بالابن في الروح القدس".[١٢١]

يقول **القديس أمبروسيوس**[١٢٢]

"البرهان الذي يقوم عليه تعليمنا هو أن من يذكر اسم واحد من الأقانيم فقد ذُكِرَ الثالوث. فإذا ذَكرت اسم المسيح فأنت ضمنًا تشير إلى الله الآب الذي مسح الابن والابن الذي مُسح والروح القدس الذي به تمت المسحة. وهذا ما هو مكتوب " يَسُوعُ الَّذِي مِنَ النَّاصِرَةِ كَيْفَ مَسَحَهُ اللهُ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَالْقُوَّةِ " (أع١٠:٣٨). فإذا دعوت باسم الآب فأنت تذكر الابن ضمنًا وتذكر روح فمه (الروح القدس)، وهذا يتم إذا كان قلبك يعني ذلك. وإذا تكلمت عن الروح فأنت تذكر الله الآب الذي منه ينبثق الروح وتذكر أيضًا الابن لأنه روح الابن".

ويقول القديس باسيليوس الكبير[١٢٣]

"نحن نقول "باسم الآب والابن والروح القدس"(مت٢٨:١٩). هذا يعني التساوي حسبما نفهم من الكلمات التي تُسَلَّم في المعمودية. لأن علاقة الروح بالابن هيَ نفسها علاقة الابن

---

[١٢١] سرابيون ١:١٤

[122] *On the Spirit, Book I, chap. III, 44.*

[123] *On the Spirit, chap. XVII,43.*

بالآب. وإذا حسبنا الروح مع الآب، والابن مع الآب نجد أنه واضح جدًّا أن الروح يُحسَب مع الآب. **وهذا يعني بدوره التساوي في كلّ شيء. وطالما أن أسماء الأقانيم هيَ في الله الواحد، فكيف يمكن أن نحسب واحدًا مع آخر ونرفض حساب الثالث معهما**".

٨- الاحتواء المتبادل *περιχωρησις*

أول ظهور لمُصطلح البريخورسيس كان عند غريغوريوس النيزنزي،[124] واستخدمه بالأساس للدلالة على العلاقة بين الطبيعتين في المسيح. أمّا استخدام المصطلح على الأقانيم الإلهيّة فقد ظهر لأوّل مرة عند المطوّب يوحنا الدمشقيّ.[125]

لكلمة اليونانية تنقسم إلى قسمين، **الأول**: *περι* (*pre*) والتي تعني "حول"، و*χώρην* (*chorein*) والتي تحمل معاني متتعدة "يعطي مساحة لـ"، "يتجه نحو"، "يحتوي"، "حركة دائرية" (وهو استخدام الفيلسوف اليوناني أنتاجوراس).[126]

الكلمة *περιχώρησις* في مضمونها **تعني** "يتبادل مع الاخر"، "يتأرجح مع"، "يحتوي الآخر"، "يطوف حول"، "يتحرك دائريًا حول" .... إلخ[127]

يقول **القديس أثناسيوس**:

"كيف يمكن للواحد أن يكون مُحتويًا في الآخر، والآخر فيه؟.."**أنا والآب واحد**" (يو ١٠: ٣٨، ٣٠). ويضيف: لكي تعرفوا "**إني أنا في الآب والآب فيّ**" (يو١٤: ١٠). علاوة على هذا يقول: "**من رآني فقد رأى الآب**" (يو١٤: ٩). المعنى واحد في هذه العبارة الثلاث. لأن من يعرف أن الآب والابن هما واحد أيضًا أن الابن في الآب والآب في الابن، لأن لاهوت الابن هو ذات لاهوت الآب في الابن... ملء لاهوت الآب حالّ في كيان الابن،والابن هو الله الكامل. لاهوت الابن ونمطه ما هو إلا لاهوت الآبن ونمطه. هذا ما قاله:"أنا في الآب".

---

[124] *Epistulae 101, 6.*
[125] *Orthodoxa 8, III, 5.*
[126] *Richard Livingstone, The Legacy of Greece (Oxford at the Clarendon Press, 1921), 71.*
[127] *Leonard Prestige, ".ΠΕΡΙΧΩΡΕΩ AND ΠΕΡΙΧΩΡΗΣΙΣ IN THE FATHERS," The Journal of Theological Studies 29, no. 115 (1928): 242.*

وهكذا "**الله كان يقول في المسيح مصالحًا العالم لنفسه**" (٢كو ٥:١٩). لأن خاصية جوهر الآب هيَ للابن الذي فيه تصالحت الخليقة مع الله".

إن وحدة الثالوث القدوس فريدة، ليست كإمتزاج المواد والسوائل، ولا كوحدة نفس الإنسان بجسده، ولا كإتحاد لاهوت المسيح بناسوته، لأن الأقانيم الثلاثة جوهرًا إلهيّا واحدًا واضحًا. كلّ أقنوم يملأ الأقنوميّن الآخرين وهو محتوى فيهما لكنه متمايز عنهما.

الوجود المتبادل في أقانيم اثالوث مع بقائهم في غير انفصال، أي في وحدة ذاتية كاملة، يعبِّر عنها اللاهوت باصطلاح "الاحتواء"، ويقابلها في الإنجليزية *Coinherence*، أمَّا المقابل اللاتيني للكلمة فهو يزيد المعنى وضوحًا *circuminsesso*، **وتفيد أن الأقانيم تحتوي أو "ترتاح" في بعضها البعض، وهنا كلمة "الارتياح" تفيد أن وجود الأقانيم في بعضها ليس كمجرد تواجد بل هو "إرتياح" أي انسجام مطلق**، وهذا الانسجام المطلق هو التساوي المطلق، ومن هنا تبرز معنى "الوحدة" ومعنى عدم الانقسام أو الانفصال في الأقانيم بالرغم من تمايز كلّ منها في عمله. وقد استخدَم هذا الاصطلاح **ديونيسيوس بابا روما**:

"لإنه يتحتم أن يكون "الكلمة" الإلهيّ متحدًا مع إله الكون كما يتحتم أن يرتاح الروح القدس ويسكن في الله".[١٢٨]

وهكذا نرى أن الآباء منذ البدء كانوا مهتمين جدًّا بالتأكيد على هذا الاصطلاح أو على ما يفيد معناه لإثبات الوحدانية في الثالوث بحسب ما جاء في الكتاب المُقدّس؛ بل وحرصوا جدًّا أن تكون الخاتمة التي يختمون بها عظاتهم وتآليفهم، أي الذُكصا، تحتوي على هذا المعنى: أي التمايز الأقنوميّ في وحدة الإله الواحد.

يكتب القديس أثناسيوس:

"لأنه حيثما ذُكر الابن ذُكر ضمنًا كلمته والروح القدس الذي هو في الابن، وإذا ذُكر الابن فإن الآب في الابن والروح القدس ليس خارج الكلمة، لأن من الآب نعمة واحدة تتم بالابن

---

[128] *Dionysius of Rome, De Decretis, ch. 26; Beth. Bak., op. cit., p. 226.*

في الروح القدس. وهناك طبيعة إلهيّة واحدة وإله واحد "**على الكلّ وبالكل وفي الكل**" (أف ٤: ٦)".[١٢٩]

"وإن كانت توجد في الثالوث القدوس المساواة وهذا الاتحاد، فمن الذي يستطيع أن يفصل الابن عن الآب أويفصل الروح القدس عن الابن أو عن الآب نفسه؟""[١٣٠]

اشتراك الألقاب بين الأقانيم الثلاثة

الثالوث القدوس	**الآب**	**الابن**	**الروح القدس**
خواص أقنومية / **خواص جوهرية**	والد وباثق الأبوة	مولود البنوة	منبثق الإنبثاق
حق	**الحقاني** ينبوع الحق	**الحق** (يو٨: ٣٢، يو١٤: ٦، رؤ٣: ٧)	**روح الحق** (يو١٤،١: ١٧ يو٤: ٦، يو١٥: ٢٦، يو١٦: ١٣)
عقل	**العاقل** ينبوع العقل	**العقل** المولود=الكلمة (يو١: ١)=اللوغوس =العقل المنطوق به	**روح العقل** انظر: روح الفهم (إش ١١: ٢)
حكمة	**الحكيم** (رو١٦: ٢٧، يه٢٥)	**الحكمة** (أم٣: ١٩، أم٨: ١٢، ١كو١: ٢٤، كو٢: ٣،	**روح الحكمة** (حك١: ٦، إش١١: ٢، أف١: ١٨)

[129] *Athanas, To Serap., I:14.*
[130] *Ibid. I:20.*

		رؤ٥:١٢)	
محبة (١يو ٤ : ٨)	المحب (يو ١٧ : ٢٤)	المحبة (١يو ٣: ١٦)	روح المحبة (٢تي ١ : ٧)
حياة	الحي (حز٥:١١، مت١٦:١٦، يو٦:٥٧، رو١٤:١١)	الحياة (يو١١:٢٥، يو١٤:٦)	روح الحياة (رو٨:٢)
قوة	القوي (مت٦:١٣، رؤ١٨:٨)	القوة (١كو١:٢٤، رؤ٥:١٢)	روح القوة (إش١١:٢، مي٣:٨، ٢تي١:٧)
الفهم	الفهيم (أي١٢:١٦، إش٢:٢٩)	الفهم (أم٨:١٤)	روح الفهم (إش١١:٢)

أمثلة استخدمها الآباء في شرح الثالوث

ولكن كيف أن الآب والابن والروح القدس إله واحد؟ للإجابة نعطي أمثلة استخدمها الآباء للشرح والتقريب مع مراعاة أنّه عندما نُقَدِّم بعض الأمثلة لتوضيح هذا السرّ الإلهيّ نفترض مُسبقًا أنّ جميعها لا تفسره إلّا جزئيًا، أو من جوانب معينة دون الأخرى، لأنه إذا تطابق المثال مع الحقيقة صار المثال حقيقة.

النار

النار يوجد بها لهب واللهب يخرج منه نور وحرارة: فاللهب يسمى نارًا والنور يسمى نارًا والحرارة تسمى نارًا، والدليل على ذلك أنه من الممكن القول أننا نوقد اللهب، أحيانًا نقول نحن نستنير بالنور أو نستنير بالنار أو نحن نستدفئ على الحرارة أو نحن نستدفئ على النار. ولقد وعد الله أن يحفظ كنيسته قائلًا: "**وأنا يقول الرّبّ أكون لها سور نار من حولها وأكون مجدًا في وسطها.**" (زك٢:٥).

إن للنار ثلاث خواص تشبه الأقانيم، لهيب ونور مُتولِّد من اللهيب، وحرارة منبعثة عنه، لكنها ليست أقانيم،لأن الواحدة لا تملأ الأخريْن. من خلال النور يمكننا التعرُّف على النار، وهكذا أيضًا من خلال الحرارة.

الشجرة

ويورد **المطوّب أغسطينوس** مثالًا يوضح الثالوث في الواحد: مثال الشجرة، جذر، وجذع، وفروع والثلاثة واحد. فيقول:[١٣١]

"نؤكد أنه من المستحيل أن يكون الآب أحيانًا الابن وأحيانًا الروح القدس. تمامً كما في الشجرة، الجذر ليس سوى جذر، والجذع ليس سوى جذع. ولا يمكن أن نسمي الفروع شيئًا غير الفروع، لأن ما يُسمَّي جذرًا لا يمكن أن يُسَمَّى جذعًا وفروعًا. والخشب الذي يخص الجذر لا يمكن بأي شكل من أشكال التحوُّل أن يكون مرة في الجذر، ومرة في الجذع، ومرة في الفروع، وإنما فقط في الجذر حيث قاعدة التخصيص ثابتة بحيث أن الجذر خشب، والجذع خشب، والفروع خشب، ومع ذلك فهي ليست ثلاثة أخشاب، وإنما خشب واحد".

[131] *A Treatise of Faith and the Creed, Ch.17, p.328*

النهر

يقول القديس أثناسيوس الرسوليّ[١٣٢]:

"يجب علينا ألا نتصور وجود ثلاثة جواهر منفصلة عن بعضها البعض في الله – كما ينتج عن الطبيعة البشرية بالنسبة للبشر– لئلا نصير كالوثنيين الذين يملكون عديدًا من الآلهة. ولكن كما أن النهر الخارج من الينبوع لا ينفصل عنه، وبالرغم من ذلك فإن هناك بالفعل شيئين مرئيين واسمين. لأن الآب ليس هو الابن كما أن الابن ليس هو الآب، فالآب هو أب الابن والابن هو ابن الآب. وكما أن النهر ليس هو الينبوع والينبوع ليس هو النهر، ولكن لكليهما نفس الماء الواحد الذي يسري في مجري من الينبوع الي النهر، وهكذا فإن لاهوت الآب ينتقل في الابن بلا تدفق أو انقسام. لأن السيد المسيح يقول "خرجت من الآب" وأتيت من عند الآب. ولكنه دائمًا أبدًا مع الآب، وهو في حضن الآب. وحضن الآب لا يخلو أبدًا من الابن بسبب ألوهيته".

وفي دفاعه عن البابا ديونسيوس السكندريّ يكتب:

"الحياة وُلِدَتْ من الحياة بنفس الطريقة التي ينبع بها النهر من الينبوع ويُشعَل بها النور من النور الذي لا ينطفئ".[١٣٣]

الشمس

يقول القديس كيرلس السكندريّ:

"لا يمكن أن نطبق آلام الولادة والتمزق وخلافه على خروج الشعاع من الشمس، وهو كائن فيها رغم إشعاعه. وهكذا فالشمس تمتلك في طبيعتها الخاصة، شعاع نور الذي لاينفصل عنها، ولكنه يبدو بعد خروجه منها أن له فراده خاصة به. وأحيانًا يفكر البعض في الشمس

---

[132] *Expositio Fidei (Statemant of faith) P. 84,85 N.& P.N. Fahers, St. Athanasius – Vol. IV – Sep. 1978.*

[133] *ANF, Vol. VI, P. 93.*

نفسها ولكنهم لا يستطيعون أن يتخيلوا جوهرها. ففي هذا الجوهر يوجد الشعاع ومن الجوهر يخرج الشعاع دون أن ينفصل الشعاع عن الجوهر، إلا أنه متميز عنه، إذ أن الشعاع يخرج من الشمس إلى خارجها. ولهذا فمن العبث والمضحك أن نتصور أن الشمس أقدم من الشعاع، وكأن الشعاع الخارج منها يجئ متأخرًا...فهذا التصور معناه أن الشمس غير موجودة بسبب أنها لا تمتلك النور موجودًا معها، وهو الذي يجعلنا ندرك أنها موجودة. هكذا ترى أن الأمثلة المادية الملموسة لها قيمتها في صياغتها للتعبيرات السليمة، فهي تعطينا إمكانية أن نعبِّر عن المعاني الفائقة، دون أن تفسد هذه التعبيرات معنى الميلاد الإلهيّ، بأن تدخل عليه التمزق والألم، وذلك لأن ولادة الجوهر الذي هو فوق الكل، خالية من الآلام، والمولود الإلهيّ يأتي من صميم الجوهر ولا يوجد به انقسام أو آلام وهو كائن مع الذي ولده، وهذا ما يلزم أن نفهمه لأن هذا هو الواقع. ولقد شهد الحكيم يوحنا لأزلية الابن وعدم وجود بداية له حينما قال "في البدء كان الكلمة" (يو١: ١) وأيضًا قال هو "الكائن والذي كان والذي يأتي" (رؤ١: ٨)".[١٣٤]

واستخدم هذا المثال أيضًا القديس يوستينوس الشهيد، حين كتب:

"يُسمِّي المسيحيّون المسيح "الكلمة"، لأنه يحمل بشارة من الآب للبشر. ولكنهم يُصِرُّون على أن هذه القوة (الكلمة) غير مُنقسِم وغير مُنفصِل عن الآب، كما أن شعاع الشمس الذي يصل إلى الأرض هو غير مُنقسِم وغير مُنفصِل عن الشمس في السماء. وهذه القوة أي "الله الكلمة"، مولود من الآب..ليس بالانقسام كما لو كان جوهر الآب قد انقسم. فكل الأشياء إذا انقسمتْ أو تجزَّأت لا تكون كما كانت قبل الانقسام أو التجزئة. وعلى سبيل المثال، النيران التي تُشعَل من مصدر ناري نجدها مُتمايزة عن النار الأصلية. ومع ذلك، فالنار التي منها نُشعِل نيران كثيرة لا تَنقُص بل تبقى كما هي".[١٣٥]

[١٣٤] حوار حول الثالوث-المقالة الثانية

[135] *ANF, Vol. I , P. 264.*

ويكتب هيبوليتس الرومانيّ:

"لقد ظهر آخر إلى جانب الآب. ولكن عندما أقول "آخر" لا أعني أن هناك إلهيّن، ولكن أعني فقط أنه مثل النور من النور، والماء من الينبوع، والشعاع من الشمس".[١٣٦]

"وكما أن الشعاع ينطلق من الشمس..إلا أن الشمس تكون قائمة في الشعاع بمقتضى أن الشعاع هو شعاع الشمس، والشعاع لا يُعتبَر مادة منفصلة عن الشمس بل خارجًا منها. وهكذا دائمًا تكون علاقة الروح من الروح، والإله من الإله، وكما أن النور حينما يشتعل من النور فإن النور الأصلي يبقى كاملًا ولا ينقص، هكذا ما يخرج من –طبيعة– الله فإنه يسمَّى في الحال "إله" و"ابن الله " وأنهما كليهما واحد".[١٣٧]

خاتمة

لا يجب أن تغنينا عقيدة الثالوث القدوس النظريّة عن انطباع الثالوث على حياتنا الشخصيّة وعلاقاتنا الإنسانيّة ، فليست المسيحيّة مجموعة من النظريّات الفلسفيّة التي لا انعكاس لها على واقعنا الماديّ، بل هيَ خبرة نتعلّمها نظريًّا، ثمّ نحيا بها.

ينتج عن وحدانيّة الثالوث وحدانية بين الله والإنسان (يو١٤: ٢٠؛ ١٧: ٢٣)، وبين البشر بعضهم لبعض (يو١٧: ٢١). فالوحدة والاستقلال كما نرى لا يتعارضان، بل ينميان معًا، كلما زادت الواحدة تعمّقت الأُخرى أيضًا، فلا تتحقّق الاستقلاليّة الحقّة إلّا بوحدانية المحبّة أولًا وشركتها، فشركة المحبّة لا تبتلع الآخر، ولا تستخدمه كشيء، بل تحتضنه، لتشبع به وتتشبّع منه، في ارتواء متبادل للحبّ، لا يلغي الحُرّيّة ولا يقهر الآخر ويصهره.

إنّ الثالوث القدّوس هو الأساس الأعمق والمعنى الأخير لسرّ الشخص البشريّ واكتماله في المحبّة.

---

[136] *ANF, Vol. V, P. 227.*
[137] *Newman, op. cit., p. 162.*

للمزيد من القراءة

- الثالوث القدّوس قبل نيقية، أمجد بشارة
- الوجود شركة، يوحنا زيزيولاس
- الإيمان بالثالوث الفكر اللاهوتيّ والكتابي للكنيسة الجامعة، توماس تورانس
- إله المسيحيّين، فالتر كاسبر
- حقبة مضيئة في تاريخ الكنيسة القديس أثناسيوس الرسوليّ، الأب متّى المسكين

- *Robert A. Morey, The Trinity: Evidence and Issues (Iowa Falls, IA.: World Pub., 1996).*
- *Roger E. Olson and Christopher A. Hall, The Trinity, Annotated Bibliography of English Language Works on the Trinity, Guides to theology (Grand Rapids, Mich.: W.B. Eerdmans, 2002).*

الفصل الرابع:

لاهوت المسيح

بعد شرحنا لعقيدة الثالوث القدوس في الفصل السابق، فإنّنا في هذا الفصل نستعرض حقيقة أُخرى أساسيّة في الإيمان المسيحيّ، خاصّة بشخص الرّبّ يسوع ذاته، الذي عليه خلاصنا ورجاؤنا. لماذا نقول إنّ المسيح هو الله؟ وهل هُناك أدلة من الكتابات الرسوليّة في العهد الجديد على ذلك؟ وكيف فهم آباء الكنيسة هذه النصوص؟ وماذا عن النصوص التي تُستخدم ضد لاهوت السيد المسيح؟

وسنحاول معًا بالعودة إلى الينابيع الأولى للكتابات الرسوليّة وفقًا لتعاليم آباء الكنيسة أن نجيب عن هذه الأسئلة..

لقد أوضح العهد الجديد لاهوت المسيح بشكل جليّ على مستويين: الأوّل: هو الإعلان المباشر عن لاهوته. والثاني: الإعلان غير المباشر الذي يشمل: غفرانه للخطايا، قبوله للعبادة، سلطانه غير المحدود... وسوف نكتفي في دراستنا هُنا على الإعلانات المباشرة عن لاهوت السيد المسيح فقط، وكيف قرأتها الكنيسة الأولى.[١٣٨]

الإعلان المباشر عن لاهوت السيد المسيح في العهد الجديد

مساواته للآب

أعلن يسوع مساواته مع الله الآب في عدّد من المناسبات.

١- يوحنا ١٠: ٢٥- ٣٣:

"أجابهم يسوع.. أنا والآب واحد. فتناول اليهود أيضا حجارة ليرجموه. أجابهم يسوع أعمالًا كثيرة حسنة أريتكم من عند أبي. بسبب أي عمل منها ترجمونني. أجابه اليهود قائلين لسنا نرجمك لأجل عمل حسن بل لأجل تجديف. فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهًا".

[١٣٨] لمزيد من الدراسة حول لاهوت المسيح في العهد القديم والجديد والليتورجيّات الأولى والنصوص الأبوكريفيّة، يمكن الرجوع إلى: "الثالوث القدوس قبل نيقية"، للمؤلف.

وتوضح هذه الفقرة أنّ اليهود فهموا بوضوح كلمات المسيح على أنّها ادِّعاء بالإلوهيّة. ويبيّن ردّ فعلهم، أنّهم قد فهموا تمامًا ماذا يعنيه بهذه الكلمات. كما يكتب العالم الكتابيّ ف. بروس:

"لم يكن أمام اليهود إلا أن يعتبروا كلمات يسوع تجديفًا، فمضوا ينفذون الحكم بأيديهم. لقد نصَّت الشريعة على أن التجديف عقوبته الرجم (لاويين ٢٤: ١٦). ولكنهم لم يكونوا ليسمحوا بأن تسير إجراءات ا لشريعة في مجراها الطبيعي. فلم يعدوا اتِّهامًا على أساسه يمكن للسلطات أن تتخذ الإجراء اللازم بموجبه. بل في غضبهم نصبوا أنفسهم قضاة وجلادين في آن واحد. وتشير كلمة «أيضًا» إلى محاولتهم السابقة لرجمه (يوحنا ٨: ٥٩)".[١٣٩]

٢- يوحنا ٥: ١٧ و ١٨:

"فأجابهم يسوع أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل. فمن أجل هذا كان اليهود يطلبون أكثر أن يقتلوه. لأنه لم ينقض السبت فقط بل قال أيضًا إن الله أبوه معادلًا نفسه بالله".

من الواضح أنّ يسوع يساوي عمله بعمل الآب، فالآب يعمل، والابن يعمل أيضًا، الآب يعمل في السبت، والابن كذلك لا يتوقف عن العمل، واضعًا نفسه على قدم المساواة مع الأعمال التي في قدرة الآب أن يعملها. كما يُعلِّق على هذا النص المطوَّب أمبرسيوس في كتابه عن الروح القدس:

"لكي نعرف بطريقة أكمل عن مساواة الآب والابن، إذ تكلم الآب عمل الابن، هكذا أيضًا الآب يعمل، والابن يتكلم. الأب يعمل كما هو مكتوب: "أبى يعمل حتى الآن، وأنا أعمل". تجد انه قيل للابن: "قل كلمة فقط فيبرأ غلامي" (مت ٨:٨). ويقول الابن للآب: "أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني ليكونون معي حيث أكون أنا" (يو ١٧:١٤)، فالآب عمل ما قاله الابن".[١٤٠]

[139] *F. F. Bruce, the New International Commentary on the New Testament, Grand Rapids:1971, p 575.*

[140] *On the Holy Spirit, Book 2, jutr.(2).*

ويكتب المطوَّب أغسطينوس في تعليقاته على إنجيل يوحنّا:

"الإيمان الجامعي (للكنيسة الجامعة) هو أن أعمال الآب وأعمال الابن غير منفصلة... كما أن الآب والابن غير منفصلين، هكذا أيضًا أعمال الآب وأعمال الابن غير منفصلة... ما يفعله الآب يفعله أيضًا الابن والروح القدس. فإن كل الأشياء صُنعت بالكلمة، عندما "تكلم كانت"".[١٤١]

لكن، ما أثار حفيظة اليهود ليس ذلك فقط، بل أنّه صرَّح هُنا بعلاقة فريدة مع الله قائلًا إنه أباه. وكما أن ابن أي شخص من البشر يجب أن يكون إنسانًا من البشر بالتمام، فهكذا ابن الله يجب أن يكون هو الله بالتمام. وكل ما للآب فهو للابن. ويشير يسوع أيضًا إلى أنه مادام الله يعمل فإنه، أي الابن، يعمل أيضًا . ومرة أخرى يفهم اليهود الإشارة إلى أنه ابن الله. ونتيجة لهذا التصريح، فإن كراهية اليهود قد بلغت مداها.

الوجود الأزلي

٣- يوحنا ٨: ٥٨:

"قال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن".

في تفسيره على إنجيل القديس يوحنا يكتب ذهبي الفم موضحًا أنّ الكائن تعني الذي فوق الزمان، فيقول:

"لماذا لم يقل:" قبل أن كان إبراهيم أنا كنت" بل "**أنا الكائن**"... يستخدم المسيح هذا التعبير ليعني استمرار الكائن فوق كل زمان. لهذا حُسب هذا التعبير تجديفًا".[١٤٢]

ويكتب أغسطينوس بأكثر بيان:

"لتزنوا الكلمات، ولتتعرفوا على السرّ. "**قبل أن يكون (يُخلق *was made*) أنا كائن**". لتفهموا أن "خُلق" تشير إلى الخلق البشري، أما "**أنا كائن**" فتشير إلى الجوهر الإلهي. لم يقل: "قبل أن

---

[141] *On the Gospel of St. John, tractate 20:3.*
[142] *Hom 55. PG 59:324.*

يكون (*was*) أنا كنت"، ذاك الذي لم يُخلق إلاَّ بي أنا الكائن. ولم يقل "قبل أن يُخلق إبراهيم أنا خُلقت"... لتميزوا بين الخالق والمخلوق". [١٤٣]

يسوع له نفس الكرامة التي تليق بالله

٤- يوحنا ٥: ٢٣ و٢٤:

"لكي يكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب. من لا يكرم الابن لا يكرم الآب الذي أرسله. الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة".

في الجزء الأخير من هذه الآية يحذِّر يسوع من يتهمونه بالتجديف. فهو يقول لهم إنهم بإساءة معاملتهم له فإنما يسيئون معاملة الله، وأن الله هو الذي سيغضب بسبب معاملتهم ليسوع، ويصرِّح يسوع أيضًا بأن له الحق في أن تقدم له العبادة مثل الله. وعلى ذلك، وكما أشرنا سلفًا، فإن من لا يكرم يسوع فإنه لا يكرم الله. ويعلِّق القديس يوحنّا ذهبي الفم على هذا النصّ قائلًا:

"ألا ترون كيف ترتبط كرامة الابن بكرامة الآب؛ قد يقول أحد: ما هذا؟ فإننا نرى نفس الشيء في حالة الرسل إذ يقول المسيح: "من يقبلكم يقبلني" (مت ١٠ :٤٠). في ذلك يتحدث هكذا، لأنه مهتم بخدامه الذين هم له، أما هنا فالسبب هو أن الجوهر واحد والمجد واحد مع الآب. لذلك لم يقل عن الرسل "لكي يكرمونهم"، أما هنا فبحق يقول: "من لا يكرم الابن لا يكرم الآب". فإنه متى وجد ملكان، من يسب الواحد يكون قد سب الآخر، خاصة إن كان ابنه وأيضًا من يسيء إلي جنوده يحسب كمن أساء إليه، لكن بطريقة مختلفة". [١٤٤]

---

[143] *On the Gospel of St. John, tractate 4 3: 17.*
[144] *Homilies on St. John,39:2.*

الإله يسوع المسيح

٥- رومية ٩: ٥:

"ولهم (شعب اليهود) الآباء ومنهم المسيح حسب الجسد الكائن على الكلّ إلهًا مباركًا إلى الأبد آمين".

بولس... يعلن أن المسيح، الذي قال عنه توًا إنه بحسب الطبيعة البشرية أو كإنسان من نسل إسرائيل، هو من ناحية أخرى الله المهيمن أو الله الكائن على الكلّ والمبارك إلى الأبد... ومن ثمّ تبين هذه الفقرة أن المسيح هو الله بأسمى ما في الكلمة من معنى. فما يؤكد عليه الرسول في نهاية رومية ٩: ١- ٥ هو ما يلي: على النقيض من الإهانة والرفض الذي يلقاه من شعبه الإسرائيلي، فإن المسيا، يسوع المسيح، في الحقيقة ممجد على كل الخليقة الحية وغير الحية، ومن بين ذلك اليهود الذين رفضوه باعتبار أنه الله بطبيعته والهدف الأزلي للعبادة. يعلّق القديس هيبوليتس الرومانيّ على هذا النصّ في الكتاب الذي وضعه ضد المُهرطق نويتيوس قائلًا:

"هذه الكلمة تعلن سرّ الحق باستقامة ووضوح، فإنه ذاك الكائن على الكلّ هو الله، القائل بدالة: "كل شيء قد دُفع إلى من أبي" (مت ١١: ٢٧). الكائن على الكلّ هو الله المبارك وقد وُلد إذ صار إنسانًا، لكنه هو الله إلى الأبد. في هذا يقول يوحنا أيضًا: "الكائن والذي كان والذي يأتي، القادر على كل شيء" (رؤ ١: ٨). حسنًا دُعي المسيح بالقادر، إذ بهذا ينطق بما شهد به المسيح عن نفسه".[١٤٥]

٦-فيلبي ٢: ٦- ١١

"الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلًا لله لكنه أخلى نفسه آخذًا صورة عبد صائرًا في شبه الناس. وإذ وجد في الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب. لذلك رفَّعه الله أيضًا وأعطاه اسمًا فوق كل اسم. لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن

[145] *Against heresy of Noetius 6.*

في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رّبٌ لمجد الله الآب".

تصف ذه النصوص المسيح الممجد وطبيعتيه: طبيعة الله (٢: ٦) وطبيعة العبد (٢: ٧). وتقدِّم هذه الفقرة يسوع باعتباره الله الكامل والإنسان الكامل بالطبيعة، فهي توحي المقابلة بين السماويّ والأرضيّ، أنّ كلمة *morphe* (المستخدمة في الآية ٦ والآية ٧ والمترجمة «صورة أو طبيعة الله أو العبد» تشير إلى المشاركة في الله وهي حقيقيّة، تمامًا كما كان الاشتراك في الحياة والتاريخ البشريّ حقيقيًّا بالنسبة ليسوع.

والآيات من ٩– ١١ تعادل المسيح بالله. كتب *ف.ف بروس*:

"تشتمل هذه الأنشودة على أصداء من إشعياء ٥٢: ١٣.. وأيضًا إشعياء ٤٥: ٢٣ حيث يقسم الله الحقيقي الواحد بنفسه: «لي تجثو كل ركبة، يحلف كل لسان». ولكن في أنشودة المسيح فإن الله نفسه هو الذي يأمر بأن تنحني كل ركبة لاسم يسوع ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب...

وأحيانًا يسأل البعض عن المقصود من عبارة «اسمًا فوق كل اسم» في أنشودة المسيح، فهل هو «يسوع» أم «الرب» إن هذا الاسم يشتمل على كليهما معًا، لأنه بموجب القرار الإلهيّ أصبح اسم «يسوع» منذ تلك اللحظة مساويًا للاسم «الرب» بكل ما فيه وأسمى ما فيه من معاني – معاني الاسم العبري يهوه."[١٤٦]

٧- كولوسي ٢:٩:

"فإنه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسديًّا".

تلفت هذه العبارة البسيطة أنظارنا إلى حقيقة يسوع وأهمّيّته بالنسبة لنا. فإنّ العقيدة التي يتفرّد بها الإيمان المسيحيّ –وهيَ أنّه في يسوع المسيح حلّ «كل ملء اللاهوت جسديًّا» (كولوسي ٢: ٩) هيَ مكوِّن أساسيّ وجوهريّ في تعاليم العهد الجديد، فقد كرّره وأكّد عليه الرسل الذين عاصروا يسوع.

[146] *F. F. Bruce, The Real Jesus: Who is He? In the Jesus Library, London: 1985. P, 202.*

نصوص ضد لاهوت المسيح وتفسيرها

يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك (يو١٧ : ٣)

أولًا: هذا النص يوقف هرطقة سابليوس الذي قال إنّ الآب والابن والروح القدس أقنوم واحد، فذكر يسوع والرسل أكثر من مرة أنّ هُناك تمايز بين الأقانيم، وليس معنى هذا أن النص يستثني الابن كما سنشرح، فيكتب أمبرسيوس:

بهذا يضع النهاية لأتباع سابيليوس (الذين يدعون أن الأقانيم الثلاثة مجرد ثلاثة أسماء أو أشكال لأقنوم واحدٍ) ولليهود، هؤلاء الذين سمعوه يتكلم. فالأولون يلزمهم ألا يقولوا أن الآب هو ذاته الابن، إذ كان يمكنهم هذا لو لم يُضف "**المسيح**" إلى العبارة، والآخرون يلزمهم ألا يفصلوا الابن عن الآب.[١٤٧]

ثانيًا: كتب ذلك لتمييز الله عن الآلهة الوثنية.فليس الفاصل هُنا بين الآب والابن، الذي لم يوضع بينهم فاصل من الأساس، بل لوضع حد فاصل بين الله الحقيقي وحده، وبين الآلهة الوثنية.

ثالثًا: الابن دعُيَّ في مواضع كثيرة بالحق، والإله الوحيد، والله. فهو ليس خارجًا عن الإله الواحد الحقيقيّ، بل فيه. كما يقول ذهبي الفم:

يقول ذلك بطريقة ما لتمييزه عن الذين ليسوا بآلهة، إذ كان على وشك أن يرسلهم إلى الأمم... أما إذا لم يقبل (الهراطقة) هذا، بل بسبب كلمة "**وحده**" يرفضون أن يكون الابن هو الله الحقيقي، فهم بهذا يرفضون كونه الله نهائيًا... لكن إن كان الابن هو الله، وهو ابن الله الذي يدعى "**الإله وحده**"، فمن الواضح أنه هو أيضًا الإله الحقيقي وأن "**وحده**" توضع للتمييز عن الآخرين.

لو أن الابن ليس هو الإله الحقيقي فكيف يكون هو "الحق"؟ ،لأن الحق يفوق بمراحل "الحقيقي".[١٤٨]

---

[147] *On the Christian Faith, Book 5:1:19.*
[148] *Homilies on St. John, 80:2.*

من النصوص الكتابية نذكر:

الابن هو الحياة الأبدية:

- أنا هو القيامة والحياة من آمن بي وإن مات فسيحيا (يو١١: ٢٥).
- ونحن في الحق في ابنه، هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية (١يو٥: ٢٠).
- كذلك الابن أيضًا يحي من يشاء (يو٥: ٢١).
- خرافي تسمع صوتي، وأنا أعرفها، فتتبعني، وأنا أعطيها حياة أبدية (يو١٠: ٢٧، ٢٨).

الابن هو الله:

- فَإِنَّهُ فِيهِ يَحِلُّ كُلُّ مِلْءِ اللاَّهُوتِ جَسَدِيًّا (كو٢: ٩).
- اِحْتَرِزُوا إِذًا لأَنْفُسِكُمْ وَلِجَمِيعِ اَلرَّعِيَّةِ اَلَّتِي أَقَامَكُمُ اَلرُّوحُ اَلْقُدُسُ فِيهَا أَسَاقِفَةً لِتَرْعُوا كَنِيسَةَ اَللهِ اَلَّتِي اِقْتَنَاهَا بِدَمِهِ (أعمال ٢٠: ٢٨).

الابن واحد مع الآب:

- أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ [يوحنا ١٠: ٣٠].
- قَالَ لَهُ يَسُوعُ: أَنَا مَعَكُمْ زَمَانًا هَذِهِ مُدَّتُهُ وَلَمْ تَعْرِفْنِي يَا فِيلُبُّسُ! اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ فَكَيْفَ تَقُولُ أنت أَرِنَا الآبَ؟ [يوحنا ١٤: ٩].
- وَكُلُّ مَا هُوَ لِي فَهُوَ لَكَ وَمَا هُوَ لَكَ فَهُوَ لِي وَأَنَا مُمَجَّدٌ فِيهِمْ [يوحنا ١٧: ١٠]

كما دعيَّ يسوع بالإله الوحيد:

ففي الترجمة النقدية *NET Bible* جاء النص (يو١: ١٨)، كالتالي:

*No one has ever seen God. The only one, **himself God**, who is in closest fellowship with the Father, has made God known.*

وفي ترجمة الـ *ESV*:

*No one has ever seen God; **the only God**, who is at the Father's side, he has made him known.*

فالكلمة في اليونانية جاءت *μονογενὴς θεός* والتي تعني الإله الوحيد، ليس الابن الوحيد، فنصّ الابن الوحيد مقتبس عن النصوص اليونانية الأحدث، وليس مقبولًا من غالبية علماء النقد النصيّ الآن.

رابعًا: الوحدانيّة تعود على جوهر الله، فنحن لا نقسم الثالوث إلى أجزاء لأنّ طبيعة الله بسيطة غير مركبة من أجزاء، فالله وحده الحق والله وحده القدوس والله وحده الخالق، وهذا لا يعود على الآب فقط، بل يتضمن معه بشكل آلي الابن والروح القدس.

أبي أعظم مني (يو ١٤ : ٢٨)

أولًا تظهر طبيعتي المسيح، طبيعته البشرية وطبيعته الإلهية، وفي هذا يقول المطوّب أغسطينوس:

أمور كثيرة قيلت في الكتاب المُقدّس تتحدث عنه في شكل اللهّ، وأمور كثيرة في شكل العبد. اقتبس اثنين من هذه كمثالين، واحد يخص كل منهما. فبحسب شكل اللهّ قال: "أنا والآب واحد" (يو ١٠:٣٠)، وبحسب شكل العبد: "أبي أعظم مني".[149]

ويكتب القديس باسليوس:

ما هو غير طبيعي إن كان ذاك الذي هو اللوغوس قد صار جسدًا (يو ١ : ١٤) يعترف بأن أباه أعظم منه، إذ ظهر في المجد أقل من الملائكة، وفي الهيئة كإنسان؟ لأنك "جعلته أقل قليلًا من الملائكة" (مز ٨: ٥)... وأيضا: "ليس فيه شكل ولا جمال، شكله حقير، وأقل من شكل بني البشر (إش ٥٣: ٢، ٣). هذا هو السبب لماذا هو أقل من الآب، فإن ذاك الذي أحبك احتمل الموت، وجعلك شريكًا في الحياة السماوية.[150]

ويضيف المطوَّب أمبرسيوس:

يقولون مكتوب: "**أبي أعظم مني**". أيضًا مكتوب: "لم يحسب خلسة أن يكون معادلًا للهّ" (في ٢:٦). وأيضًا مكتوب أن اليهود أرادوا قتله، لأنه قال إنه ابن اللهّ معادلًا نفسه باللهّ (يو ٥:١٨). مكتوب: "أنا والآب واحد" (يو ١٠:٣٠). إنهم يقرأون نصًا واحدًا وليس نصوص كثيرة. إذن هل يمكن أن يكون أقل ومساوٍ في نفس الوقت لذات الطبيعة؟ لا، فإن عبارة تشير إلى لاهوته، وأخرى إلى ناسوته.[151]

---

[149] *Letters, 238.*
[150] *Letter 8 to the Caesareans, 5.*
[151] *Of the Holy Spirit Book 5:18:224.*

ثانيًا بالعودة لسياق النص نجد أنّ المسيح يتحدث عن صعوده وعودته لمجده الأوّل مع الآب، فالآب أعظم منه مقارنة بوضعه الحالي في التجسُّد، وهو ذاهب إلى تلك العظمة عينها. كما قال في موضع آخر:

- وَالآنَ مَجِّدْنِي أنت أَيُّهَا الآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ بِالْمَجْدِ الَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ (يو١٧: ٥).

ثالثًا دائمًا ما يُشدّد الآباء على **أنّ المُقارنة لا تتم إلّا بين من هم من نفس الطبيعة**، فلا نستطيع أن نقارن بين البحر والنخلة، ولا بين الأرنب والجبال، بل يجب أن نقارن بين متساوين، لذا لم يستخدم يسوع كلمة "أفضل"، بل كلمة "أعظم"، والتي تشير إلى مساواته مع الآب في الطبيعة، مثلما يقول القديس أثناسيوس:

إنّ الابن لم يقل "أبي أفضل مني"، خشية أن نتصور أنه غريب عن طبيعة الآب، بل قال أعظم مني، ليس من جهة القيمة، ولا من جهة الزمن، بل بسبب ميلاده من أبيه، وبذلك أظهر أنه من ذات طبيعة الآب، لان الآب والابن باستمرار من طبيعة واحدة.[١٥٢]

يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة (لو٢: ٥٢)

أولًا يتحدث هُنا عن النمو الجسماني ليسوع، فنحن نعلم ونُعلِّم أنّ المسيح قد تجسّد في جسد بشريّ حقيقيّ، وحقيقيّ تعني أنّه يخضع لكلّ ما للجسد البشريّ من ضرورات: (التعب، الضعف، الجوع، العطش، التألُّم، النمو...)، وهكذا أيضًا يعلن لنا الكتاب المُقدّس في أكثر من موضع:

- "الْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا وَحَلَّ بَيْنَنَا وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ مَجْدًا كَمَا لِوَحِيدٍ مِنَ الآبِ مَمْلُوءًا نِعْمَةً وَحَقًّا" (يو١/ ١٤).
- "الَّذِي إذ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلًا للهِ. لَكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ" (في٢/ ٦-٧).
- "فِيهِ يَحِلُّ كُلُّ مِلْءِ اللاَّهُوتِ جَسَدِيًّا. " (كو٢/ ٩).

---

[١٥٢] ضد الآريوسيين، ١: ٥٨.

- "عَظِيمٌ هُوَ سِرّ التَّقْوَى: اللهُ ظَهَرَ فِي الْجَسَدِ" (١تي٣/ ١٦).
- "وَلَكِنْ لَمَّا جَاءَ مِلْءُ الزَّمَانِ، أَرْسَلَ اللهُ ابْنَهُ مَوْلُودًا مِنِ امْرَأَةٍ" (غل٤/ ٤).

وكما نقول عنه في قانون الإيمان:

"نؤمن بربٍ واحدٍ يسوع المسيح ابن اللهّ الوحيد المولود من الآب قبل كلّ الدهور نور من نور إله حق من إله حق مساوٍ للآب في الجوهر، الذي به كان كلّ شيء، هذا الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسَّد من الروح القدس ومن مريم العذراء تأنَّس".

ويكتب القديس كيرلس:

كان لله الكلمة أن يتَّخذ جسدًا من امرأة، فيصبح بمجرد ولادته رجلًا نامي الأعضاء كامل الأنسجة، ولكن لو حدث ذلك لكان من قبيل اللعب التخيُّلي، ولذلك سار الصبي علي قوانين الطبيعة البشريّة فكان يتقدَّم في الحكمة والقامة والنعمة... فإنَّ الإنجيلي الحكيم لم يُشر بآيتيه السابقتين إلى الكلمة وهي الطبيعة الإلهيّة، بل أشار في غير لبس أو غموض إلى المسيح، وقد وُلد إنسانًا من امرأة، واتَّخذ صورتنا، وصار صبيًا بشريًا. في هذه الحالة يقول الإنجيلي عنه "**إنه كان يتقدَّم في الحكمة والقامة والنعمة**"، فترون أن جسم الصبي نما طبقًا للنواميس الطبيعيّة، وعقله تقدَّم ماشيًا مع النمو الجسماني.

نما الجسم في القامة، وتقدَّمت النفس في الحكمة، أما الله فبطبيعته الإلهيّة كامل لأنه مصدر الحكمة والكمال.[١٥٣]

ويكتب القديس أثناسيوس:

التقدَّم هنا خاص بالجسد، إذ هو يتقدَّم، فيه يتقدَّم إعلان اللاهوت للذين يرونه، وإذ كان اللاهوت يُعلن أكثر فأكثر لذلك كانت نعمته تتزايد في أعين كل البشر. كطفلٍ حُمل إلى الهيكل، إذ صار صبيًا بقي هناك يناقش الكهنة في الشريعة، وإذ نما جسده أعلن الكلمة ذاته فيه. لذلك اعترف به بطرس ثمّ البقيّة: "أنت هو ابن الله" (مت ١٦: ١٦؛ ٢٧: ٥٤)... نمو الحكمة هنا

[153] *In Ioan. hom 21:1.*

لا يعني نمو "الحكمة" ذاته إنما تقدَّم ناسوت في الحكمة (بإعلانها)... لذلك قيل: "الحكمة بَنَت بيتها" (أم ١٩ : ١) وأعطت لذاتها نموًا لبيتها.[154]

ويكتب العلامة أوريجانوس:

لقد حّل اللاهوت في جسم بشري... بل وفي نفس بشريّة أيضًا... "كان ينمو"... لقد أخلي ذاته وأخذ شكل العبد (في ٢ : ٧)... وبالقدرة التي بها أخلى ذاته نما أيضًا... فظهر ضعيفًا لأنه استطاع في حبه أن يأخذ جسدًا ضعيفًا واستطاع أيضًا أن ينمو ويتقوّى... أخلي ابن الله ذاته، وبنفس القُدرة امتلأ حكمة وكانت نعمة الله عليه.[155]

ثانيًا هذا ما كان يظهر للناس، أنّ يسوع ينمو في الحكمة والقامة والنعمة، فإنجيل القديس لوقا خاصة يتحدث دائمًا عن وجهة نظر الناس في يسوع، فيقول مثلًا في مقدمة سلسلة النسب التي قدّمها:

- وَهُوَ عَلَى مَا كَانَ يُظَنُّ ابْنَ يُوسُفَ (لو٣: ٢٣).

فلا نتعجب أنّه هُنا أيضًا يتحدث عن وجهة نظر الناس في يسوع. ويقول القديس كيرلس عامود الدين في رسالة له إلى نسطوريوس:

لو أنَّه أبان وهو طفل من الحكمة ما يليق به كإنسان، لظهر للجميع كأنه كائن غريب شاذ عن الجميع. ولكنه كان يتدرَّج في إظهار حكمته بالنسبة إلي تقدُّمه في العمر بحسب الجسد. وهكذا أراد أنْ يظهر للكل كأنَّه هو نفسه كان يزداد في الحكمة بما يتلاءم مع سنه •• ففي تأكيدنا أنَّ ربنا يسوع المسيح هو أحد، وفي نسبتنا له خواص اللاهوت والناسوت نؤكِّد حقيقة أنَّه ملائم لقياسات تواضع المسيح حتي أنَّه قبل زيادة جسدية ونمو في الحكمة. فأعضاء الجسد كانت تصل بالتدريج إلي تمام بلوغها، ومن جهةٍ ثانيةٍ يظهر كأنَّه امتلأ حكمة بنسبة ظهور الحكمة الكامنة فيه كأنها تبرز بدرجة ملائمة لنمو الجسد ... فهو يعرف من جهة اللاهوت لأنَّه حكمة

---

[154] *Disc. against Arians 3:52.*
[155] *In Luc , hom. 19:2.*

الآب ولكنه إذ أخضع نفسه إلي القياس الناسوتي إتّخذ لنفسه بحسب التدبير ذلك القياس. ولم يكنْ كما قلت سابقًا يجهل شيئًا لكن يعلم كلّ شيء كما يعلم الآب.[١٥٦]

وكيف يمكن لهذا الذي قيل عنه أنّه مملوء حكمة، وهو حكمة الله ذاتها أن يكون ناقصًا في الحكمة؟!

- الْمَسِيحِ قُوَّةِ اللهِ وَحِكْمَةِ اللهِ" (١كو١/ ٢٤).
- "الْمَسِيح يَسُوعَ الَّذِي صَارَ لَنَا حِكْمَةً مِنَ اللهِ وَبِرًّا وَقَدَاسَةً وَفِدَاءً" (١كو١/ ٣٠).
- وأنَّه " الْمُذَّخَرِ فِيهِ جَمِيعُ كُنُوزِ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ" (كو٢/ ٣).
- بل هو الْمُعطي فمًا وكلامًا وحكمةً وقد قال لتلاميذه "لأَنِّي أَنَا أُعْطِيكُمْ فَمًا وَحِكْمَةً لاَ يَقْدِرُ جَمِيعُ مُعَانِدِيكُمْ أَنْ يُقَاوِمُوهَا أو يُنَاقِضُوهَا" (لو٢١/ ١٥).
- ويقول الكتاب عنه: "لِتَسْكُنْ فِيكُمْ كَلِمَةُ الْمَسِيحِ بِغِنىً، وَأَنْتُمْ بِكُلِّ حِكْمَةٍ مُعَلِّمُونَ وَمُنْذِرُونَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، بِمَزَامِيرَ وَتَسَابِيحَ وَأَغَانِيَّ رُوحِيَّةٍ، بِنِعْمَةٍ، مُتَرَنِّمِينَ فِي قُلُوبِكُمْ لِلرَّبِّ. وَكُلُّ مَا عَمِلْتُمْ بِقَوْلٍ أو فِعْلٍ، فَاعْمَلُوا الكلّ بِاسْمِ الرّبّ يَسُوعَ" (كو٣/ ١٦-١٧).

[١٥٦] مجموعة الشرع الكنسي ص ٣١٤؛ تاريخ الفكر المسيحي القس يوحنا الخضرسي ج٣: ١٣٠.

لمزيد من القراءة

- ماذا قال المسيح عن شخصه، القمص بيشوي حلمي.
- برهان جديد يتطلّب قرار، جوش ماكدويل.
- ضد الآريوسيّين، أثناسيوس الرسوليّ.
- إله المسيحيّين، فالتر كاسبر.

الفصل الخامس:

الخريستولوجيّ (طبيعة المسيح)

نستعرض في هذا الفصل مختصر تاريخ تطوُّر الصراع الخريستولوجيّ، ثمّ نتحدث عن الخريستولوجيّ أو طبيعة المسيح بحسب تعليم كنيسة الإسكندريّة (الكنيسة القبطيّة الأرثوذكسيّة).[١٥٧]

نظرة تاريخيّة على تطوُّر الصراع الخريستولوجيّ

أبوليناريوس

لقد حوّل أبوليناريوس *Apollinarius* تعليم ثلاثية تكوين الإنسان *trichotomy* من سيكولوجية أفلاطون إلى كريستولوجيّ. فقال:

"كما أنّ الإنسان العاديّ مكوَّن من جسد ونفس وروح، هكذا يسوع المسيح مكوّن من الجسد والنفس والكلمة (اللوغوس)".

وفي رأيه أنّ الكلمة قد حلّ محل الروح *πνυμα* (بنفما) واتحد بالجسد والنفس لتكوين الاتحاد.[١٥٨]

لم يتصوَّر أبوليناريوس إمكانية وجود نفس إنسانيّة عاقلة في المسيح في وجود الله الكلمة الذي هو روح والذي هو العقل الإلهيّ. رُبّما تصوّر أبوليناريوس أن النفس الإنسانيّة العاقلة تعني بالضرورة شخصًا بشريًّا متمايزًا عن شخص الله الكلمة. بمعنى **أنّه خلط بين مفهوم الشخص الذي هو مالك الطبيعة، ومفهوم العقل الذي هو أحد خواص الطبيعة التي يملكها الشخص،** أي أنّه قد **اعتبر أنّ الشخص هو العقل**. وأراد بإلغاء الروح الإنسانيّة العاقلة أن يؤكِّد أنّ شخص كلمة الله هو الذي تجسّد وهو هو نفسه يسوع المسيح. بمعنى تأكيد الوحدة في شخص يسوع المسيح وأن كلمة الله لم يتخذ شخصًا من البشر بل

---

[١٥٧] ندين بفضل كبير لكتاب نيافة الحبر الجليل المتنيح أنبا بيشوي: "مجمع أفسس"، حيث عدنا إليه كثيرًا لشرح الجانب التاريخيّ للصراع. كما عدنا أيضًا إلى كتاب: "مجمع خلقيدونيّة إعادة فحص". وكلا الكتابان مرجعان رئيسيّان للجزء الأوّل من هذا الفصل.

[158] *Cf. Hefele, C.J. A History of the Councils of the Church, Vol III, AMS Press 1972, p.2 reprinted from the edition of 1883 Edinburgh.*

اتخذ جسدًا ذا نفس بلا روح عاقلة. وبهذا يتحقق -فى نظره- وحدة الطبيعة في المسيح الكلمة المتجسد وعصمته من الخطيئة.

وقد تصوّر البعض أنّ القديس أثناسيوس الرسوليّ في القرن الرابع قد تأثر بفكر وتعليم أبوليناريوس في تعاليمه الكريستولوجية. ولكن القديس أثناسيوس قد شرح هذا الأمر باستقامته المعروفة في التعليم **في رسالته إلى أبيكتيتوس**، وقال إنّ عبارة القديس يوحنا الانجيليّ: "الكلمة صار جسدًا" (يو١: ١٤) تعني أنّ "الكلمة صار إنسانًا" وأنّ السيد المسيح قد اتخذ طبيعة بشرية كاملة من جسد وروح عاقلة. فقال القديس أثناسيوس:

"لإنّ القول "الكلمة صار جسدًا" هو مساو أيضًا للقول "الكلمة صار إنسانًا" حسب ما قيل في يوئيل النبيّ: "إنّي سأسكب من روحي على كلّ جسد"، لأنّ الوعد لم يكن ممتدًا إلى الحيوانات غير الناطقة، بل هو للبشر الذين من أجلهم قد صار الرّبّ إنسانًا".[159]

وقال أيضًا في نفس الرسالة:

"إلّا إنّ خلاصنا، في واقع الأمر، لا يعتبر خيالًا، فليس الجسد وحده هو الذي حصل على الخلاص، بل الإنسان كلّه من نفس وجسد حقًا، قد صار له الخلاص في الكلمة ذاته".[160]

ديودور الطرسوسيّ

ظهرت ردود الفعل ضد الأبوليناريّة في نفس منطقة أبوليناريوس (سوريا) في شخص ديودور أسقف طرسوس (٣٩٤م) *Diodore of Tarsus* وثيودور الموبسويستيّ في كيليكيا (٤٢٨م) *Theodore of Mopsuestia in Cilicia*.

إدّعى ديودور **أنّ اللاهوت سوف ينتقص إذا كوّن الكلمة والجسد اتحادًا جوهريًّا *substantial* (أو أقنوميًّا) مشابهًا لذلك الذي ينتج عن اتحاد الجسد والنفس (العاقلة) في الإنسان.**

[159] *St. Athanasius, Letter to Epictetus, par.8, N.&P.N. Fathers, Oct. 1987, Eerdmans, second series, vol. IV, p. 573.*
[160] *Ibid, par. 7, p. 572, 573.*

في رد فعله على ذلك (أي على فكرة تكوين الكلمة والجسد إتحادًا جوهريًّا) قادته نظريته الخاصة إلى **الفصل بين اللاهوت والناسوت.** وهذا أوصله إلى التمييز[١٦١] بين ابن الله وابن داود. وقال:[١٦٢]

"إن الكتب المُقدّسة تضع حدًا فاصلًا بين أفعال الابنين... فلماذا يحصل من يجدفون على ابن الإنسان على الغفران، بينما من يجدفون على الروح (الروح القدس) لا يحصلون على الغفران"؟[١٦٣]

ثيودور الموبسويستيّ

أراد ثيودور الموبسويستيّ أن يؤكِّد **الإنسانيّة الكاملة للمسيح واعتبر أن الإنسانيّة الكاملة لا تتحقق إلا إذا كان المسيح شخصًا إنسانيًا لأنه اعتقد أنه لا وجود كامل بلا شخصية.** وبهذا لم يكتف بتأكيد وجود طبيعة إنسانيّة كاملة للسيد المسيح، ولكنه تمادى إلى تأكيد اتخاذ الله الكلمة لإنسان تام يستخدمه كأداة لخلاص البشريّة، واعتبر أن الله الكلمة قد سكن في هذا الإنسان بالإرادة الصالحة، **وأنه قد اتحد به اتحادًا خارجيًا فقط.** واستخدم عبارة اتصال *συναφεια conjoining* (سينافيا) بدلًا من كلمة اتحاد *union ενωσις* (إينوسيس). وبهذا فقد جعل في المسيح شخصين أحدهما إلهيّ والآخر إنسانيّ وقد كونا معًا شخصًا واحدًا هو شخص الاتحاد (اتحاد خارجيّ) **مشبهًا إياه بإتحاد الرجل بالمرأة.**

قال المؤرخ هيفلي[١٦٤] *C.J. Hefele*:

"علاوة على ذلك، فقد نظر ثيودور الموبسويستيّ إلى اتحاد اللاهوت والناسوت في السيد المسيح فقط بمعنى *ενοικησις* (إنيكيسيس) أي سكنى، لأن بالنسبة له فكرة التجسد كانت تبدو مطابقة لفكرة تحول اللوغوس (الكلمة) إلى إنسان، ولذلك رفضها كفكرة منافية للعقل. ومع ذلك هو يعتقد بأنه عندما يحل الله في أي شخص، فهو لا يسكن فيه بحسب طبيعته،

---

[161] *Cf. Kelly, J.N.D., Early Christian Doctrines, Chapter XI-Fourth Centry christology- Fifth Edition- A and C Black, London 1977, p. 303, quoting R. Abramowski, Z.N.T.W. 42 (1949), E.g. frg. 42.*

[162] *Cf. ibid., quoting. Abramowski, Z.N.T.W. 42 (1949), E.g. frg. 19: cf. frg. 42.*

[163] *Cf. ibid., p.303.*

[164] *Hefele, C.J., A History of the Councils of the Church, Vol III, p. 5 - AMS Press 1972, reprinted from the edition of 1883 Edinburgh.*

وبالتالى ليس بالتعبير عن قوته، ولكن بمسرته *ευδοκια* (إفذوكيا) الصالحة. هذه السكنى ليست متشابهة في جميع الأبرار، ولكن مقياسها يتقرّر بقياس مسرة *ευδοκια* للاهوت. ولكنها لم تحدث أبدًا لأحد بنفس الدرجة العالية التي للسيد المسيح".

لكن كما أنه لم يتجاهل حقيقة أن ضمير الكنيسة قد رفض هذا الازدواج في شخصية المسيح، إلا أنه سعى إلى التخلص من الصعوبة وكرّر القول صريحًا:

"إن الطبيعتين اللتين **اتحدتا معًا كونتا شخصًا واحدًا فقط**، كما أنّ الرجل والمرأة هما جسد واحد... فإذا أمعنا الفكر في الطبيعتين في تمايزهما يجب علينا أن نعرف طبيعة الكلمة على أنه كامل وتام، وكذلك شخصه. وأيضًا طبيعة وشخص الإنسان على أنها كاملة وتامة. وإذا -من ناحية أخرى- نظرنا إلى الاتصال *συναφεια* (سينافيا) نقول إنّه شخص واحد".[١٦٥]

إنَّ نفس صورة الوحدة بين الرجل وزوجته تبيِّن أن ثيودور لم يفترض اتحادًا حقيقيًا لطبيعتين في المسيح، ولكن تصوره كان لصلة خارجية بين الاثنين. علاوة على ذلك فإن التعبير "إتصال" *συναφεια – conjoining* (سينافيا) الذي يختاره هنا بدلًا من كلمة "اتحاد" *ενωσις – union* (إنوسيس) التي يستعملها في مواضع أخرى، مشتقة من الفعل *συναπτω* (سينابتو) (الراقصين المسكين بأيدي بعضهم البعض– أي يصل بعضهم بالبعض الآخر) تعبر فقط عن ارتباط خارجى، وتوطد معًا. لذلك فهو مرفوض بوضوح.. بواسطة علماء الكنيسة.

كما أن ثيودور قد عيّن مجرد صلة خارجية في العبارة التي اقتبسناها الآن:

"إنَّ الكلمة سكن في الإنسان المُتَخَذ كما في هيكل". وكما أن الهيكل والتمثال القائم بداخله هما واحد في المظهر الخارجى هكذا فإن اللاهوت والناسوت في المسيح يظهران من الخارج فقط في حقيقتهما كشخص واحد، ولكنهما في جوهرهما يستمرا شخصين".

---

[14]*Cf. Hefele, C.J., p. 6-7, quoting Hardouin and Mansi, ll. cc. § 29; Dorner, l.c. p.52.*

نسطور

من مدرسة ثيودور جاء نسطور، الذي ارتبطت باسمه الحقبة الأولى للنزاع الكرستولوجى الكبير. **ولد نسطور في جرمانيكيا وهيَ مدينة بسوريا**، ثمّ أتى إلى أنطاكيا في سن مبكرة، أساسًا بغرض نيل قسطًا أكبر من التعليم العالمى. وسريعًا ما تميز بالطلاقة العظمى في التحدث الارتجالى مع صوت قوى وشجى، وبعد ذلك بقليل إلتحق بدير *Euprepius* يوبريبيوس في أنطاكيا، ومن هناك عيّن شماسًا ثمّ قسيسًا في كاتدرائية أنطاكيا. ككاهن، وعظ كثيرًا وبقبول ملحوظ، مع تمتعه أيضًا بسمعة كونه ناسكًا صارمًا وكثيرًا ما أظهر حماسًا عظيمًا.. ورغبة في مدح الجموع له خاصة في عظاته.[١٦٦]

كنتيجة للشهرة التي نالها بعد موت الأسقف سيسينيوس أسقف القسطنطينيّة في ٢٤ ديسمبر عام ٤٢٧م فقد رُفع إلى هذا الكرسي الشهير، وترجّى شعبه أن ينالوا فيه خلفًا من أنطاكيا لذهبي الفم أسقف القسطنطينيّة. منذ وقت سيامته في ١٠ أبريل عام ٤٢٨م أظهر إعجابًا عظيمًا بعمل الوعظ وحماسًا ضد الهرطقات. ففى عظته الأولى خاطب الإمبراطور ثيؤدوسيوس الصغير بالكلمات التالية:

"أعطني أيها الإمبراطور الأرض نقية من الهراطقة وأنا سوف أعطيك السماء، ساعدني لأشن حربًا ضد الهرطقات وأنا سوف أساعدك في حربك ضد الفرس".[١٦٧]

وبعد ذلك بأيام قليلة صمّم على حرم الآريوسيّين من الكنيسة الصغيرة التي كانوا لا يزالون يمتلكونها في القسطنطينيّة، حتّى أنهم اقتيدوا إلى إشعال النار فيها بأنفسهم، والتي **بسببها نال نسطور من الهراطقة ومن كثير من الأرثوذكس لقب "حارق متعمّد"**. بالإضافة إلى ذلك فقد هاجم النوفاتيين والأربعتعشرية والمكدونيين ونال من الإمبراطور عديدًا من الأحكام المشدّدة ضد الهرطقات.

وفي رسالة.. ليوحنا أسقف أنطاكية، يؤكِّد نسطور أنّه في وقت وصوله إلى القسطنطينيّة **وجد خصومًا (متضادين) موجودين فعلًا. لقّب أحد أطرافهم القديسة العذراء بلقب "والدة الإله" وآخر بأنّها مجرد**

---

[166] *Cf. Hefele, C.J., quoting Socrat. Hist. Eccl. Lib, vii. C. 29; Theodoret. Haeret, Fabul. lib. iv. c. 12; Evargrius. Hist. Eccl. i. 7; Gennad. De Scrip. eccl. c. 53 Vincent. Lirin. c. 16.*
[167] *Cf. Hefele, C.J., quoting Socrat. Hist. Eccl. vii. 29.*

"والدة إنسان". وحتّى يتمّ التوسط بينهما قال إنه اقترح عبارة "والدة المسيح" معتقدًا أن كلا الطرفين سوف يرضى بها[168]... من ناحية أخرى فإن سقراط يقص أن:

"**الكاهن أنسطاسيوس** صديق نسطور، الذي أحضره معه إلى القسطنطينيّة قد حذَّر سامعيه يومًا ما، في عظة أنّه لا يجب أن يطلق أحد على مريم لقب والدة الإله *θεοτοκος* (ثيئوتوكوس) لأن مريم كانت إنسانة والله لا يمكن أن يولد من إنسان".[169]

هذا الهجوم على المعتقد القديم والمصطلح الكنسيّ المقبول حتّى ذلك الوقت، قد **سبب هياجًا عظيمًا وإضطرابًا وسط الإكليروس والعلمانيين**. وتقدّم نسطور نفسه ودافع عن خطاب صديقه في عدة عظات. وإتفق أحد الأطراف (المتضادة) معه، وعارضه الآخر...

وفقًا لهذا التقييم للأمر، فإنّ نسطور لم يجد النزاع قائمًا بالفعل في القسطنطينيّة، ولكنه مع صديقه أنسطاسيوس كانا أوّل من أثاره. ومع ذلك فإنّ العظات الموجودة لدينا، كما ذكرنا، والتي ألقاها في هذا الموضوع لا زالت محفوظة لنا جزئيًّا، وهيَ كافية بالتمام لدحض تأكيدات الكثيرين غير الدقيقة بأنّ نسطور في الواقع لم يعلّم شيئًا ذا سمة هرطوقيّة.

ففي خطبته الأولى هتف بعاطفة:

"إنّهم يسألون إن كان من الممكن أن تدعى مريم والدة الإله. لكن هل لله أم إذًا؟ في هذه الحالة يجب أن نعذر الوثنية التي تكلمت عن أمهّات للآلهة، لكن بولس لم يكن كاذبًا حينما قال عن لاهوت المسيح (عب٧: ٣) أنه بلا أب، بلا أم، بلا نسب. لا يا أصدقائى لم تحمل مريم الله.. المخلوق لم يحمل الخالق إنما حملت الإنسان الذي هو أداة اللاهوت. لم يضع الروح القدس الكلمة، لكنه أمد له من العذراء المطوبة، بهيكل حتّى يمكنه سكناه.. أنا أكرِّم هذه الحُلة التي استفاد منها من أجل ذاك الذي احتجب في داخلها ولم ينفصل عنها.. أنا أفرِّق الطبائع وأوحِّد

[168] *Cf. Hefele, C.J., quoting Mansi, t. v. p. 573; Hardouin, t.i.p. 1331.*
[169] *According to Cyril of Alexandria (Ep. vi. p. 30, Ep. ix. P.37, Opp.t.v.ed. Aubert; and in Mansi, t. iv. P. 1014).*

التوقير. تبصَّر في معنى هذا الكلام. فإن ذاك الذي تشكّل في رحم مريم لم يكن الله نفسه لكن الله إتخذه.. وبسبب ذاك الذي إتَّخَذَ فإن المُتَّخَذْ أيضًا يدعى الله".[١٧٠]

أمّا خطبته الثانية فتبدأ بتعبير لاذع ضد أسلافه، كما لو أنّه لم يكن لديهم الوقت لقيادة الناس نحو معرفة أعمق بالله. ومن هنا يتحوَّل ثانية إلى موضوعه الرئيسيّ أنّ المسيح له طبيعة مزدوجة وكرامة موحَّدة. فيقول:

"حينما تتكلم الأسفار المُقدّسة عن ميلاد المسيح أو موته فهيَ لا تدعوه الله أبدًا بل المسيح أو يسوع أو الرب... مريم إذًا يمكن أن تدعى خريستوتوكوس *Χριστοτοκος* (والدة المسيح) وحملت ابن الله بقدر ما حملت الإنسان، الذي بسبب اتحاده[†] بابن الله (بالمعنى الخاص) يمكن أن يدعى إبن الله (بالمعنى الأوسع). وبنفس الطريقة يمكن أن يقال أن إبن الله مات وليس أن الله مات.. إذن فلنحفظ اتصال الطبيعتين *φυσεων τηρωμεν συναφειαν* الغير مختلط ولنعترف بالله في الإنسان وبسبب هذا الإتصال الإلهى نوقر ونكرّم الإنسان المعبود مع الله الكلي القدرة".[١٧١]

فى خطابه الثالث يقول:

"إنَّ الآريوسيّين يضعون اللوغوس فقط تحت الآب لكن هؤلاء الناس (الذين يعلِّمون بالثيئوتوكوس *θεοτοκος* ويتكلمون عن ميلاد الله) يضعونه تحت مريم أيضًا، مؤكّدين أنه أحدث منها، ومعطين اللاهوت خالق الكل، أمًا زمنية كأصل له. إذًا لم يكن ذاك الذي حملته إنسانًا إنما الله الكلمة، إذًا لم تكن هيَ أم ذاك الذي ولد، لأنه كيف تكون هيَ أم ذاك الذي له طبيعة مختلفة عنها؟ لكن إن كانت تدعى أمه، إذًا فإن ذاك الذي ولد ليس ذو طبيعة إلهية، لكنه إنسان حيث أن كلّ أم تحمل من له نفس جوهرها (مادتها). لم يولد الله الكلمة إذًا من مريم، لكنه سكن في ذاك الذي ولد من مريم".

---

[170] *Cf. Hefele, C.J., pp. 12-13, quoting Marius Mercat. ed. Garnier-Migne, p. 757 sqq.*

[†] يقصد اتحاد في الكرامة وليس في الطبيعة كما سبق أن ذكر في خطابه الأول.

[171] *Cf. Hefele, C.J., quoting Loofs, Nestoriana, p. 249.*

وجد نسطور أنّه من اللازم إلقاء عظة ثانية للتو حتّى يحذّر، كما قال، من كانوا حاضرين ضد تقديم الإكرام الزائد لمريم، **وضد الرأي الذي يقول إنّ كلمة الله (اللوغوس) يمكن أن يولد مرتين (مرة أزليًّا من الآب والمرة الثانية من مريم)**. فقال (نسطور) إنّ ذاك الذي يقول ببساطة أنّ الله مولود من مريم يجعل من العقيدة المسيحيّة سخرة للوثنيّين، لأن الوثنيّون سوف يجاوبون:

"""لا استطيع أن أعبد إلهًا يولد ويموت ويدفن"... هل أقيم الكلمة من الأموات؟ وإذا كان معطي الحياة (اللوغوس) قد مات، من يمكنه أن يُعطي الحياة إذًا؟ إنَّ سرّ الإلوهة يجب أن يعبّر عنه بالأسلوب التالي: "إنَّ الكلمة الذي سكن في هيكل شكَّله (كوَّنه) الروح القدس هو شيء والهيكل نفسه المختلف عن الله الساكن فيه هو آخر"".[١٧٢]

ما بعد مجمع أفسّس

إعادة الوحدة عام ٤٣٣

لم ينه رحيل نسطور الخلاف، فقد **تحطمت أواصر الشركة بين روما والأسكندرية من جانب وأنطاكيا من الجانب الآخر**، فسعى الإمبراطور نفسه مستخدمًا سلطانه ونفوذه ليعيد السلام، وبالفعل حققت مساعيه النتائج المرجوة، وفي عام ٤٣٣م أرسل يوحنا الأنطاكيّ بولس أسقف حمص إلى الإسكندرية ومعه اعتراف بالإيمان (أي وثيقة تعلن إيمان يوحنا) **وقبله كيرلس، وأرسل إلى يوحنا رسالته المشهورة التي أعادت الوحدة**، والتي تضمنت جزءً من اعتراف يوحنا يؤكِّد وحدة شخص السيد المسيح والاستمرارية غير المختلطة وغير الممتزجة للاهوت والناسوت فيه.[١٧٣]

وورد في هذا النص ما يلي:

"**نعترف أن ربنا يسوع المسيح، ابن الله، الوحيد، هو إله كامل وإنسان كامل ذو نفس عاقلة وجسد، وهو مولود من الآب قبل الدهور بحسب لاهوته، وأنه هو نفسه في الأيام الأخيرة، من**

[172] *Cf. Hefele, C.J., quoting Marins Mercator, l.c., p.782.*

[173] *Samuel, V.C., The Council of Chalcedon Re-Examined, Senate of Serampore College, Madras, India, 1977, p. 8.*

أجلنا ومن أجل خلاصنا وُلد من مريم العذراء بحسب ناسوته، وهو نفسه، له الجوهر نفسه مع الآب، بحسب لاهوته، وله نفس الجوهر الذي لنا بحسب ناسوته. لأنه قد حدث اتحاد بين الطبيعتين. لأجل هذا نعترف بمسيح واحد، ابن واحد، رّبّ واحد. وبحسب هذا الفهم للاتحاد بدون اختلاط نعترف بأن العذراء القديسة هيَ "والدة الإله"، لأن الله الكلمة قد تجسّد وتأنس، ومنذ الحمل به اتحد الهيكل الذي أخذه منها، مع ذاته. ونحن نعرف أن اللاهوتيين ينسبون بعض أقوال البشيرين والرسل عن الرّبّ باعتبارها تشير بصفة عامة إلى شخص واحد، ويقسمون أقوالًا أخرى بأنها تشير إلى طبيعتين، فتلك التي تليق بالله ينسبوها إلى لاهوت المسيح، أما تلك الأقوال المتواضعة فينسبونها إلى ناسوته".[١٧٤]

تأزُّم الموقف[١٧٥]

لم تنجح إعادة الوحدة عام ٤٣٣م في تحقيق الاستقرار والوحدة الكاملة بين الجانبين. فالسكندريون (أي الجماعة المؤيّدة للقديس كيرلس) شعروا بأنّ كيرلس قدَّم تنازلات كثيرة للأنطاكيّين، أمَّا الأنطاكيّون فشعر بعضهم بالاستياء وعدم الرضى في شأن استبعاد نسطور وإدانته.

غير أن كيرلس كان قويًا ونافذ القول بقدر كاف لاحتواء أتباعه؛ وأرسل كثير من الرسائل إلى أصدقائه مثل أكاكيوس أسقف ميليتين وفاليريان أسقف إيقونية شارحًا كيف أن المصالحة مع يوحنا الأنطاكيّ لا تتعارض مع شرحه السابق للعقيدة في رسائله إلى نسطور، ولا مع عقيدة مجمع أفسّس.

أما بالنسبة للأنطاكيين، فلم يكونوا كلهم موافقين على إعادة العلاقات أو على الوحدة. وبالرغم من وجود رجال مثل يوحنا الأنطاكيّ وأكاكيوس أسقف حلب الذين قبلوا إعادة الوحدة وظلّوا مخلصين لمصطلحات الاتفاق الذي تمّ التوصل إليه سنة ٤٣٣م، إلا أنه كان هناك آخرون في الجانب الأنطاكيّ غير راغبين في الإذعان والخضوع للبطريرك الأنطاكي. وهؤلاء كانوا يمثلون إتجاهين:

---

[174] *St. Cyril of Alex, Letter to John of Antioch, The Fathers of The Church, C.U.A. Press, Washington D.C., Vol. 76, 1978, par. 3, p. 148-149.*

[175] *Samuel, V. C., The Council of Chalcedon Re-Examined, Senate of Serampore College, Madras, India, 1977, p. 11.*

١- من ناحية: كان هناك الكيليكيون المعارضين لكيرلس ولإعادة الوحدة.

٢- ومن الناحية الأخرى: كان هناك رجال مثل ثيودوريت أسقف قورش الذي لم يقبل إدانة نسطور.

وتدخّل الإمبراطور وخضع الكثير من هؤلاء الأساقفة، إلا أن خمس عشر منهم عاندوا فكان مصيرهم الخلع، وفي عام ٤٣٥م قبِل ثيودوريت إعادة الوحدة ولكن بدون إدانة نسطور، وهكذا لعب ثيودوريت أسقف قورش المجادل المقتدر دورًا فعالًا في الجدال الذي تلا إعادة الوحدة.

إعادة الوحدة تُفسَّر بطرق مختلفة[176]

تفاقم التوتر بين الجانبين لأن إعادة الوحدة لم تُفهم بمعنى واحد عند كلا الطرفين، **فالسكندريّون من جهتهم، نظروا إليها كأمر جعل الأنطاكيّين يقبلون مجمع سنة ٤٣١م** بدون أي شروط أو تحفظات، وكيرلس نفسه فهم الأمر بهذا المعنى وأوضح لمؤيديه عندما سألوه.[177] وهذه النظرة الكيرلسيّة –كما سنرى فيما بعد– أكّد عليها ساويرس الأنطاكيّ باقتدار في القرن السادس.[178]

وبالرغم من أنّ شرعية هذا الدفاع السكندريّ لا يمكن أن تُدحض، إلَّا إنّ ثيودوريت أسقف قورش ومؤيديه كانوا غير راغبين في التسليم والإقرار به، **ومضى ثيودوريت، من جهته، قدمًا في الاعتقاد بأنّ إعادة الوحدة سنة ٤٣٣م ألغت كلّ قرارات المجمع سنة ٤٣١م التي لم يقروها إقرارًا تامًا (إيجابيًّا)،** وبالتالي بذلوا قصارى جهدهم ليؤسّسوا ويقيموا لاهوتًا أنطاكيًّا قويًّا (أي متطرفًا) على أساس صيغة إعادة الوحدة (بحسب مفهومهم الخاص).

---

[176] *Ibid. p. 12-13.*

[177] عند هذه النقطة كتب ف. س. صمويل التعليق التالي: رسائل القديس كيرلس إلى أكاكيوس وفالريان وسكسينسوس تحمل شهادة قوية لهذه الحقيقة. فعلى سبيل المثال الرسالة إلى أكاكيوس توضح أن إعادة الوحدة كانت سعيًا لعودة السلام في الكنيسة
P.G. LXXVII ،184 A-B
أمّا بخصوص عبارة "طبيعتان" في صيغة الوحدة فقد قال القديس كيرلس أن الطبيعتان اللتان منهما تكوّن المسيح الواحد هما اثنان وأنّه في الاتحاد لم يكن هناك امتصاص ولا امتزاج ولا اختلاط بينهما. ولكن العبارة لا تحمل معنى الانفصال كما يؤكّد نسطور. ومع ذلك يقول كيرلس إنّه لم يستخدم هذه العبارة إنما الذي استخدمها هو يوحنا (*P.G. LXXVII 200C*).

[178] *Samuel, V. C., The Council of Chalcedon Re-Examined, Senate of Serampore College, Madras, India, 1977. p. 194.*

وجلّس الأنطاكيون (المتطرفون) أيضًا رجالًا من مؤيديهم في كراسي أسقفيّات هامّة، وكان هيباس واحد من هؤلاء وقد جُلّس على كرسي الرها في سنة ٤٣٥م. وقدّم الجانب الأنطاكيّ أيضًا تبريرات لأعماله هذه، فقد قالوا على سبيل المثال، **إنّهم لم يستطيعوا فهم العبارات السكندريّة التالية: إتحاد أقنوميّ، أقنوم واحد، طبيعة واحدة متجسِّدة لله الكلمة.** بل رأوا فيها معنى أبوليناريًّا، وقالوا إنّهم لم يقبلوا حرومات كيرلس.[179]

تغيُّر القيادة[180]

عندما كان البابا كيرلس السكندريّ والبطريرك يوحنا الأنطاكيّ على قيد الحياة كان هناك سلام بين الطرفين. ولكن البطريرك يوحنا تنيح عام ٤٤٢م وأعقبه البابا كيرلس في عام ٤٤٤م.

وبدأ ثيودوريت أسقف قورش يحاول أن ينشر الفكر النسطوريّ في الشرق وكتب كتابه المعنون *Eranistes* عام ٤٤٧م الذي قصد به تشويه تعليم آباء الإسكندرية، خاصة القديس كيرلس الكبير والسخرية منه. فأثار هذا الكثير من المعارضة حتّى صدر مرسوم إمبراطورى في ١٨ أبريل عام ٤٤٨م يحرم نسطور وكتاباته وأتباعه، وأمر ثيودوريت بالبقاء في كرسيه في قورش، وكذلك أثار هيباس أسقف الرها رد فعل عظيم بسبب رسالته إلى ماريس الفارسيّ ضد تعاليم القديس كيرلس الكبير.

الطريق إلى خلقيدونيّة

بعد انفضاض المجمع المسكوني الثالث ظهر أرشمندريت اسمه أوطيخا **رئيس أحد أديار القسطنطينيّة،** وكان من ألد اعداء نسطوريوس المبتدع. فلم يكتف بما حدّده المجمع في أفسّس ضد بدعته فتطرّف إلى القول بإنّ **ربنا يسوع المسيح مؤلّف من طبيعة واحدة وأنّ جسده غير مساوٍ لجسدنا في جوهره بما أنّه جسد إله وإنّ الطبيعة البشريّة ابتُلِعَت وتلاشت باتحادها مع الطبيعة الإلهيّة.**

---

[179] *Ibid., p. 11-13.*
[180] *Ibid .p. 13.*

ولإنّه كان رئيس دير أيوب في الربع (الحي) السابع من المدينة، لذا فقد كان يقود ٣٠٠ راهب لمدة تزيد عن الثلاثين عامًا، ومن خلال ابنه بالمعموديّة (الذي هو ابن أخيه) كريسافيوس *Chrysaphius* كبير موظفي البلاط الملكي استطاع أوطيخا الوصول إلى البلاط. وبينما كان المناخ الكنسيّ مُلبدًا بغيوم الخلاف بين الجانب السكندريّ ونظيره الأنطاكيّ، واجه أوطيخا مقاومة ومعارضة من الأنطاكيّين لأنّه كان متعصبًا جدًّا للسكندريّين، وهكذا زاد من حدة التوتر.[181]

وفي سنة ٤٤٨ **قدّم يوسابيوس أسقف دوريلاوس (دوريلوم) في فريجيّة إلى القسطنطينيّة ورفع شكواه على أوطيخا إلى فلافيانوس البطريرك القسطنطينيّ**. فجمع هذا مجمعًا من ٣١ أسقفًا و٣٢ أرشمندريتًا وبعد محاولات عديدة حضر أوطيخا إلى المجمع وسُئِل عن إيمانه فصدر الحكم بضلاله وتجديفه وجُرِّد من الكهنوت وقُطِع من الشركة وعُزِل من رئاسة الدير.

وقد زار يوسابيوس أسقف دوريليم أوطيخا[182] في ديره بالقسطنطينيّة مرات عدّة واكتشف أنّ عقيدته غير أرثوذكسيّة، إذ يعتقد بالامتزاج.

وسعى أوطيخا وأنصاره لدى الإمبراطور ثيودوسيوس الصغير فكتب هذا إلى البابا ليو الأوّل يطعن بالبطريرك فلافيانوس ومجمعه. فكتب البابا مستفسرًا ورد عليه الجواب فوافق على الحكم الذي أصدره مجمع فلافيانوس.

وأمر ثيودوسيوس بعقد مجمع ثان في القسطنطينيّة فعقد في نيسان سنة ٤٤٩ وأيّد حكم المجمع السابق

وكتب ليو رسالة مجمعيّة مسهبة تعرف باسم "طومس لاون" ثبت فيها تعليم فلافيانوس وضلال أوطيخا.

---

[181] *Cf. Samuel, V.C. pp. 14-15.*
[182] *Ibid p. 15.*

موقف كنيسة الإسكندريّة

شعر البابا ديسقوروس بخطورة انتشار أفكار ثيودوريت أسقف قورش، وإيباس أسقف الرُها في الشرق، تلك التي تهاجم عقيدة البابا كيرلس السكندريّ. وكذلك انتشار تعاليم ثيودور الموبسويستيّ ونسطور في كثير من المناطق في المشرق. وأمام اعتراف أوطيخا الخطيّ المخادع بأنّه:

"يرفض هؤلاء الذين يقولون إنّ جسد ربنا يسوع المسيح قد نزل من السماء... لأنّ ذاك الذي هو كلمة الله نزل من السماء بدون جسد وتجسّد من جسد العذراء نفسه بدون تغيير ولا تحويل وبطريقة عرفها هو نفسه وأرادها، وذاك الذي هو دومًا إله كامل قبل الدهور، صار أيضًا إنسانًا كاملًا في آخر الأيام من أجلنا ومن أجل خلاصنا".[183]

شعر البابا ديسقوروس أنّ فلافيان بطريرك القسطنطينيّة، ويوسابيوس أسقف دوريليم قد انضما إلى التيار النسطوريّ الموجود في الشرق حينما طُلِب من أوطيخا في مجمع القسطنطينيّة المكانيّ ٤٤٨م حرم كلّ من لا ينادي بطبيعتين من بعد الاتحاد.

مجمع أفسّس الثاني ٤٤٩م

لم يرق لثيودوسيوس حكم المجمع، فأصدر أمره بعقد مجمع مسكونيّ في أفسّس في السنة نفسها ٤٤٩، واستدعى ديوسقورس بطريرك الإسكندريّة نصير أوطيخا ليتولى رئاسة المجمع. وكتب ثيودوسيوس كذلك للبابا ليو بشأن هذا المجمع فأجاب البابا بإرسال نوّابه الأسقف يوليانوس والقس رينادوس والشماس إيلاريوس.

وبعد استعراض وقائع مجمع أفسّس الأوّل ٤٣١م، ومجمع القسطنطينيّة المكاني ٤٤٨م، وقراءة اعتراف أوطيخا المكتوب بالإيمان الأرثوذكسيّ قدّمه إلى المجمع مخادعًا. وبعد الاستماع إلى آراء الحاضرين؛ **حكم المجمع بإدانة وعزل فلافيان بطريرك القسطنطينيّة ويوسابيوس أسقف دوروليم وبتبرئة أوطيخا وإعادته إلى رتبته الكهنوتيّة. كما حكم المجمع بحرم وعزل كلّ من هيباس أسقف الرها**

[183] *Ibid p. 30-31, see Mansi VI, p. 744, quoted in Bettenson, Documents, pp. 48-49..*

وثيودوريت أسقف قورش وآخرين.[١٨٤] وحدّد المجمع أنّ ديودور الطرسوسيّ نسطوريّ.[١٨٥] ولم تُقرأ رسالة البابا ليو الأوّل إلى المجمع وهيَ المعروفة بطومس لاون.

وفي سنة ٤٥٠ توفي ثيودوسيوس الصغير فخلفته شقيقته الملكة بلخريا وتزوجت بقائد جيشها مركيانوس الحسن العبادة ليشاركها في إدارة المملكة. وأوّل عمل قامت به نقل جسد الشهيد فلافيانوس إلى كنيسة الرسل القديسين في القسطنطينيّة. واهتمّت بعقد مجمع مسكونيّ وكتبت في ذلك إلى البابا ليو فأجاب البابا مستحسنًا عملها وعيّن موفديه الأسقف يوليانوس والقس باسيليوس.

وجرت مكاتبات بين الملك مركيانوس والبابا ليو بهذا الشأن أسفرت عن صدور أمر الملك بعقد المجمع في مدينة نيقية التي عُقِد فيها المجمع الأوّل وبعث برسائل الدعوة إلى كلّ الأساقفة. ولكن الملك مركيانوس لم يتمكن من الذهاب إلى نيقية وأصيب بعض الأساقفة بأمراض، فصدر الأمر بنقل المجمع إلى خلقيدونيّة في جوار القسطنطينيّة. وبدأ اجتماعه هُناك يوم الأثنين في ٨ تشرين الأوّل ٤٥١ في كنيسة القديسة أوفيمية المعظمة في الشهيدات. وحضر المجمع مركيانوس والملكة بلخريا زوجته وكثيرون من أمراء الدولة.

مجمع خلقيدونية ٤٥١م

لم يقبل البابا ليو الأوّل نتائج مجمع أفسّس الثاني ٤٤٩م **ومنح الحلّ الكنسيّ لثيودوريت أسقف قورش** وأعاده إلى الشركة.[١٨٦]

وليقرّروا أنّه مورس عليهم ضغوط أو وقعوا على أوراق بيضاء أو أنّه قد تمّ التزوير في أوراق المجمع (*ὑπέγρψαν είς ἄγραφον χάρτην*).

الأمر الهام أنّه خلال المناقشة اعترف الباب ديسقورس بإصرار بطبيعتين في المسيح قبل الاتحاد وطبيعة واحدة بعد الاتحاد ولكنها (متجسّدة):

[184] *Cf. Samuel, V.C., pp. 29-35.*
[185] *Kelly, J.N.D., Early Christian Doctrines, Chapter XI Fourth Century Christology, A & C Black- London 1977, 5th Revised Edition, p. 302.*
[186] *Cf. Samuel, V.C., p. 69.*

"لا يمكن أن نعقل طبيعتين ولكن واحدة للكلمة المتجسِّد...أنا أقبل من طبيعتين بعد الاتحاد لا يوجد طبيعتان".

"ού δεί νοείν δύο φύσεις،άλλά μίαν φύσιν τού Λόγου σεσρκωμένην.....τό έκ δύο δέχομαι،τό δύο ού δέχομαι،τό δύο ού δέχομαι....Μετά τήν ένωσιν δύο φύσεις ούκ είσί".

حينها شرح يوسابيوس أسقف دوريليم وباسيليوس سيليفكياس وميلوفثونجوس اليوبوليتون وآخرين بأنّ في المسيح الواحد يوجد طبيعتين (طبيعتين في شخص واحد، ربّ واحد معروف في طبيعتين *(δύο φύσεις έν ένί προσώπω...ένας Κύριος.....έν δύο φύσεσι γνωριζόμενος)*.

فقال البابا ديسقورس إنّ هذه الأقوال (تمزيق وتشريح) *καινοτομίας* وذيوفيزيتية *δυοφημίας*، وأضاف أنّه بسبب هذه الأقوال تمّ حرمان -وعن حق- فلافيانوس في ٤٤٩، بينما قرّر المجمع أنّ فلافيانوس يتفق مع كيرلس الإسكندريّ.

وبالرغم من ذلك فإنّ البابا ديسقورس أظهر استعدادًا كبيرًا في أن يحكم على أوطيخا إذا ما ثبت أنّه يمتلك مفاهيم دوتوكية *(άντιλήψεις) δοκτικές* وأراد أن يبتعد عن مونوفيزيتيّة أوطيخا وأعلن أنه يقبل مثل كيرلس طبيعتين الرّبّ بغير اختلاط ولا تغيير ولا تمزيق

όπως ό Κύριλλος ότι δέχεται άσύγχυτες καί άτρεπτες τίς φύσεις τού Κύρίου ούτε σύγχυσιν،λέγομεν ούτε τροπήν،ούτε τομήν...

وقد نُوقش البابا ديسقوروس بشأن عقيدة أوطيخا الذي برأه مجمع أفسّس الثاني ٤٤٩م ؛ فقال:

"إذا كان أوطيخا يتمسّك بمفاهيم ترفضها عقائد الكنيسة، فهو يستحق ليس العقاب فقط بل حتّى النار (أي جهنم) أيضًا. ولكن اهتمامي إنّما هو بالإيمان الجامع الرسوليّ وليس بأي إنسان أيًا كان".[١٨٧]

وقال أيضًا في نفس الجلسة من المجمع الخلقيدونيّ:

"أنا أقبل عبارة من طبيعتين بعد الاتحاد".[١٨٨]

---

[187] *Ibid., p. 51.*
[188] *Ibid., p. 55.*

وهو في تأكيده على الطبيعة الواحدة المتجسّدة لله الكلمة أراد أن يثبت عدم التقسيم بين الطبيعتين من بعد الاتحاد، وفي قبوله لعبارة: "من طبيعتين بعد الاتحاد"، أراد أن يؤكّد ما أكّده القديس كيرلس الكبير عن استمرار وجود الطبيعتين في الاتحاد وعدم امتزاجهما أو اختلاطهما.

وكان أناطوليوس أسقف القسطنطينيّة قد أعلن في الجلسة الخامسة للمجمع أنّ:

"ديسقوروس لم يتم عزله بسبب عقيدته، إنما بسبب أنّه قد حرم لاون".[189]

وقد وافق الثلاثة عشر أسقفًا المصريين الذين حضروا مجمع خلقيدونية على حرم أوطيخا لكنهم رفضوا التوقيع على قرارات مجمع خلقيدونية أو طومس ليو أو عزل البابا ديسقوروس. "وقد أشاروا إلى أنهم لا يستطيعون التوقيع بدون التوافق مع رئيس أساقفتهم.. وأنهم لا يستطيعون التوقيع دون أن يكون رئيس أساقفتهم معهم...".[190] وحدثت اضطرابات كبيرة في الشرق بسبب قرارات مجمع خلقيدونية ومع تغيير الأباطرة كانت الظروف تتغير.

نص حكم عزل البابا ديسقوروس

" من المجمع المسكوني العظيم والمقدس، الذي بنعمة الله وبأمر من...... أباطرتنا، والمجتمِع في خلقيدونية... إلى ديسقوروس: بسبب **ازدراء القوانين المُقدّسة، واحتقارك لهذا المجمع المسكوني المقدس**، حيث ـ وبالإضافة **للتعديات الأخرى** التي أُدنت بسببها ـ قد رفضت أن تستجيب لثلاثة استدعاءات من هذا المجمع العظيم والمقدس، والتي قُدمت لك وفقًا للقوانين الإلهية لكي ترد على التهم الموجهة إليك: فلتعلم إذن، إنك في الاونم الثالث عشر من الشهر الحالي أكتوبر قد عُزلت بواسطة المجمع المسكوني والمقدس من أسقفيتك، وجُردت من كلّ رتبة كنسية".

[189] *Cf. Sellers, R.V. p. 119.*
[190] *Cf. Samuel, V.C., p. 75, see also Sellers, R.V., p. 114, and Hefele, C.J. p. 333, 334.*

ومن كلمات أناطوليوس يوم ٢٢ أكتوبر عندما قال إنّ السبب وراء إدانة البابا ديسقوروس لم يكن أمرًا متعلقًا بالإيمان وإنّما حقيقة "إنّه قد حرم السيد رئيس الأساقفة لاون"، ولم يذعن لاستدعاءات المجمع الثلاثة له.[١٩١]

وهكذا نجد أنّ البابا ديسقورس لم يُحكم عليه لأجل إيمانه، أو أنّ إيمانه كان مختلفًا عن إيمان الآباء، أو لكونه هرطوقيّ، بل فقط لأسباب إداريّة وسياسيّة بحتة.

بعد خلقيدونية

في ١٦ مارس ٤٥٧م **انتخب البابا تيموثاوس الثاني (الشهير بأوريلّوس) في الإسكندريّة خليفة للبابا ديسقوروس بعد وفاته وتمكن في عهد الإمبراطور "باسيليسكوس" من عقد مجمع عام آخر في أفسّس سنة ٤٧٥م (يلقبه البعض مجمع أفسّس الثالث) حضره ٥٠٠ أسقف. هذا المجمع حرم تعاليم أوطيخا وتعاليم نسطور ورفض مجمع خلقيدونيّة**. وقد وقّع على قرار هذا المجمع ٧٠٠ أسقف شرقي.[١٩٢]

ومن خلال هذا المجمع، أوضح موقف البابا تيموثاوس أن الجانب الرافض لمجمع خلقيدونية لم يكن بالضرورة أوطاخي المعتقد كما اتهمه، في أغلب الأحيان، الجانب الخلقيدوني.

الهينوتيكون ومحاولة إعادة الوحدة

ثمّ في عهد الإمبراطور زينون حدثت محاولة للوحدة على أساس وثيقة الهينوتيكون *Henotikon* الذي صدر في ٢٨ يوليو عام ٤٨٢م، والذي وقّع عليه على التوالى أكاكيوس بطريرك القسطنطينيّة، وبطرس منجوس بطريرك الإسكندرية، وبطرس القصار بطريرك أنطاكيا في عام ٤٨٤م ومارتيروس بطريرك أورشليم. ولم تشترك روما في التوقيع على هذه الوثيقة بل عقد بابا روما فيلكس الثالث مجمعًا وقطع من الشركة أكاكيوس بطريرك القسطنطينيّة. وفي مصر حدثت مقاومة شديدة وتكونت جماعة

---

[١٩١] ACO.، *pp. 320: 14* ،*i* ،*II*

[192] *Ibid. p. 101-105.*

"الذين بلا رئيس" *Acephlists* ولم يتمكن مرسوم الاتحاد *Henotikon* من الحفاظ على الوحدة التي بدأت بتوقيع بطاركة الكراسي الشرقيّة الأربعة.

الخريستولوجي السكندريّ

١- لاهوت كامل للمسيح

وهذا ما تحدثنا عنه بتفاصيل كثيرة في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

٢- بشريّة كاملة للمسيح

أي أنّ المسيح إنسان كامل، له عقل بشريّ، أي روح عاقلة، وله نفس وجسد حقيقيّ، لا ينتقص من جوهر إنسانيّته أي نقيصة، فهو ماثلنا في كلّ شيء، ما خلا الخطية وحدها. قال القديس أثناسيوس بوضوح إن:

"الجسد الذي كان الكلمة فيه (اتخذه الكلمة) **لم يكن مساويًا للاهوت في الجوهر**، ولكنه كان مولودًا بحق من مريم، بينما الكلمة نفسه لم يتغير إلى عظم ولحم لكنه أتى في جسد. لأن ما قاله يوحنا: " الكلمة صار جسدًا "[١٩٣] له هذا المعنى، كما يمكننا أن نرى في عبارة مشابهة، فبولس يكتب قائلًا: "المسيح.. صار لعنة لأجلنا".[١٩٤] وكما أنه هو نفسه لم يصر لعنة، ولكنه قيل أنه صار كذلك لأنه أخذ لنفسه اللعنة نيابةً عنا، وهكذا أيضًا صار جسدًا ليس بأن تغير إلى جسد، ولكن لأنه نيابة عنا أخذ جسدًا حيًا وصار إنسانًا".[١٩٥]

---

[٣] يو ١:١٤.

[٤] غل ٣:١٣.

[195] *Letter to Epictetus, par. 2, N. & P.N Fathers, Oct. 1987, Vol. IV, p.573.*

وقد كان القديس أثناسيوس أيضًا واضحًا في تعليمه عن الجسد الحى الذي اتخذه كلمة الله أنه يعني ناسوت كامل، أي جسد ونفس عاقلة معًا. وكتب يقول:

"لكن حقًا إن خلاصنا ليس ظاهرًا فحسب، كما أنه ليس ممتدًا إلى الجسد فقط، إنما الإنسان كله، الجسد والنفس على السواء، قد حصلا على الخلاص في الكلمة نفسه".[196] وقال أيضًا "أن نقول إنّ " الكلمة صار جسدًا"، يعادل قولنا إن "الكلمة صار إنسانًا"؛ كما جاء في يوئيل: "إني أسكب روحيّ على كلّ بشر"[197]؛ لأن الوعد لم يمتد إلى الحيوانات غير العاقلة، وإنما للبشر، الذين صار الرّبّ إنسانًا من أجلهم (لحسابهم)".[198]

من أهم التعاليم التي كان يشدّد عليها القديس كيرلس في فترة **ما قبل النزاع النسطوريّ هو التأكيد على كمال إنسانيّة المسيح.**

في رسالة موجهة من القديس كيرلس إلى مكسيميانوس أسقف القسطنطينيّة يؤكّد على كمال إنسانيّة المسيح قائلًا:

"...حيث أن كلمة الله الوحيد الجنس صار إنسانًا كاملًا مثلنا، **ليس باحتماله تحولًا أو تغييرًا أو اختلاطًا، كما يتكرّر كثيرًا، أو امتزاجًا، أو انتقالًا إلى ما لم يكن عليه، بل بالحرى ظل كما كان، أيضًا في إنسانيته التي هيَ مثلنا**".

ثم يستطرد مؤكدًا على وجود نفس إنسانيّة في المسيح رافضًا بكل صراحة تعاليم أبولليناريوس:

"ونحن نعترف أن جسده المتحد به حقًا كانت تحييه نفس عاقلة. لأننا لا نرضخ لآراء ذلك المجنون أبولليناريوس، ولكن لأننا نتمسك بالاعتقاد الحق فنحن نحرم أبولليناريوس وآريوس وأفينوميوس ومعهم نسطوريوس لأن عندنا الإيمان المُسلم لنا من فوق: "كمرساة للنفس مؤتمنة وثابتة" (عب٦:١٩) حسب الكتاب. وبناء على ذلك، فكما قلت: **نحن نعترف بالواحد والوحيد والابن الحقيقي لله الآب ربنا يسوع المسيح، عالمين أنه هو نفسه الله الكلمة من**

---

[196] *Ibid. par. 7 p. 572.*

[197] يوئيل ٢:٢٨.

[198] *Letter to Epictetus, par. 8, N. & P.N Fathers, Oct. 1987, Vol. IV, p.573.*

الآب والإنسان من امرأة، وهو في كرامة السيد حسب الطبيعة (الإلهية) وفي الهيئة العبد بسبب التدبير".

القديس كيرلس يوضح أن قول الكتاب " الكلمة صار جسدًا " (يو ١٤:١) يعني أنه اتحد بجسد ذي نفس عاقلة. فالكلمة اتخذ له جسدًا من مريم وجعله خاصة له ولذلك حمل ابن الإنسان وصار مثلنا:

"...**الكلمة الذي من الله الآب وحد بنفسه جسدًا حيًا بنفس عاقلة بطريقة تفوق الفهم وبكيفية لا يمكن التعبير عنها وجاء إنسانًا من امرأة إذ قد صار مثلنا ليس بتغير في طبيعته بل بالحرى بالمسرة الخاصة بتدبير تجسده، لأنه سرّ أن يصير إنسانًا دون أن يفقد ما هو عليه بالطبيعة كإله**". [١٩٩]

ويلاحظ أن القديس كيرلس يتبع اللاهوت الأسكندري في أن الإنسان مكون من عنصرين النفس والجسد، وهذا بخلاف التعليم الأنطاكي الذي يُعلِّم بأن الإنسان مركب من ثلاث عناصر: النفس والروح والجسد. وربما التجأ أبوليناريوس إلى التعليم الأنطاكي عندما أُدين لكي يُعلِّم بأن المسيح كان عبارة عن: لوغوس + روح + جسد. ولكن طبعًا في هذه الحالة كان الروح بمفهومه عبارة عن نفس غير عاقلة أي بدون عقل = نوس

٣– الاتحاد الحقيقيّ وتبادل الخواص

أي أنّ اتحاد اللاهوت بالناسوت، أو الكلمة الإلهيّ بالجسد المولود من مريم العذراء، اتحاد حقيقيّ وكامل، حتى قيل عن جسد المسيح أنّه جسد الله الخاص بحسب التعبير الكيرلسيّ. فبدون هذا الاتحاد نفقد المعنى الجوهريّ لخلاصنا. وليس بحسب الهرطقة النسطوريّة أنّ الله والجسد اثنان من بعد الاتحاد وليسا واحدًا، وهذا بالتبعية يؤثر على خلاص الجنس البشريّ الذي احتاج أن يتوحّد بالله في المسيح لينال الشفاء من مرض الخطية القاتل وسلاحها الفعَّال، أي الموت.

---

[١٩٩] إلى سوكينسوس رسالة ٥:٤٥. كما توجد في كتابات القديس كيرلس مواضع خاصة شدّد فيها على كمال إنسانيّة المسيح نذكرها على سبيل المثال لا الحصر ويمكن الرجوع إليها: "رسالة رقم (١) إلى الرهبان ١٥،٢٠،٢١؛ رسالة رقم (١١) إلى بوسيدونيوس:٥؛ رسالة رقم (٣٣) إلى أكاكيوس: ١٠؛ رسالة رقم (٤٠) إلى أكاكيوس: ٢٢، ٢٣".

وبالرغم من أن نسطور جاء لاحقًا للقديس أثناسيوس، إلاّ أن القديس أثناسيوس قدم تعليمًا صارمًا ضد هرطقة نسطور. فقد كتب:

"كيف يغامر أناسًا يُدعون مسيحيين مجرد أن يرتابوا فيما إذا كان الرّبّ الذي وُلِدَ من مريم، بينما هو ابن الله بالجوهر والطبيعة، هو "من نسل داود من جهة الجسد"[200]، ومن جسد القديسة مريم؟ أم من كان مجازفًا فيقول إنّ المسيح الذي تألم بالجسد وصُلب ليس ربًا ومخلصًا وإلهًا وابن الآب؟ أو كيف يستطيعون أن يتمنوا أن يُدعوا مسيحيين الذين يقولون إن الكلمة حلّ على رجل قديس كما على أحد الأنبياء، ولم يصر هو نفسه إنسانًا، آخذًا جسدًا من مريم؛ لكن إن المسيح هو شخص واحد، بينما كلمة الله، الذي كان قبل مريم وقبل الدهور ابنًا للآب، هو آخر؟ أم كيف يُدعون مسيحيين أولئك الذين يقولون إن الابن واحد وكلمة الله آخر؟ "[201]، كتب أيضًا أن: "كلمة الله جاء في شخصه هو نفسه، لأنه هو وحده صورة الآب، الذي يقدر أن يعيد خلقة الإنسان الذي عُمل على صورته".[202]

لقد رفض القديس أثناسيوس أي فصل بين لاهوت وناسوت ربنا يسوع المسيح. وكتب قائلًا:

"الآخرين الذين قسموا غير المنقسم ينكرون حقيقة أن "الكلمة صار جسدًا وحل بيننا"[203]".[204]

وكتب أيضًا:

"نحن لا نعبد مخلوقًا. ليبعد هذا التفكير، لأن مثل هذا الخطأ يخص الوثنيين والآريوسيّين. ولكننا نعبد ربّ الخليقة، المتجسد، كلمة الله. لأنه وإن كان الجسد أيضًا في ذاته هو جزء من العالم المخلوق، إلاّ أنه صار جسد الله. لهذا نحن لا نقسم الجسد عن الكلمة، لنعبده في ذاته، كما أننا عندما نرغب في عبادة الكلمة نحن لا نفرده (نعزله) بعيدًا عن الجسد، ولكن كما ذكرنا سابقًا، إننا في معرفتنا، أن " الكلمة صار جسدًا " نحن ندركه أنه الله أيضًا، بعدما صار جسدًا.

---

[200] رو ١:٢.

[201] *Letter to Epictetus, par. 2, N. & P.N Fathers, Oct. 1987, Vol. IV, p.571.*

[202] *On the Incarnation, Chap. III, par. 13, SVS Press, 1982, p. 41.*

[203] يو ١٤:١.

[204] *Letter to Adelphius, par. 2, N. & P.N. Fathers, Oct. 1987, Vol. IV, p. 575.*

وبالتالى من هو فاقد الشعور هذا الذي يقول لله: " أترك الجسد حتّى استطيع أن أعبدك " أو غير التقى لينضم إلى اليهود فاقدى الشعور في قولهم، بخصوص الجسد، " فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهًا؟ "[٢٠٥] أما الأبرص فلم يكن من هذا النوع لأنه سجد لله في الجسد، وأدرك أنه كان الله قائلًا: " يا سيد إن أردت تقدر أن تطهرني"[٢٠٦]"".[٢٠٧]

شرح القديس أثناسيوس كيف أن كلمة الله جعل خصائص الجسد خاصة به وكتب:

"إنّ الكلمة غير المادى جعل خصائص الجسد خاصة به، حيث إنه جسده الخاص به. لماذا، عندما ضرب الجسد بواسطة أحد الخدام، فلأنه هو الذي تألم، سأل: " لماذا تضربنى؟ "[٢٠٨] وبالرغم من كونه بالطبيعة غير محسوس، إلاّ أن الكلمة قال: " بذلك ظهرى للضاربين وخدى للناتفين، وجهى لم استر عن العار والبصق ".[٢٠٩] لأن ما تألم به الجسد البشرى للكلمة، هذا نسبه الكلمة الساكن في الجسد إلى نفسه... وإنه لعجيب بالحقيقة أنه هو الذي تألم مع أنه لم يتألم. تألم لأن جسده الخاص تألم؛ ولم يتألم لأن الكلمة بما أنه بالطبيعة هو الله، فهو غير قابل للألم".[٢١٠]

٤- وقوع الآلام والموت على الكلمة

الكلمة (اللوجوس الإلهيّ) في لاهوته، طبيعته غير قابلة للتألُّم، فأخذ جسدًا ليصبح جسد الكلمة الخاص، وبه يُوحِّد البشريّة في ذاته، ويتألم بهم ويموت ليقيمهم معه ويصعد وطبيعتنا فيه. فالآلام التي وقعت على جسد الله الخاص، شعرب بها، ونستطيع بحسب الآباء السكندريّين أن نقول تألم بها الله، ليس لأنّ اللاهوت في طبيعته يتألَّم، بل لأنّ جسده الخاص المتحد به اتحاد حقيقيّ وكامل قد تألّم، فشعر به اللاهوت أيضًا لأجل الاتحاد. فيقول **أثناسيوس الرسوليّ**:

---

[١٨] يو ١٠:٢٣.

[١٩] مت ٨:٢.

[207] *Letter to Adelphius, par. 3, N. & P.N. Fathers, Oct. 1987, Vol. IV, p. 575.*

[٢١] يو ١٨:٢٣.

[٢٢] إش ٥٠:٦.

[210] *Letter to Epictetus, par. 6, N. & P.N. Fathers, Oct. 1987, Vol. IV, p. 572, 573.*

"ومن الغريب، أنّ الكلمة نفسه كان متألّمًا وغير متألم، فمن ناحية، كان (الكلمة) يتألم لأن جسده هو الذي كان يتألم وكان هو المتألم فيه، ومن الناحية الأخرى، لم يكن الكلمة يتألم، لأن الكلمة ـ إذ هو إله بالطبيعة ـ فهو لا يقبل التألم. وكان الكلمة غير الجسدي موجودًا في الجسد الذي يتألم، وكان الجسد يحوى فيه الكلمة غير المتألم الذي كان يبيد العلل التي قبلها في جسده. وكان يصنع هذا، وهكذا كان يصير، لكي بعد أن يأخذ ما لنا (أي الجسد) ويقدّمه كذبيحة، يقضي على (العلّل والضعفات) كلّها. وهكذا يلبسنا ما له، وهذا ما يجعل الرسول يقول: '*لأن هذا الفاسد لا بد أنّ يلبس عدم فساد، وهذا المائت يلبس عدم موت*' (١كو١٥: ٥٣).[٢١١] لأن ما تألم به هذا الجسد (جسد الكلمة) يُعتبر أنّ الكلمة قد تألم به".[٢١٢]

ويضيف **المطوَّب أمبرسيوس**:

"وهكذا فإنّ الرسول بولس يقول: *لأنهم صلبوا جسد المسيح* (غلا٥: ٢٤)،[٢١٣] ويقول القديس بطرس أيضًا: إذ *قد تألم المسيح.. بالجسد* (١بط ٤: ١). لذلك فالجسد هو الذي تألم، بينما اللاهوت هو فوق في أمان مِن الموت، وقد خضع جسده للألم بحسب طبيعة البشر. هل يمكن للاهوت أنّ يموت بينما النفس لا تموت؟ يقول ربنا: *لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدرون أنّ يقتلوها* (مت ١٠: ٢٨). فإنّ كانت النفس لا يمكن أنّ تُقتل، فكيف يمكن أنّ يموت اللاهوت؟ إذًا، فعندما نقرأ أنّ رب المجد قد صُلِبَ، فعلينا ألاّ نفترض أنه قد صُلِبَ كما في مجده،[٢١٤] ولكن لأن الذي هو الله هو أيضًا إنسانٌ، إله بحسب لاهوته، وباتخاذه الجسد لنفسه هو: الإنسان يسوع المسيح؛ لذلك يُقال إنّ رب المجد قد صُلِبَ، لأنه بامتلاكه الطبيعتين البشرية والإلهية، فإنه احتمل الآلام في بشريته، حتّى يمكننا القول أنّ الذي تألم

---

[٢١١] المسيح في رسائل القديس أثناسيوس، مرجع سابق. ص ٤١، ٤٢.

[٢١٢] المرجع السابق. ص ٤٧.

[٢١٣] يستخدم القديس أمبروسيوس هنا معنى للنص الأصلي مُلفت للنظر حيث يقول النص: "ولكن الذين هم للمسيح قد صلبوا الجسد".

[٢١٤] انظر: ١كو ٢: ٨.

يُدعى رب المجد وابن الإنسان معًا في نفس الوقت بغير تمييز بينهما، كما هو مكتوب: *الذي نزل من السماء* (يو ٣: ١٣)".[٢١٥]

إذ أخذ نفسًا وجسدًا إنسانيًّا لم تحدث إضافة إلى عدد الأقانيم، إذ بقيَّ الثالوث كما هو قبلا. وذلك كما أنه في كلّ إنسان فيما عدا ذاك الذي وحده أخذ **اتحادًا أقنوميًا، فإنّ** النفس والجسد يمثلان شخصًا واحدًا، هكذا في المسيح الكلمة ونفسه البشرية وجسده يمثلون شخصًا واحدًا. وكما أنّ اسم ''الفيلسوف'' كمثال يُعطي لإنسان بالتأكيد بخصوص نفسه وحدها، إلاَّ إنّه لا يُحسب سخافة، بل هو أمر عادي ولائق في اللغة، أن نقول بإنّ الفيلسوف قُتل، الفيلسوف مات، الفيلسوف دفن، مع أنّ هذه الأحداث جميعها تسقط على جسده وليس على العنصر الخاص به كفيلسوف، هكذا بنفس الطريقة اسم الله أو ابن الله أو رب المجد، أو أيّ اسم آخر يُعطي للمسيح بكونه الكلمة، ومع هذا فإنّه من الصواب القول بان الله صُلِب، إذ لا مجال للتساؤل في أنّه احتمل هذا الموت في طبيعته البشريّة وليس في تلك التي بها هو رب المجد.

وبحسب القديس كيرلس السكندري فإنّ الآلام تخص التدبير. والله الكلمة جعل ما يخص جسده يخصه هو نفسه بسبب الاتحاد الفائق الوصف. لكنه ظل فوق الآلام حسب مقتضى طبيعته لأن الله لايتألم. ولاغرابة فيما نقول، لأن نفس الإنسان تظل فوق الآلام عندما يتألم جسدها. ونحن لا نعتبر النفس بعيدة عن الآلام، أو أنّ الآلام عندما تحدث للجسد لاتخص النفس.. لأن الجسد الذي يتألم هو جسدها. وعندما يتألم الجسد فالنفس المتحدة به وهي من طبيعة بسيطة غير مادية لا تظل بعيدة عن الألم، لأن الجسد الذي يتألم ليس غريبًا عنها بالمرة. هكذا يمكننا أنّ نفهم آلام المسيح مخلّصنا كلنا.[٢١٦]

[٢١٥] شرح الإيمان المسيحيّ. للقديس أمبروسيوس أسقف ميلان. الجزء الأوّل الكتاب الثاني. ترجمة د/ نصحي عبد الشهيد. إصدار المركز الأرثوذكسيّ للدراسات الآبائية. ص ١٠٩.

[٢١٦] تجسد الابن الوحيد. مرجع سابق. فقره ٣٦.

ويكمل أيضًا **القديس كيرلس** قائلاً:

"إنَّ الكلمة يعطي جسده من صفاته، حتّى يُمكننا أنّ نقول بسبب الاتحاد إنه (الجسد) نزل من السماء، لأنه (الكلمة) عندما اتحد به جعله واحدًا معه،[٢١٧] ولاحظ أنه عندما يُذبَح العصفور الأوّل (في طقس الذبائح في العهد القديم) يُغمَس العصفور الثاني في دم الأوّل دون أنّ يموت. ما معنى هذا؟ أنّ الكلمة حي وأن مات جسده، وبسبب الاتحاد اشترك هو في الآلام لأن الجسد الذي تألم هو جسده هو وهو الواحد بعينه، اقتبل هو نفسه الآلام دون أنّ يتألم (في) طبيعته[٢١٨]. ويستمر قائلاً: وإنه بسبب اتحاده بالجسد تألم بكلّ الإهانات، لكنه احتفظ بما له من عدم الألم لأنه ليس إنسانًا فقط بل هو نفسه الله. وكما أنّ الجسد هو جسده هكذا آلام الجسد ورغباته غير الدنسة وكلّ الإهانات التي وجهها البعض، كلّ هذا احتمله هو لأنه كان موجهًا إلى جسده الخاص به. لقد تألم دون أنّ يتألم".[٢١٩]

٥- جسد المسيح مخلوق

وقد أنكر أيضًا القديس أثناسيوس أن ناسوت ربنا يسوع المسيح كان موجودًا قبل تجسّد الكلمة من العذراء القديسة. وكتب قائلًا:

"كلهم سوف يدينون أنفسهم بحق، أولئك الذين ظنوا أن الجسد الذي أُخذ من مريم كان موجودًا قبلها، وان الكلمة كانت له نفس بشرية قبلها (مريم)، كان كائنًا فيها (النفس البشرية) دائمًا حتّى قبل مجيئه".[٢٢٠]

[٢١٧] يعود القديس كيرلس إلى ذات العبارة مرة أخرى: جعله واحدًا مع لاهوته "ليؤكد أنّ الاتحاد تام وكامل حتّى أنّ ابن الإنسان يمكنه أنّ يقول انني نزلت من فوق أو من السماء، لأن المتحدث هو يسوع المسيح الواحد الذي يمكنه أنّ يوصف نفسه—كواحد غير منقسم— كسمائي وابن الله وابن الإنسان.

[٢١٨] تجسد الابن الوحيد. مرجع سابق. فقره ٣٦.

[٢١٩] المرجع السابق. فقره ٣٧.

[٩] نفس الشاهد السابق.

٦- الجسد خلص من وقت الحبل به

ومن ناحية أخرى فقد شرح القديس أثناسيوس **كيف أن جسد ربنا يسوع المسيح تمجد فوق خصائصه الخاصة التي للطبيعة**. وكتب يقول:

"ولكن بما أن الجسد في نفسه هو من طبيعة مائتة، فقد قام مرة أخرى بواسطة ما يفوق طبيعته الخاصة بسبب الكلمة الذي كان فيه؛ وقُطع عن الفساد الطبيعي، وبلبسه الكلمة الذي هو فوق الإنسان، صار غير قابل للفساد".[٢٢١]

٧- لقب والدة الإله

توجد نقطة هامة أثارت القديس كيرلس عندما أتت إليه جماعة من الرهبان بمناسبة عيد القيامة لسنة ٤٢٩م وعرضوا عليه موضوع عظات نسطوريوس والتي هاجم فيها تلقيب مريم العذراء ب " والدة الإله "، وعندئذ إنتهز القديس كيرلس الفرصة وكتب لهم خطابًا عقائديًا مطولًا محذرًا إياهم من قبول التعاليم التي تنكر أن العذراء مريم هيَ "والدة الإله" ثمّ شرح لهم في هذه الرسالة عملية التجسد مستندًا إلى تعاليم الكتاب المقدس وتعاليم المجمع المقدس العظيم لكي يبرهن لهم على تجسّد كلمة الله وكيف أنه صار جسدًا مولودًا من العذراء مريم ولذلك تلقب العذراء"بوالدة الإله". وهذا لا يعني أن مريم هيَ مصدر وأصل الكلمة بل هيَ أم الكلمة المتجسد.

لكن لماذا أَصرَّ القديس كيرلس على استخدام لقب "والدة الإله"؟

إن نسطوريوس أراد التمييز والفصل بين الطبيعتين لذلك كان يرفض عملية الاتحاد بين الطبيعتين واستخدم في ذلك الكلمة اليونانية (سينافيا) والتي تعني الاتصال أو الاقتران، ولذلك أراد أن يُلقب العذراء مريم " بأم المسيح " أو " أم الإنسان ". وفي هذا أراد نسطور أن يعلم بأن مريم لم تلد الله بل ولدت الإنسان الذي حل فيه الكلمة، وهنا نلاحظ فصل تام بين الطبيعتين. لذلك كتب له القديس كيرلس الآتي:

[221] *Ibid. par. 10, p. 574.*

"..فرغم أن له (أي الكلمة) وجودًا قبل الدهور وقد وُلد من الآب، **فإنه يُقال أيضًا أنه وُلد حسب الجسد من امرأة،**

كما أن طبيعته الإلهية لا تحتاج لنفسها بالضرورة إلى ولادة أخرى بعد الولادة من الآب. إن القول بأن ذلك الذي هو موجود قبل كلّ الدهور وهو أزلي مع الآب، يحتاج إلى بداية ثانية لكي يوجد، إنما هو أمر بلا غاية وفي نفس الوقت هو قول أحمق.

ولكن حيث إنه من أجلنا ومن أجل خلاصنا وَّحد الطبيعة البشرية بنفسه أقنوميًا، وولد من امرأة، فإنه بهذه الطريقة يُقال أنه قد وُلد جسديًا،

لأنه لم يولد أولًا إنسانًا عاديًا من العذراء القديسة ثمّ بعد ذلك حل عليه الكلمة،

بل إذ قد اتحد بالجسد الذي من أحشائها، فيُقال أن الكلمة قد قَبِلَ الولادة الجسدية، لكي يُنسب إلى نفسه ولادة جسده الخاص..

إنه اتخذ دمًا ولحمًا مثلنا، إنه جعل جسدنا خاصًا به، وولد إنسانًا من امرأة بدون أن يفقد لاهوته ولا كونه مولودًا من الله الآب، ولكن في اتخاذه جسدًا ظل كما هو..

وهكذا نجد أن الآباء القديسين قد فكروا بهذه الطريقة. وهكذا لم يترددوا كثيرًا في تسمية العذراء القديسة بوالدة الإله".

القديس كيرلس في استخدامه للقب " والدة الإله " للقديسة مريم العذراء يؤكّد أن **هذا التعبير مُنح لها بسبب إتحاد اللاهوت بالناسوت في بطنها.** وإن رفض هذا التعبير هو **هدم لسر التجسد** ففى رسالته إلى رهبان مصر يكتب قائلًا:

"وعلى ذلك فإن اسم المسيح يجب أن يُطلق ليس فقط وبوجه خاص على عمانوئيل كما قلت بل أيضًا على كلّ الباقين الذين يمسحون بنعمة الروح القدس... ما هو إذن الذي يراه أحد أمرًا غير عادى في العذراء القديسة بالمقارنة بالنساء الأخريات، حتّى ولو قيل أنها ولدت عمانوئيل، **لأنه لن يكون أمرًا غير لائق إن أختار أحد أن يدعو والدة كلّ واحد من الممسوحين باسم: "والدة المسيح".**

ولكنه توجد هوة كبيرة واختلافات لا تقارن تفصل بين حالتنا وبين مجد وتفوق مخلصنا. لأننا نحن عبيده أما هو فحسب الطبيعة رّبّ وإله، حتّى وإن كان ـ قد صار معنا وأخذ مالنا بحسب تدبير (التجسد)... وعلى ذلك فإن جميع الآخرين، كما قلت، هم مسحاء، وهذا معقول جدًا، بسبب أنهم قد مُسحوا، أما المسيح وحده فهو الإله الحقيقى، عمانوئيل. وفي الحقيقة فإن أحدًا لا يخطيء إن اختار أن يقول إنّ أمهات الآخرين هم " والدات مسيح "، ولكن ليسوا بأى حال "والدات إله" أيضًا. إن العذراء القديسة وحدها، بالمقابلة مع أولئك النساء، هيَ ـ كما ندركها وندعوها والدة المسيح ووالدة الإله معًا. لأنها لم تلد مجرد إنسان بسيط مثلنا، بل بالحرى الكلمة الذي من الله الآب، الذي تجسّد وتأنس، لأننا نحن أيضًا ندعى آلهة بحسب النعمة، أما الابن فليس إلهًا على هذا النحو، بل بالحرى هو إله بالطبيعة وبالحق، حتّى وإن كان قد صار جسدًا".

ولكي يشرح القديس كيرلس مفهوم لقب" والدة الإله " لمريم العذراء يقول:

"..ومع ذلك فحتى لو كانت هؤلاء النساء هن فقط أمهات للأجساد التي على الأرض، إلاّ أنهن يلدن الكائن الحي كله، وأنا أعني كائنًا مكونًا من جسد ونفس، ولا يُقال عنهن أنهن يلدن جزءً من الكائن.. وعلى ذلك فإنه من الواضح حقًا أن الكلمة لا يُدعي المسيح خارجًا عن الجسد، وكما لو كان منفصلًا عنه. إن مثل هذا الاسم هو مناسب له حينما صار إنسانًا، ويمكننا أن نبرهن على ذلك من الكتب المُقدّسة نفسها، فنبين أنه هو الله حسب الطبيعة، وأن لاهوته قد اتحد، كما قلت بجسده الخاص، وحينما تصير هذه الحقيقة واضحة، فإن العذراء القديسة تُدعي منا والدة الإله".

لقد وُجهت اعتراضات للقديس كيرلس على تمسكه الشديد بلقب " والدة الإله " للعذراء مريم، حيث إنه لم يذكر صراحة في الكتاب المقدس ولا في قانون مجمع نيقية. ولكن المعلم الحاذق المُلهم من الله استطاع أن يتغلب على هذه الصعوبات باقتباسه من الكتاب المقدس قول اليصابات للعذراء مريم: "فمن أين لي هذا أن تأتي أم ربي إليَّ" (لو ١:٤٣) وكذلك في شرحه لمفهوم "الكلمة صار جسدًا"، قال بإنّ

الكلمة حل في بطن القديسة مريم العذراء وهي التي ولدت الكلمة الذي كان في أحشائها. كما أن القديس كيرلس اعترف بأن قانون إيمان نيقية لم يذكر إطلاقًا " والدة الإله " لمريم العذراء ولكنه اعتمد على أقوال معلميه السابقين من آباء مدرسة الأسكندرية الذين كانوا ينسبون دائمًا هذا اللقب لمريم العذراء أمثال أوريجينوس في تفسيره لرسالة بولس الرسول لأهل رومية، البابا ألكسندروس رئيس أساقفة الأسكندرية، القديس أثناسيوس الرسولي في الرد على الآريوسيّة.

إن تشديد القديس كيرلس على إتحاد الطبيعتين في المسيح الواحد يوضح لنا فهمه الصحيح لتجسد الابن الوحيد لأنه من خلال هذه الوحدة يقول القديس كيرلس بمفهوم روحيّ فائق:

"لإنّه كواحد منّا رغم أنّه لم يعرف الموت، نزل إلى الموت، بواسطة جسده الخاص، لكي نصعد نحن أيضًا معه إلى الحياة. لأنّه عاد إلى الحياة ثانية، سالبًا الجحيم، ليس كإنسان منّا، بل كالإله في الجسد بيننا وفوقنا. إنّ طبيعتنا اغتنت جدًّا بالخلود، فيه هو أولًا، وسُحِق الموت حتمًا حينما هجم العدو على جسد الحياة. لإنّه كما أنّ الموت قد انتصر في آدم هكذا أيضًا قد انهزم في المسيح. والمرنم الموحى له، كرس ترانيم النصر له في صعوده لحسابنا ولأجلنا، إلى الله الآب في السموات، لكي تظهر السماء أنها يمكن الوصول إليها بالنسبة لأولئك الذين على الأرض".

لقد صارت تعاليم القديس كيرلس عن الرّبّ يسوع هيَ تسابيح الكنيسة القبطية التي تردّدها في كلّ طقوس الكنيسة وليتورجياتها إلى مدى الأجيال.

٨- مفهوم اتحاد الطبائع

والسؤال الآن هو: كيف شرح القديس كيرلس عملية الاتحاد بين الطبيعتين؟

الإجابة على هذا السؤال توجد في رسالة القديس كيرلس إلى سوكينسوس أسقف ديو قيصرية حيث يوضح أن عملية الاتحاد تمّت بين اللاهوت والناسوت في لحظة الحبل الإلهي، بمعنى أن كلمة الله اتحد بالجنين الذي تكون في بطن العذراء القديسة مريم. وإن هذا الجنين الذي سيصبح جسد المسيح الخاص (بحسب تعبير القديس كيرلس) لم يوجد بأى طريقة من الطرق وحيدًا منفردًا أو منفصلًا عن الكلمة (اللوغوس). فالكلمة هيأ له جسدًا في بطن العذراء مريم ولم يصنع له جسدًا خاصًا أو هيأ له جسدًا من

جوهر لاهوته أو من مادة أخرى تختلف عن المادة التي يتكون منها الجنس البشرى. بل إن جسده الذي أخذه من بطن أمه العذراء مريم أصبح جسد الكلمة المتجسد. وبناء على ذلك يقول القديس كيرلس إن الذي وُلد من القديسة مريم العذراء، ليس إنسانًا عاديًا، بل كلمة الله المتأنس لأن الذي وُلد من القديسة العذراء مريم لم يكن أولًا إنسانًا عاديًا ثمّ حلّ عليه بعد ذلك الكلمة، لكن بسبب اتحاده منذ الحبل به لذلك ولِدَ ولادة جسدية. وفي هذا يقول القديس كيرلس في رسالته إلى يوحنا الأنطاكي:

"..لأجل هذا نعترف بمسيح واحد، ابن واحد، رّبّ واحد. وبحسب هذا الفهم للاتحاد بدون اختلاط نعترف بأن العذراء القديسة هيَ والدة الإله، لأن الله الكلمة قد تجسّد وتأنس، ومنذ ذات الحمل به وحّدَ الهيكل الذي أخذه منها، مع ذاته".

ولكي يبيّن القديس كيرلس أنّ الاتحاد قد تمّ فعلًا بين الطبيعتين برغم اختلافهما في الجوهر قال: إن الطبيعتين اللتين اقتربتا لتكوين وحدة حقيقية، مختلفتان ولكن من الاثنين نتج ابن واحد ومسيح واحد. وهذا لا يعني أن الفرق بين الطبيعتين قد زال أو تلاشى بسبب الاتحاد. وفي رسالته إلى يوحنا الأنطاكي كتب يقول:

"ولذلك فإنّنا نعترف أن ربنا يسوع المسيح، ابن الله، الوحيد، هو إله كامل وإنسان كامل ذو نفس عاقلة وجسد، وهو مولود من الآب قبل الدهور بحسب لاهوته، وإنه هو نفسه في الأيام الأخيرة من أجلنا ومن أجل خلاصنا وُلد من مريم العذراء بحسب الناسوت، وهو نفسه، من الجوهر نفسه الذي للآب، حسب لاهوته، ومن نفس الجوهر الذي لنا بحسب ناسوته. لأنه قد حدث اتحاد بين الطبيعتين. لأجل هذا نعترف بمسيح واحد ابن واحد، ورب واحد".

الملاحظ هنا أن القديس كيرلس استخدم تعبير المساواة في الجوهر للآب. والمساواة في الجوهر لنا بالنسبة لطبيعته البشرية، وقد سبقه في هذا الاستخدام العلامة ديديموس الضرير الذي رُبّما يكون كيرلس قد قرا له، حيث إن ديديموس كان سابقًا لكيرلس في إيضاح مفهوم الاتحاد بين الطبيعتين في المسيح يسوع.

وقد استخدم القديس كيرلس الاصطلاح الاتحاد (إنوسيس) لكي يشرح مفهوم الوحدة بين الطبيعتين لن هذا الاصطلاح يعني الآتي:

١ ـ لا يُعبّر عن وجود علاقة خارجية عن طريق سكن الكلمة في الناسوت، أو مجرد لبس ثوب، أو السكن في هيكل، بل يعبّر هذا الاصطلاح عن إتحاد الكلمة بالجسد إتحادًا قويًا عميقًا بطريقة تفوق كلّ وصف وإدراك، وهذا الاتحاد لا يعرف الفصل أو التقسيم، لأن الكلمة صار جسدًا، فإنه فيه يحلّ كلّ ملء اللاهوت جسديًا (كو٢:٩).

٢ ـ هذا الاصطلاح يعني أن هذه الوحدة التي تمت بين الطبيعتين، كانت قوية وعميقة لدرجة أنه استخدم تعبيرًا مُستعارًا رُبّما من أثناسيوس "طبيعة واحدة لكلمة الله المتجسد ".

٣ ـ الاصطلاح " إنوسيس" يعني أن الكلمة لم يتحول إلى جسد، بل إنه إتحد بالجسد الذي لا يمكن أن ينفصل عنه بعد الاتحاد.

٤ ـ الاصطلاح يعني أيضًا عدم الاندماج أو الاختلاط أو الامتزاج بين الطبائع المتحدة. فبالرغم من هذا الاتحاد القوى فإن الكلمة يظل كلمة والجسد يظل جسدًا.

ولكي يوضِّح القديس كيرلس عملية الاتحاد بين الطبيعتين قدَّم مجموعة من الأمثلة كالتالي:

أ ـ مثل الروح والجسد.

ب ـ مثل العليقة المشتعلة بالنار.

ج ـ جمرة النبي إشعياء.

د ـ النار والحديد.

هـ ـ تابوت العهد.

ملحق (أ) على الفصل الخامس:
نص طومس البابا ليو [٢٢٢]

أرسل ليو رسالة إلى فلافيانوس أسقف القسطنطينيّة بشأن الطبيعة الواحدة محاولا أن يمسك العصى من المنتصف باستخدامه تعابير غير يفهما الطرفان على هواهم لتكون له الزعامة كما تجنب التعابير السليمة عن الإيمان السليم لئلا يبغضه الطرف الآخر.

نص الرسالة

أمّا وقد قرأنا رسالتكم التي أدهشنا تأخر وصولها إلينا واطلعنا على سجل مناقشات الأساقفة حصلنا أخيرًا على صورة واضحة عما أثير عندكم من عثرات ضد الإيمان القويم. وظهر لنا الآن ما غمضت علينا أسبابه سابقًا. إن أوطيخا (أوطيخا) الذي كان يستحق في مظهره أن يكرم بلقب كاهن قد بان الآن أنه خال من الإدراك والخبرة. فانطبقت عليه كلمات النبي: "لا يميل إلى عمل الصلاح. ويفكر بالإثم في مضجعه" (مز ٣٥: ٣ و٤). وأي شيء أكثر لؤمًا من أن يرضى المرء بأن يكون تفكيره ضد الله ولا يصغي إلى نصح من هم أوفر منه حكمة وعلمًا؟. ولا يقع في هذه الحمأة إلا الذين يعتمدون على عقولهم حين يعسر عليهم فهم الحقائق الغامضة ولا يراجعون ما تقوله الأنبياء والرسل والأناجيل. وهكذا يمسون معلمين الضلال لأنهم لم يكونوا تلاميذ الحق. فما هيَ المعرفة التي استقاها من صفحات العهدين القديم والجديد المقدسين وهو الذي لم يفهم حتّى فاتحة دستور الإيمان؟ وقد عجز عقل ذلك الشيخ عن فهم ما قال الباحثون عن الولادة الجديدة أما وقد عجز عن معرفة ما يجب أن يعتقد به من جهة تجسّد كلمة الله ورفض أن يفحص الكتب المُقدّسة فحصًا كافيًا ليحصل على نور الفهم فقد كان عليه على الأقل أن يقبل ذلك الاعتراف العام الذي يعترف به كلّ المؤمنين:

[٢٢٢] عن "مجموع الشرع الكنسي" للأب حنانيا الياس كساب ص ٣٨٤-٣٩١. مترجمة عن: مين، الآباء اللاتين، المجلد ٥٤، الحقل ٧٥٦.

"نؤمن بالله القادر على كلّ شيء وبيسوع المسيح ابنه الوحيد ربنا الذي ولد من الروح القدس ومن مريم العذراء".

بهذه المواد الثلاثة قد تحطمت كلّ أسلحة وقوى المبتدعين تقريبًا، لأنه عندما يؤمن المرء بأن الله هو في الوقت نفسه كلّ القدرة وهو الآب فقد تبرهن أن الابن هو منذ الأزل مع نفسه لا يختلف في شيء عن الآب لأنه ولد وهو إله من إله، كلي القدرة من كلّ القدرة، ولا يختلف عنه في المجد، وغير منقسم عنه في الجوهر، بل هو نفسه الابن الوحيد الابن الأزلي من الآب الأزلي، الذي ولد من الروح القدس ومن مريم العذراء. وهذه الولادة قد تمت في وقت محدود لم تنقص شيئًا من تلك الولادة الإلهية منذ الأزل ولم تضف إليها شيئًا. ولكنها بذلت بكليتها في عمل إعادة الإنسان الذي خدع ليستطيع بقوتها أن يتغلب على الموت ويقهر إبليس الذي له سلطة الموت. لأننا ما كنا لنستطيع الغلبة على مسبب الخطيئة لو لم يتخذ طبيعتنا ويجعلها طبيعته الخاصة ذاك الذي لا يمكن أن تفسده خطيئة أو يستولي عليه الموت.

لأنها في الحقيقة قد حبل به من الروح القدس في بطن أمه العذراء التي ولدته كما حبلت به دون أن تخسر بتوليتها. ولكن إذا كان هذا (أي أوطيخا) غير قادر أن يحصل على إدراك حقيقي من هذا النبع النقي للإيمان المسيحي لأنه بسبب عمايته صار لمعان الحقيقة الساطع مظلمًا أمام عينه فكان عليه أن يخضع لتعليم الإنجيلي. وبعد أن يقرأ ما يقوله متى: "كتاب ميلاد يسوع المسيح بن داود بن ابراهيم" يعود إلى بولس الرسول مسترشدًا فيقرأ في رسالته إلى الرومانيين: "بولس عبد يسوع المسيح المدعو ليكون رسولًا المفروز لإنجيل الله الذي وعد به من قبل على ألسنة أنبيائه في الكتب المُقدّسة عن ابنه الذي صار من ذرية داود بحسب الجسد" (١: ١ – ٣)، وكان عليه أيضًا أن يقوم ببعض البحث الجدي في كتب الأنبياء فيجد أن الله وعد إبراهيم قائلًا: "وبنسلك تتبارك كلّ أمم الأرض" ولكي يتجنب كلّ شك في المعنى الحقيقي لكلمة نسل (ذرية) يجب أن يعود إلى كلمات الرسول: "وقد قيلت المواعيد لإبراهيم ولنسله ولا يقول للأنساب يعني كأنّه إلى كثيرين بل لنسلك يعني واحدًا وهو المسيح" (غلا ٣: ١٦). وكان عليه أن يصغي بأذن إدراكه إلى تصريح إشعياء: "ها أن العذراء تحبل وتلد ابنًا وتدعو اسمه عمانوئيل (٧: ١٤) الذي تفسيره "الله معنا". وكان يجب عليه أن يقرأ بإيمان كلمات النبي نفسه: "لأنه قد ولد لنا ولد، أعطي

لنا ابن فصارت الرئاسة على كتفه ودعي اسمه عجيبًا مشيرًا إلهًا جبارًا أبا الأبد رئيس السلام" (٩: ٦). وكان يجب عليه ألا يتكلم بدون ترو فَيَفهم من أقواله أن الكلمة صار جسدًا بمعنى أن المسيح الذي ولد من بطن العذراء مريم كان له قوام إنسان ولكن لم يكن له جسد مأخوذ حقًا من جسد أمه. ومن الممكن أن ما دعاه إلى أن يظن أن ربنا يسوع المسيح لم يكن من طبيعتنا ما قاله الملاك الذي أرسل إلى العذراء مريم المباركة: "إن الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك ولذلك فالقدوس المولود منك يدعى ابن الله" (لو١: ٣٥)، فظن أنه بما أن حبل العذراء نشأ من عمل إلهيّ لذلك لم يكن الجسد الذي حملته من طبيعة الأم التي حبلت به. ولكن يجب ألا نفهم من الولادة الفائقة العجب أم جدة أسلوبها وتفرّده قد ذهبا بخاصة النوع. فإن الروح القدس هو الذي منح العذراء الخصب ولكن من الجسم ولد جسم حقيقي. "وعندما بَنَتْ الحكمة لنفسها بيتًا" صار الكلمة جسدًا وسكن بيننا. أعني في ذلك الجسم الذي اتخذه من كائن بشري والذي نفخ فيه روح حياة عاقلة. وبناء عليه إذ قد حفظ التمييز بين الطبيعتين والجوهرين، وقد اجتمعا في الأقنوم الواحد، اتخذت العظمة التواضع والقوة الضعف والخلود التعرض للموت والطبيعة التي لا يمكن أن يعتورها تغيير اتحدت مع الطبيعة المتغيرة لكي يوفي الدين الذي استوجبته حالتنا، وصار هو الوسيط الوحيد بين الله والإنسان-الإنسان يسوع المسيح. وهكذا يمكنه من جهة عنصر واحد أن يموت مع أنه غير ممكن أن يموت في عنصره الآخر ولذلك فبطبيعة الإنسان الحق والكاملة التامة ولد إله حق كاملًا في ما كان له وكاملًا في ما كان لنا. وبما لنا نعني ما كوّنه الخالق فينا في البدء وما اتخذه هو لكي يعيده كما كان، لأن مما جبله الخادع وقبله الإنسان المخدوع لا يوجد منه أثر في المخلّص. وكونه اتخذ لنفسه نصيبًا من أمراضنا لم يجعله مشاركًا لنا في خطايانا. إنه اتخذ شكل عبد بدون دنس الخطيئة. فأغنى ما هو بشري دون أن ينقص مما هو إلهي. بإفراغه نفسه بحيث صار غير المنظور منظورًا وشاء مبدع الكائنات كلها أن يكون بين المائتين كان كذلك تنازلًا من قبيل الرحمة لا نقصًا في القدرة.

وهكذا فالكائن نفسه الباقي في صورة الله صار إنسانًا في صورة عبد. لأن كلًا من الطبعتين حفظت خواصها بدون تغيير أو نقص. وكما أن صورة الله لا تنفي أو تزيل صورة العبد هكذا صورة العبد لا

تعطل صورة الله. لأنه وقد تباهى الشيطان بأن الإنسان الذي خُدِعَ بحيلته قد حرم من العطايا الإلهية وبتجرده من موهبة الخلود وقع تحت حكم الموت المحزن وهكذا وجد الخادع وهو في وسط تعاسته نوعًا من العزاء بوجود شخص آخر رفيقًا له في المعصية. وأما الله فعملًا بمبدأ العدل قد غيّر ما كان أعده للإنسان الذي خلقه وجعله في منزلة سامية الشرف. فنشأت الحاجة إلى السماح بمشورة سرية حتّى أن الذي لا يعتريه والذي يستحيل أن تُجرد إرادته من كرمها وجودها ينجز خطته الأصلية من لطف محبته لنا بسر بعيد عن الفهم والإدراك.

وهكذا فالإنسان الذي دُفع إلى السقوط بحيلة الشرير الخبيثة لا يهلك خلافًا لما قصده الله. فابن الله ينزل من كرسيه في السماء دون أن يبتعد عن مجد الآب ويدخل في هذا العالم الأدنى مولودًا على صورة جديدة بأسلوب جديد في الولادة لأنه وهو في دائرته الخاصة غير منظور صار في دائرتنا منظورًا، والذي لا يمكن حصره في مكان رضي أن يكون محصورًا، ومع أنه ما زال هو هو قبل الأزل بدأ وجوده في وقت محدّد. ربّ الكون بأسره سمح لعظمته التي لا تحد أن تحجب واتخذ لنفسه صورة عبد. الله غير المتألم لم يرفض أن يكون إنسانًا متألمًا. والذي لا يعتريه موت رضي أن يخضع لشرائع الموت. وولد بأسلوب جديد من الولادة لأن البتول مع جهلها وهي مصونة المساكنة قدمت مادة الجسد. وما أُخذ من أم الرّبّ كان الطبيعة لا الخطيئة. ولا يعني عجب ولادة ربنا يسوع المسيح من بطن العذراء أن طبيعته تختلف عن طبيعتنا، لأنه هو نفسه إله حق وهو أيضًا إنسان حق، لا وهم ولا تخيل في هذا الاتحاد عندما تلتقي معاضعة الناسوت ورفعة اللاهوت. لأنه كما أن الله لم يتغير بظهور الشفقة هكذا لم يبتلع الإنسان بإغداق الكرامة. }وكل واحدة من الطبيعتين تقوم بما يختص بها بالاشتراك مع الأخرى. أعني أن الكلمة يقوم بما يختص بالكلمة والجسد يقوم بما يختص بالجسد. الواحدة تسطع بالعجائب والأخرى تخضع لأنواع الأذى. فالكلمة لا يتخلى عن المساواة مع الآب في المجد، والجسد لا يتجرد من طبيعة جنسنا. لأنه، وكم أعدنا هذا القول، هو هو واحد لم يتغر، ابن الله حقًا وابن الإنسان حقًا. هو إله إذ أنه "في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله" (يوحنا١:١). وهو إنسان لأن "الكلمة صار جسدًا وحل فينا" (يوحنا ١: ١٤)، إله "كل به كوّن وبغيره لم يكن شيء مما كوّن" (يو١: ٣) وإنسان "ولد من

من امرأة تحت الناموس" (غلا٤: ٤). ولادة الجسد هيَ ظهور الطبيعة البشرية. وولادة العذراء طفلًا هيَ دليل القدرة الإلهية. طفولة المولود عرضت وضيعة بالقمط وعظمة المتعالي أُعلنت بأصوات الملائكة. الذي يكيد هيرودس لقتله هو كالبشرية في مهدها. والذي يبتهج المجوس بعبادته ساجدين له هو رّبّ الكل. وإذ جاء ليعتمد من يوحنا سابقه فلئلا يبقى اللاهوت محجوبًا بالجسد ومختفيًا، تلكم صوت الآب بالرعد من السماء "هذا هو ابني الحبيب الذي به سرّرت" (متى٣: ١٧). وهكذا فالذي جُرِّبَ وهو إنسان بحيلة إبليس هو نفسه تقوم الملائكة بواجب خدمته كإله (متى ٤: ١١). الجوع والعطش والتعب والنوم كلّ هذه من دلائل ناسوته. ولكن إشباع خمسة آلاف بخمسة أرغفة وإعطاء ذلك الماء الحي للمرأة السامرية، الماء الذي كلّ من يشرب منه لا يعطش أبدًا، والمشي على سطح البحر بقدمين لا تغرقان وأصدار الأوامر للعاصفة أن تسكن فتهدأ الأمواج المتلاطمة كلّ هذا كان ولا شك من خواص اللاهوت. ولا يمكن أن ينسب إلى طبيعة واحدة أن تبكي بشعور الحزن على صديق مات وأن ينسب إليها هيَ نفسها أقامته بصوت الأمر وإعادة الحياة إليه بعد إزاحة الحجر الكبير عن باب القبر حيث انقضى على الميت فيه أربعة أيام، أو أن يعلق على خشبة وأن يجعل كلّ العناصر ترتجف وقد تحول نور النهار إلى ظلمة الليل، وأن يسمر بالمسامير وأن يفتح أبواب الفردوس للص المؤمن. وهكذا لا يمكن أن ينسب إلى طبيعة واحدة بعينها "أنا والآب واحد" وقوله"إن أبي أعظم مني". لأنه كما أن في الرّبّ يسوع المسيح الأقنوم الواحد إله وإنسان فما يتصل بكليهما صنعة يختلف عم يتصل بهما مجدًا، لأن له مما يختص بنا الناسوت وهو دون الآب، في حين أن له مما يختص بالآب اللاهوت المساوي للآب. وهكذا فبسبب الوحدة في الأقنوم التي يجب أن تفهم أنها وحدة في الطبيعتين نقرأ من جهة واحدة أن "ابن الإنسان نزل من السماء" لأن ابن الله اتخذ جسدًا من العذراء التي ولد منها. ومن جهة ثانية يُقال "إن الابن الله صلب ودفن"، مع أنه لم يحتمل هذا في حقيقة لاهوته وهو الابن الوحيد المساوي للآب في الأزلية الجوهر بل بالطبيعية البشرية الضعيفة، ولهذا نعترف كلنا في دستور الإيمان "ابن الله الوحيد تألم وقبر"، حسب قول الرسول: "لأنهم لو عرفوا لما صلبوا رّبّ المجد".

ولكن إذا كان ربنا ومخلصنا نفسه يستوضح بأسئلة إيمان تلاميذه قال "من يقول الناس إن ابن البشر هو؟". ولما ذكروا عدة آراء لآخرين قال "وأنتم من تقولون إني هو؟". أعني أنا الذي هو ابن الإنسان والذي ترونه في صورة عبد وهو في الواقع جسد "من تقولون إني هو". وعندما أجابه بطرس المغبوط بوحي من الله لنفع الشعوب كلها باعترافه: "أنت المسيح ابن الله الحي" لم يكن بدون استحقاق ما قاله له الرب: "طوبى لك" واتخذ من الصخرة صفة الثبات والصلابة التي عزيت إلى فضيلته وإلى اسمه معًا لأنه بوحي من الله اعترف أنه هو نفسه ابن والمسيح (متى١٦: ١٣-١٨). لأن قول إحدى هاتين الحقيقتين دون الأخر لا يفيد للخلاص. والخطر هو واحد نفسه أن نعتقد أن الرّبّ يسوع المسيح هو إله وليس إنسان، أو أن نعتقد أنه إنسان وليس إلهًا.

ولكن بعد قيامة الرّبّ التي كانت في الحقيقة قيامة جسد حقيقي-إذ لم يقم إنسان آخر ثانية غير الذي صلب ومات- لم يتم في الأربعين يومًا إلا ما كان لجعل إيماننا كاملًا منزهًا عن كلّ شبهة؟ لأنه بينما كان يتحدث مع تلاميذه ويقيم بينهم ويأكل معهم ويأذن بأن يلمسه الذين وقعوا تحت تأثير الإرتياب ويفحصوه بعناية، كان في الوقت نفسه يأتي إلى التلاميذ لهذه الغاية ويدخل عليهم والأبواب مغلقة، وبنفخته أعطاهم الروح القدس وفتح لهم أسرار الكتب الْمُقدّسة بعد أن وهبهم نور الفهم. هو بشخصه أظهر له جرحه في جنبه وأثار المسامير في يديه ورجليه وكل علامات الآلام التي لا تزال ظاهرة "أنظروا يدي ورجلي إني أنا هو. جسوني وانظروا فإن الروح لا لحم له ولا عظم كما ترون لي" (لو ٢٤: ٣٩).

وكان هذا ليصير في إمكاننا أن نعترف أن خواص كلّ من الطبيعتين الإلهية والبشرية باقية فيه بدون أن تسبب إنقسامًا، وأن ندرك أن الكلمة ليس ما هو الجسد، وأن نعترف بابن الله الوحيد هو نفسه الكلمة والإنسان معًا.

إن أوطيخا يجب أن يعتبر أنه لم يدرك سرّ هذا الإيمان لأنه لا يقر بأن طبيعتنا موجودة في ابن الله أما بواسطة صنعة الموت أو بواسطة مجد القيامة. ولم يقنعه الرسول المغبوط الإنجيلي يوحنا إذ يقول: "كل روح يعترف بأن يسوع المسيح قد أتى بالجسد فهو من الله. وكل روح يحل يسوع فليس من الله. هذا هو روح المسيح الدجال" (١يو ٤: ٢ و٣). والآن ما هو أن نحل (أو نقسم) المسيح إلا أن نفصل الطبيعة

البشرية عنه وأن نعطل باختراع مخزٍ السرّ الذي به وحده نلنا الخلاص؟ زِد على ذلك أنه ما دام في الظلام من جهة طبيعة جسد المسيح لا أن يقع في نفس العماية من جهة آلامه. لأنه إذا كان لا يعتقد بأن صلب الرّبّ لم يكن واقعيًا وكان لا يشك في انه احتمل الآلام حقًا حتّى الموت لأجل خلاص العالم. فكما أنه يؤمن بموته يجب أن يعترف بجسده ولا يداخله الشك في أن الذي يقول عنه أنه قابل للألم هو أيضًا إنسان له جسد كأجسادنا لأن إنكار جسده الحقيقي هو كإنكار آلامه. وإذا كان يقبل الإيمان المسيحي ولا يغلق أذنه عن سماع بشارة الإنجيل فلينظر أي طبيعة سمِّرت بالمسامير وعلِّقت على خشبة وليفهم من أين خرج الدم الماء عندما طعن الجندي جسد المصلوب بحربة. وهكذا صار في إمكان كنيسة الله أن تنتعش بحوض الغسل وبالكأس معًا. وليصغ أيضًا إلى الرسول المغبوط بطرس يلعن أن تقديس الروح يتم برش دمه (١بط ١: ٢). ودعه يقرأ كلمات الرسول نفسه -لا قراءة سطحية- "عالمين أنكم لم تفتدوا بما يفسد من الفضة والذهب من تصرفكم الباطل على حسب سنن آبائكم ولكن بدم كريم دم حمل لا عيب فيه ولا دنس هو المسيح" (١بط ١: ١٨ و١٩). دعه أيضًا يقرأ ولا يناقض شهادة يوحنا الرسول المغبوط "ودم المسيح ابن الله يطهرنا من كلّ خطيئة" وأيضًا "هذا هو الظفر الذي يغلب العالم أعني إيماننا ومن الذي يغلب العالم إلا الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله. هذا هو الآتي بالماء والدم يسوع المسيح لا بالماء فقط بالماء والدم. والروح هو الذي يشهد أن المسيح هو الحق لأن الشهود في السماء ثلاثة الآب والكلمة والروح القدس. وهؤلاء الثلاثة هم واحد. والشهود في الأرض ثلاثة الروح والماء والدم. وهولاء الثلاثة هم في واحد" (١يوحنا ٥: ٤-٨) أعني روح التقديس ودم الفداء وماء المعمودية. وهذه الثلاثة هيَ واحد وتبقى غير منقسمة ولا ينفصل أحدها عن الآخرين. فإن الكنيسة الجامعة بهذا الإيمان تنتعش وتتقدم.

إننا يجب أن نؤمن أن في المسيح لا يكون الناسوت بدون اللاهوت الحقيقي ولا اللاهوت بدون الناسوت الحقيقي. ولكنكم أثناء فحصكم أوطيخا سألتموه فأجاب: "إني أعترف بأن الرّبّ كان ذا طبيعتين قبل الإتحاد ولكني أعترف بطبيعة واحدة بعد الاتحاد". وإني لأدهش كيف لم يوبخه أحد القضاة على اعتراف كهذا هو من الخلط واللغو في الكلام، وكيف صار السكوت عن تصريح من هذا النوع بلغ

أقصى الحماقة ومنتهى التجديف كأنه لا يحسب تطاولًا ولا تجديفًا. ما دام من الكفر أن نقول إنّ ابن الله الوحيد كان ذا طبيعتين قبل التجسد، ومن الارجاف المزعج القول بأن الكلمة مذ صار جسدًا لم يكن فيه إلا طبيعة واحدة.

ولئلا يظن أوطيخا أن ما تفوه به هو الصواب أو يجوز الإغضاء عنه إذا لم يعترض على كلامه أحد منكم نحرض غيرتكم الصادقة أيها الأخ المحبوب لإيصال القضية بإلهام الله الرحيم إلى نتيجة مقنعة ووجوب تطهير الرجل القليل الخبرة والعديم الاكتراث من فساد رأيه الوبائي. وإذ نرى كما ظهر جليًا من سجل الأعمال أنه أخذ يتراجع عن رأيه الخاص عندما حشرته براهينكم المقنعة في زاوية وأعلن أنه مستعد أن يعترف بما لم يعترف به سابقًا ويعود إلى الإيمان الذي حاد عنه. ولكنه وقد أبى أن يبسل العقيدة الكفرية أدركتم أيها الأخ أنه لا يزال مصرًا على غوايته فاستحق الحكم بتجريمه. أما إذا أظهر الندامة بإخلاص وصدق نية وأدرك ولو بعد فوات الوقت أن السلطة الأسقفية قامت بما يجب وأراد أن يقدم ترضية كافية فيجب عليه أن يرذل بالصوت الحي وينبذ تحت توقيعه بخط يده كلّ ما سبق فاعتقد به باطلًا وخطأ. فلا تكون الرحمة والشفقة مهما عظمت سببًا للوم إذا عومل بها عندما يهود إلى الصواب، لأن ربنا الراعي الحقيقي بذل نفسه لأجل خرافه والذي جاء ليخلص نفوس الناس لا ليهلكها يريد منا أن نتشبه به في لطف محبته.

وهكذا تنزل العدالة بمن هم في الخطيئة ولا تمنع الرحمة عن التائبين. وهكذا يُدافع حقًا عن الإيمان القويم دفاعًا يأتي بأفضل الثمار عندما يحكم على الرأي الباطل حتّى من قِبَل من قالوا به سابقًا. ولكن لكي تسوى القضية كلها تسوية تقوية دقيقة عنيا أخوتنا يوليوس الأسقف دريادوس الكاهن وابني ايلاريون الشماس ليكونوا نوابًا عنا وأمرنا كاتبنا دلكيتيوس (دلسيتيوس) بأن يرافقهم إذ لنا ملء الثقة بأمانته، آملين أن تكون المعونة الإلهية معكم حتّى أن كلّ من ضل يمكن أن يخلص بحكمة هو نفسه على رأيه المناقض للصواب. ليحفظكم الله بصحة جيدة أيها الأخ الحبيب.

لمزيد من القراءة

- مجمع خلقيدونية إعادة فحص، ف صموئيل، ترجمة د عماد موريس.
- مجمع أفسّس، نيافة مثلث الرحمات الأنبا بيشوي.
- مجمع خلقيدونية أيجمع أم يُفرّق، مجموعة من اللاهوتيين.
- مجموع الشرع الكنسيّ، حنانيا إلياس كسّاب.
- تاريخ الفكر المسيحيّ، ج٢، ٣، ٤، د حنّا جرجس الخضريّ.
- الخريستولوجيّ بعد مجمع خلقيدونية، إيان تورانس، ترجمة راهب من الأنبا أنطونيوس.
- *Cf. Hefele, C.J. A History of the Councils of the Church, Vol III, AMS Press 1972.*
- *Kelly, J.N.D., Early Christian Doctrines, A & C Black- London 1977, 5th Revised Edition.*
- *Sellers, R. V., The Council of Chalcedon, A Historical and Doctrinal Survey, S.P.C.K. London, 1961.*

الفصل السادس:
مدخل إلى الأسرّار الكنسيّة

الإنسان كائن يحيا في **نطاق يقع بين المنظور وغير المنظور**، بين عالم المادة والجسد وبين عالم الروح والروحانيّات. فهو مدعو لأن يحمل الكون كلّه في كيانه وأن يضع الخليقة بكاملها في وعيه ويشملها بحبه، ويقول عنه القديس غريغوريوس النيسيّ الإنسان كائن ماديّ روحيّ في نفس الوقت، أرضيّ وسماويّ:

"تناول **كلمة** الله جزءًا صغيرًا من الأرض التي أبرأها حديثًا، وصاغ بيديه الأبديتين جُبْلتنا البشريّة وبَثَّ فيها الحياة: **لإنّ النسمة التي بثّها في الإنسان هيَ إنبثاق من لاهوته المستتر اللامنظور.** وهكذا من التراب ومن نفخة القدير أُبدِع الإنسان على صورة الحي الأبدي... **فبصفتي من الأرض أجد نفسي مرتبطًا بالحياة الأرضيّة ولكنني أحمل في كياني صورة الله** التي خُلِقت عليها، لذا أجد قلبي منشغلًا بالتَوق إلى الحياة الأبديّة الآتية".[٢٢٣]

عدّد الأسرار

لم يجر تثبيت هذه اللائحة نهائيًا إلاّ في القرن السابع عشر، بتأثير اللاتين الذي كان وقتئذ في أَوجِّهِ. وقد كان الكتّاب الأرثوذكسيّون قبل ذلك يختلفون اختلافًا كبيرًا حول عدّد الأسرار، **فيوحنا الدمشقيّ يتكلم عن سرّين فقط، وديونيسيوس الأريوباغيّ يحدثنا عن ستة**، أمّا **يوشافاط متروبوليت أفسّس (في القرن الخامس عشر) فيذكر عشرة** وهنالك عدّد من اللاهوتيّين البيزنطيّين يتفقون على سبعة أسرار لكنهم يختلفون على نوعيّتها. **والراهب أيوب (في القرن الثالث عشر)، في بحث له في الأسرّار، يحدّد عدّد الأسرّار بسبعة، ولكنّه يعتبر التكريس الرهبانيّ سرًّا**، ويجمع التوبة ومسحة المرضى في سرّ واحد. **كذلك سمعان التسالونيكيّ (في القرن الخامس عشر) يعتبر التكريس الرهبانيّ سرًّا، لكنّه يضمّه إلى سرّ التوبة**. أمَّا **جوازاف ميتروبوليت أفسّس**، ومعاصر سمعان التسالونيكيّ، فيقول:

---

[223] *PG 37,452.*

"أعتقد أنّ أسرّار الكنيسة ليست سبعة وحسب، بل أكثر من ذلك".

ويقدّم لائحة بعشرة أسرّار تتضمّن التكريس الرهبانيّ، ورتبة الجناز وتكريس الكنائس.

وحتّى الآن لم يتخذ العدّد سبعة أي دلالة عقائديّة مطلقة في اللاهوت الأرثوذكسيّ، وهو لا يُستخدم في غالب الأحيان **إلاّ من أجل تسهيل العليم الدينيّ.**

وقد تمّ هذا التحديد في القرن الثاني عشر **مع اللاهوتي بيير لومبار** الذي توفيَّ سنة ١١٦٠، وأُعلنت اللائحة الحاليّة للأسرّار **إعلانًا رسميًّا سنة ١٢٧٤ في مجمع ليون** الذي حاول إعادة الوحدة بين الشرق والغرب،[٢٢٤] ثمّ في مجمع فلورنسا سنة ١٤٣٩ في "القرار الموجَّه إلى الأرمن"،[٢٢٥] **وأخيرًا في المجمع التريدنتيني** الذي أكّد في جلسته السابعة سنة ١٥٤٧ أنّ الأسرّار السبعة قد أسّسها يسوع المسيح نفسه، دون الدخول في طريقة هذا التأسيس الذي تمّ على يد المسيح.[٢٢٦]

يقول اللاهوتي الأرثوذكسيّ جون مايندورف في كتابه مدخل إلى اللاهوت البيزنطيّ:

"**إنّ اللاهوت الأرثوذكسيّ يجهل التمييز الغربيّ بين "الأسرار" و"أشباه الأسرّار"**. لذلك لم يقتصر قط على عدّد محدّد من الأسرّار معلنًا إعلانًا رسميًّا. ففي زمن الآباء، لم تكن هُناك لفظة للدلالة على "الأسرار" كنوع معيّن من الأعمال الكنسيّة. فلفظة سرّ كانت تُستعمل في درجة أولى بالمعنى الواسع والعام، أي بمعنى "سرّ الخلاص"، ثمّ في درجة ثانية فقط كانت تشير إلى الأعمال الخاصة التي تَمنَح الخلاص. وللدلالة على هذا المعنى الأخير، كانت نُستعمل أيضًا لفظتا "طقوس" و"مُقدّسات". وإنّنا نجد لدى **ثيوذوروس الاستودي في القرن التاسع لائحة بستة أسرّار**: الاستنارة المُقدّسة (أي المعمودية)، والاجتماع الإفخارستيّ، والميرون، والرسامة الكهنوتيّة، والتكريس الرهبانيّ، ورتبة الجنّاز. أمّا عقيدة "الأسرّار السبعة" فقد **ظهرت للمرة الأولى، في شكل مميّز، في الاعتراف بالإيمان الذي طلبه البابا إكليمندس الرابع من الإمبراطور**

---

[224] *Dumeige (Gervais), la Foi Catholique, Paris, Orante, 1975, n 38.*

[٢٢٥] المرجع السابق، ص ٦٥٨.

[٢٢٦] المرجع السابق، ص ٦٦٣.

ميخائيل باليولوغوس سنة ١٢٦٧ بمناسبة انعقاد مجمع ليون. وبالطبع فقد كان هذا الاعتراف بالإيمان من إعداد لاهوتيّين لاتينيّين".[227]

ثمّ يضيف مايندورف أنّ تحديد هذا العدّد من الأسرّار قد وجد شبه إجماع لدى اللاهوتيّين الأرثوذكسيّين، حتّى لدى الذين كانوا يعارضون بشدّة الاتحاد مع روما. وقد وجدوا فيه عددًا رمزيًّا يشير إلى مواهب الروح القدس السبع التي يأتي على ذكرها إشعياء النبي (١١: ٢- ٤).

إنّ الكنائس الأرثوذكسيّة، لم تحدّد بشكل رسميّ لائحة الأسرار. لذلك نرى اختلافًا في تحديد هذه اللائحة. ففي حين يقبل معظم اللاهوتيّين اللائحة الغربيّة، يعطي البعض لائحة مختلفة، **ويركّز البعض الآخر على سرَّيّ المعموديّة والإفخارستيّا**. فيؤكّد غريغوريوس بالاماس أنّ خلاصنا كلّه يستند إلى هذين السرّين، لأنّ فيهما كمال التدبير الخلاصيّ الذي أتمّه الكلمة المتجسّد. **ويركّز نيقولا كاباسيلاس، في كتابه الشهير الحياة في المسيح، الحياة المسيحيّة كلّها على أسرار التنشئة الثلاثة** :المعمودية والميرون والإفخارستيا.

فالكتاب المُقدّس يخبرنا عن الكثير مما يخص الحياة المسيحيّة بلفظ السرّ، مثل: "لتعرفوا أسرّار ملكوت السموات" (مت ١٣: ١١، لو٨: ١٠)

"السرّ الذي كان مكتومًا" (رو١٦: ٢٥)

"لأُعلِّم جهارًا بسرّ الإنجيل" (اف ٦: ١٩)

"ولهم سرّ الإيمان" (١ تي٣: ٩)

"عظيم هو سرّ التقوى" (١ تي٣: ١٦)

أمَّا أولئك الذين يفكرون بمنطق (الأسرّار السبعة) فعليهم أن يكونوا حذرين ويتجنبوا سوء الفهم الذي قد ينشأ عنه. أولًا، على الرغم من أن جميع الأسرّار حقيقيّة، فإنّها **لا تتمتع جميعها بنفس الأهمّيّة**، وثمّة تسلسل مراتبي لها. **فسرّ الشكر مثلًا هو في قلب الحياة المسيحيّة** على نحو مختلف عمّا هو عليه سرّ مسحة المرضى بالزيت. ومن بين الأسرّار السبعة، **تحتل المعموديّة وسرّ الشكر مكانة خاصة**.

[227] *Meyendorff (Jean), Initiation a la theologie Byzantine, Paris, Cerf, 1975, pp 253- 254.*

حينما نتحدث عن الأسرّار السبعة، **فلا ينبغي لنا أن نفصلها عن أعمال أخرى تتخذ بدورها طابع الأسرار**، أعني بذلك كلّ الخدم التقديسيّة، **كارتداء الإسكيم الرهبانيّ، وتبريك المياه في عيد الظهور الإلهيّ، وخدمة الجناز، ومسح الزيت عند تتويج الملوك**، الخ... ففي جميع الخدم هذه، هنالك إشارة منظورة ونعمة روحيّة غير منظورة. والكنيسة الأرثوذكسيّة تستخدم أيضًا عددًا كبيرًا آخر من **الخدم التبريكيّة الصغيرة** التي من طبيعة الأسرّار المُقدّسة، كالصلّاة على القمح والخمر والزيت والفاكهة، ومباركة الحقول والمساكن والأشياء المختلفة. لهذه الخدم الصغيرة ومعظم الأحيان هدف عمليّ واقعيّ، إذ توجد صّلوات لتكريس السيارات والقاطرات وحتّى من أجل القضاء على الديدان المؤذية. **وليس ثمة فرق جذريّ بين الأسرّار الأساسيّة وأفعال التكريس هذه، إذ يجب أن يُنظر للحياة المسيحيّة كوحدة**، وكسرٍّ واحدٍ كبير يجري التعبير عن مختلف جوانبه من خلال مجموعة من الصيغ والأساليب، بعضها يُمارس مرة واحدة فقط في حياة الإنسان، والبعض الآخر قد يُمارس كلّ يوم تقريبًا.

والأسرّار المُقدّسة تخصّ كلّ شخص بمفرده، إذ فيها يكتسب كلّ إنسان فرديًّا نعمة الله، **ولهذا السبب يُسمّي الكاهن كلّ مؤمن باسمه الخاص عند ممارسة معظم الأسرار**. فعند المناولة يقول الكاهن: (يُناول عبد الله (فلان) جسد ودم ربنا يسوع المسيح). وعند القيام بسرّ مسحة الزيت للمرضى يقول: (يا أبتاه القدوس... اشف عبدك هذا (فلان) من الأمراض النفسانيّة والجسديّة المستحوذة عليه..).

أسرار المدخل

هي أسرار المعموديّة والميرون والإفخارستيّا وتسمّى هكذا لأنّها تُدخل الشخص في سرّ المسيح وفي جماعة المؤمنين في الكنيسة فيصير عضوًا فيها كامل الحقوق.

ولهذا السبب تُمنح هذه الأسرّار معًا وفي يوم واحد في الكنيسة الشرقيّة. هذا تقليد الكنيسة القديم لعماد الكبار والصغار والقادمين من الوثنيّة. **فالمعموديّة هيَ المدخل إلى الإيمان المسيحيّ. والميرون المُقدّس هو موهبة الروح القدس وختمه وختم المعموديّة المُقدّسة. والمناولة المُقدّسة هيَ الغذاء الأساسيّ الروحيّ لكلّ أعضاء الكنيسة المؤمنين**. ولذا فالطفل الصغير أيضًا أصبح أهلًا لها بالمعموديّة والميرون المُقدّسين، وأصبح من حقه ومن واجبه الاشتراك في هذه الوليمة الروحيّة المُقدّسة.

هذا ومن المعلوم تاريخيًّا أن **عادة إعطاء أسرار المدخل الثلاثة معًا بقيت جارية شرقًا وغربًا حتّى القرن الثالث عشر**.

التعريف الأرثوذكسيّ للأسرار

يقول المطوَّب أغسطينوس إنّها أمور منظورة نحصل من خلالها على نعمة غير منظورة.

وهذا هو التعريف الغربيّ للأسرار، وهو ليس مخطئًا،إذ نجد القديس يوحنا ذهبي الفم يقول متكلمًا عن سرّ الشكر:

"نسّميه سرًا، لأنّ الذي نؤمن به ليس هو ما نراه تمامًا، بل إنّنا نرى شيئًا ونؤمن بشيء آخر... فحينما أسمع أحدًا يذكر جسد المسيح، أفهم معنى ما يقال على غير ما يفهمه من لا يؤمن".[٢٢٨]

هذه الثنائية لما يُرى وما لا يُرى في كلّ سرّ مُقدّس هيَ خاصته المميّزة. فالأسرّار، كما الكنيسة، منظورة وغير منظورة، ويوجد في كلّ إشارة خارجيّة نعمة داخليّة. والمسيحيّ أثناء معموديته، يُغطّس بالماء الذي يغسله من أقذاره كما يغسله في الوقت نفسه من خطاياه. في سرّ الشكر، يتناول المرء ما يبدو أنّه خبز وخمر، لكنه في الواقع يأكل جسد المسيح ودمه الكريمين.

الكنيسة في معظم الأسرّار المُقدّسة، **تستعين بالعناصر المادية** – من ماء وخبز وخمر وزيت – **وتجعَل منها أداة لنقل الروح القدس**. بهذا المعنى تنطلق الأسرّار من التجسد، **حيث بالتجسد اتخذ المسيح لنفسه جسدًا ماديًّا وحوّله إلى أداة تحمل الروح القدس**. كذلك الأسرّار تتطلع أو بالأحرى تدشن فداء المادة الأخير (واستعادتها) الذي سيحصل في يوم الدينونة.

[٢٢٨] تفسير الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس، ٧، ١.

الأسرار السبعة في الكتاب المُقدّس

أقامت الكنيسة مفاهيمها عن الأسرّار السبعة على بعض نصوص الكتاب المُقدّس، فإنَّ الكتب المُقدّسة تقول عن المعموديّة:

"إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله. الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله" (يو٣: ٣و٥)،

"المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح" (يو٣: ٦)،

وقول الرسول: "كما أحبّ المسيح أيضًا الكنيسة وأسلم نفسه لاجلنا، لكي يقدّسها مطهرًا إياها بغسل الماء بالكلمة. لكي يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة، لا دنس فيها ولا غضن، أو شيء من مثل ذلك بل تكون مُقدّسة وبلا عيب" (أف٥: ٢٥-٢٨)

وقوله: "لكن اغتسلتم بل تقدّستم بل تبرّرتم باسم الرّبّ يسوع وبروح إلهنا" (١كو٦: ١١).

وفى سرّ الشكر يقول:

"الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم. من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير. لإنَّ جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق. من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فية" (يو٦: ٥٣- ٥٦).

وفي سرّ الكهنوت يقول الرسول:

"لا تهمل الموهبة التي فيك المعطاة لك بالبنوة مع وضع أيدي القسوسية" (١تى٤: ١٤)

وقوله: "أذكرك أن تضرم أيضًا موهبة الله التي فيك بوضع يديَّ" (٢تى ١: ٦).

وعن سرّ الميرون جاء في سفر الاعمال:

"ولما سمع الرسل الذين في أورشليم أن السامرة قد قبلت كلمة الله، أرسلوا إليهم بطرس ويوحنا الذين لما نزلا صليا لأجلهم لكي يقبلوا الروح القدس، لأنّه لم يكن قد حلّ بعد على أحد منهم غير أنّهم كانوا معتمدين باسم الرّبّ يسوع. حينئذ وضعا الأيادي عليهم فقبلوا الروح القدس" (أع٨: ١٤- ١٧).

وعن سرّ مسحة المرضى قال يعقوب الرسول:

"أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرّبّ. وصّلاة الإيمان تشفي المريض والرّبّ يقيمه. وإن كان قد فعل خطية تغفر له" (يع٥: ١٤و١٥).

وعن سرّ التوبة قال الرّبّ بصريح اللفظ:

"من غفرتم خطاياه تُغفَر له. ومن أمسكتم خطاياه أمسكت" (يو٢: ٢٣).

وعن سرّ الزواج قال الرسول:

"هذا السرّ عظيم"، وشبَّهه باتحاد المسيح بالكنيسة (اف٥: ٣٢).

المعموديّة

المعموديّات غير المسيحيّة

أ. في الديانات الوثنية

يخبرنا ترتليانوس[٢٢٩] من القرن الثالث عمّا كان يحدث في الديانات الوثنيّة السرّيّة من طقوس استحمام وغُسِل بالماء والتي كانت تتكرّر بلا انقطاع وذلك في إطار المقارنة بالمعموديّة المسيحيّة والتي كانت تجري لمرة واحدة إذ أنّها اتحاد تام ونهائيّ بالسيد المسيح، **فالاستحمام الوثنيّ ليس له طابع تاريخيّ، أي لا يعود إلى حدث تاريخيّ ينبع منه وجودها وجوهرها**. أمّا المعموديّة المسيحيّة فتاريخيّة، أي أنّها مرتبطة كيانيًّا بحدث تاريخيّ إلهيّ وخلاصيّ. أي حدث تمّ من أجلنا ومن أجل خلاصنا بتجسُّد يسوع المسيح ابن الله الوحيد ومعموديّته وموته على الصليب وقيامته.

ب. في العهد القديم

تكثر الإشارة إلى طقوس الغسيل والحميم في نصوص العهد القديم والتي تركز على الطهارة الخارجيّة **بغسل الجسد والأشياء المخصّصة للخدمة الدينيّة** قبل الاحتفال بأي طقس أو الإقدام على أي عمل دينيّ (انظر لاويين١٤: ١٩، ٣٤؛ ١١: ٣٢؛ ١٥: ١؛ حز٣٦: ٢٥- ٢٧).

ج. الاغتسال عند اليهود الأسينيّين

كان كلّ من يريد أن ينضم لجماعة اليهود الأسينيّين، الذين عاشوا في منطقة قمران في حياة مشتركة منتظرين مجيء المسيح، أن **يتهيّأ لمدة سنة لغسل طقسيّ يُرافقه خلع ملابس وارتداء أُخرى**. كان هذا "العماد" يتكرّر عدّة مرات للشخص الواحد، خلاف المعموديّة المسيحيّة التي تجرى لمرة واحدة.

---

[٢٢٩] ترتليانوس عن المعموديّة فصل٣٥.

لماذا الماء

بما أنّنا مُؤلَّفون من جسد وروح، لذلك عيّن الله أن تكون وسائط خلاصنا وأسرّار النعمة التي يفيضها علينا الروح القدس، تحت علامات حسيّة وإشارات منظورة. وهكذا يستنتج القديس غريغوريوس النيزنزيّ في عظته على المعموديّة سبب استخدام الماء في هذا السرّ، كالآتي:

١- لإنّ الماء **يغسل الأقذار**، والمعموديّة تنقي من جميع الخطايا.

٢- الماء يجدّد **وينعش الجسم**، والمعموديّة تحيي خواص النفس.

٣- لإنّ بالماء **قوام الحياة**، والمعموديّة تمنح الخلاص.

٤- لإنّ المعموديّة مثال **موت المسيح ودفنه** ولابد أن نماثله في الدفن. فأين الدفن؟ أفي الهــواء ونحن محاطون بـه من كلّ جهة؟ أم في النار وهيَ مُحرِقة لا تصلح لذلك؟ أم في التراب، والدفن فيه يقتضي الموت حقيقة لا مجازًا؟

فلا سبيل إذًا إلّا بالدفن في الماء في جرن المعموديّة ولذلك قال الرسول:

"اعتمدنا لموته فدفنا معه بالمعموديّة للموت، حتّى كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب، هكذا نسلك نحن أيضًا في جدة الحياة، لأنّه إن كنّا قد صرنا متحدين معه بشبه موته نصير أيضًا بقيامته" (رو٦: ٤و٥).

الآباء والمعموديّة

قال القديس يوستينوس الشهيد:

"يجب أن نُفتش ونعرف من أي طريق يمكننا أن ننال صفح الخطايا، ونمتلك رجاء ميراث الخيرات الموعود بها، ولنا في ذلك طريق واحد فقط، وهو أن نعرف يسوع ونغتسل بالمعموديّة لغفران الخطايا، وهكذا نبتدىء أن نعيش بالقداسة".[٢٣٠]

وقال القديس كيرلس الأورشليميّ:

---

[٢٣٠] الحوار مع تريفون، ٤٤.

"عظيمة هيَ المعموديّة المعدّة فداء عن المأسورين، وصفحًا للأوزار، وموتًا للخطية، وولادة ثانية للنفس، وثوبًا نيّرًا، وختمًا مُقدّسًا لا ينفك، ومركبة إلى السماء، وتعليم الفردوس، وعلّة الملكوت، ومنحة التبني".[٢٣١]

وقال القديس غريغوريوس النيسيّ:

"فالمعموديّة إذًا تنقية من الخطايا وترك المآثم وعلّة التجديد والولادة الثانية".[٢٣٢]

وقال أيضًا:

"حينما تدخلون في الماء لا تجدون بعد ماءً بسيطًا، بل تنتظرون خلاصًا بالروح القدس، لأنّكم تستطيعون بلا مانع أن تصلوا إلى الكمال. وهذا الكلام ليس كلامي بل كلام الرّبّ يسوع نفسه، الذي له السلطة التامة في هذا السرّ، كما في كلّ سرّ غيره. وهو إن كان أحد لا يولد من الماء والروح فلا يقدر أن يدخل ملكوت الله الذي معناه ألّا تكون المعموديّة بماء فقط، لأن الذي يعتمد بالماء فقط لا يستحق نعمة الله ولا ينالها كاملة، كما أنّ الذي لم ينل ختم الماء مهما كان صالحًا بأعماله لا يستطيع أن يدخل ملكوت السموات. هذا الكلام صعب، ولكنه ليس كلامي لأنّ الرّبّ يسوع هكذا تكلم. وإليك البرهان في الكتاب". وأورد حادثة كرنيليوس وعماده، وختم كلامه بقوله: "إنّ بطرس عمّدهم باسم الرّبّ يسوع، فأعاد ولادة النفس بالإيمان لينال الجسد أيضًا النعمة بواسطة الماء".[٢٣٣]

وقال القديس يوحنا ذهبيّ الفم للموعوظين المرشحين للعماد:

"إنّ الذين كانوا قبل عمادهم أسرى، فإنّهم يتمتعون الآن ببهاء الحرّيّة. وصاروا أعضاء الكنيسة سالكين في نور البر البهيّ، بعد ما كانوا سائرين في الضلال الحالك وظلام الخطية القاتم. حقًّا أنّهم الآن مُحرّرون، وليس ذلك فقط بل قديسون فأبرار فأبناء فورثة فإخوة المسيح وارثون معه فأعضاء لجسده الطاهر، فهياكل الروح القدس. فتأمل في العطايا الجزيلة

---

[٢٣١] تعليم ابتدائي للموعوظين، ١٦.
[٢٣٢] عظة على معموديّة المسيح.
[٢٣٣] عظة ٣: ٢.

والمواهب الثمينة التي يمنحها سرّ العماد. إنّ كثيرين يظنون أنّه يغفر الخطية فقط، وأمّا نحن فقد أُحصينا له عشرة مفاعيل تجعل النفس في مركز سام ومقام جليل لا يوصف".

معموديّة الأطفال

لا تُعلِّم الأرثوذكسيّة بخطية جديّة موروثة كما قلنا، فالأطفال في التعليم الأرثوذكسيّ ليسوا مُدانين مُذنبين محكوم عليهم من الله ومغضوب عليهم أمامه!

فهذا ما نادى به اللاهوت اللاتينيّ، فمثلًا نجد أغسطينوس يكتب:

"إنّنا بميلادنا من الماء والروح القدس **نتطهر من كلّ خطية، سواء كانت من آدم الذي به أخطأ الجميع**، أو بفعلنا وقولنا لإنّنا نُغسَل منها بالمعموديّة".

وقال:

"إنَّ لنا ميلادين أحدهما أرضيّ والآخر سماويّ. الأوّل من الجسد، والثاني من الروح. الأوّل صادر عن مبدأ قابل للفناء، والثاني عن مبدأ أبديّ. الأوّل عن الرجل والمرأة، والثاني عن الله والكنيسة. الأوّل يجعلنا أبناء الجسد، والثاني أبناء الروح، الأوّل يصيرنا أبناء الموت، والثاني أبناء القيامة. الأوّل يجعلنا أبناء الدهر، والثاني أبناء الله. الأوّل **يجعلنا أبناء اللعنة والغضب، والثاني أبناء البركة والمحبّة. الأوّل يقيدنا بأغلال الخطية الأصليّة، والثاني يحلّنا من رباطات كلّ خطية**".[٢٣٤]

وسبقه العلامة كبريانوس تلميذ العلامة ترتليان، إذ قال:

"إذا كان الذين أخطاوا سابقًا أمام الله، إذ يؤمنون يأخذون صفح خطاياهم، ولا يمنع أحد منهم عن المعموديّة والنعمة، وإن كان قد فعل خطايا غير محصاة. فالأطفال الذين ضميرهم غير متفتح ولم يخطئوا في شيء، **والذين نظرًا للخطية الكامنة فيهم وتدنّسوا بها وصاروا مشاركي الموت الآدمي، يحتاجون أيضًا إلى المعموديّة لأنّها شرط لنوال الخلاص والصفح**، ليس

[٢٣٤] تفسير انجيل يوحنا فصل ١٩.

عن الخطايا الشخصيّة بل الأبويّة. وقد حدّد مجمعنا "بأنّه لايجوز أن نمنع أحدًا من المعموديّة ونعمة الله الذي هو صالح ورؤوف بالجميع. فالمعموديّة هيَ للجميع وخصوصًا للأطفال الصغار، الذين بنوع خصوصيّ يستميلون انتباهنا وصلاح الله".[٢٣٥]

فلماذا إذًا نُعمّد الأطفال؟ تتضح أهمّيّة معموديّة الأطفال من خلال تعاليم المسيح الآتية:

١- "**دعوا الأولاد يأتون إليَّ** ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات" (مت ١٩: ١٤ / ١٨: ٣ / مر ١٠: ١٥ / لو١٨: ١٥- ١٧)

٢- أنّه **جعلهم مقياسًا للكبار** في الدخول إلى ملكوت السموات بقوله:

"إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات" (مت ١٨: ٣).

٣- أوضح أنّ **قبولهم بمنزلة قبول شخصه** المبارك فقد قال:

"ومن قبل ولدًا واحدًا مثل هذا باسمي فقد قبلني" (مت ١٨: ٥).

٤- **نهانا عن احتقارهم** لاعتبارهم في عيني الله بقوله:

"انظروا لا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار لأنّي أقول لكم أنّ ملائكتهم في السموات ينظرون وجه أبي الذي في السموات" (مت١٨: ١٠).

٥- إنّ الأولاد بمنزلة الحملان الصغار. **والمسيح كراعٍ صالح يقود الخراف الكبار والحملان الصغار**. ولا تخفى علاقة الأولاد بوالديهم. وقد سبق إشعياء النبي فوصف المسيح بقوله:

"كراع يرعى قطيعه، بذراعه يجمع الحملان وفي حضنه يحملها ويقود المرضعات" (أش ٤٠: ١١). "ولما قدّموا الأطفال إلى الرّبّ يسوع احتضنهم ووضع يديه عليهم وباركهم" (مر ١٠: ١٦).

---

[٢٣٥] رسالة ٥٩.

إشارات من الكتاب المُقدّس لمعموديّة الأطفال

نرى بطرس الرسول في يوم الخمسين صرح بعماد الذين قبلوا المسيح من الكبار **ولم يتأخر أن يعلن لهم قبول أولادهم معهم** بقوله لهم:

"توبوا وليعتمد كلّ واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا، فتقبلوا عطية الروح القدس، لأن الموعد هو **لكم ولأولادكم**" (أع ٢: ٣٨).

ففي قوله (لكم ولأولادكم) تصريح واضح بقبول الأولاد في الإيمان والمعموديّة. وحيثما كرز الرسل بالإنجيل قبلوا عائلات **وعمّدهم مع أهالي بيوتهم**. ومن ذلك **ليدية بائعة الأرجوان** التي قبلت الإيمان واعتمدت هيَ وأهل بيتها (أع ١٦: ١٤و١٥) **وبيت استفانوس** (١كو١: ١٦) **والسجّان** الذي اعتمد هو والذين له أجمعون (أع ١٦: ٣٣).

تعاليم الآباء عن وجوب معموديّة الأطفال

قال القديس **إيرينئوس:**

"إنّ يسوع المسيح أتى لكي يخلص جميع البشر أعني الذين به ولدوا ثانية لله. سواء أكانوا أطفالًا أو شبانًا أو شيوخًا".[٢٣٦]

وقال القديس **غريغوريوس النيزنزيّ:**

"هل عندك طفل، فلا يأخذ فيه الشرّ فرصة، بل ليُقدّس وهو رضيع وليُكرّس للروح منذ نعومة أظفاره، إنَّكِ تخافين أيتها الأم من الختم بسبب ضعف الطبيعة بما أنّكِ ضعيفة النفس وقليلة الإيمان، لكن حنة قبل أن تلد صموئيل وعدت الله به، وبعد ولادته حالًا كرّسته وبالحُلّة الكهنوتيّة ربته، ولم تخف من الضعف البشريّ بل آمنت بالله".[٢٣٧]

[٢٣٦] ضد الهرطقات٥: ١١.
[٢٣٧] عظة في المعموديّة.

ويكتب القديس بولس الرسول:

"لأَنَّ الرَّجُلَ غَيْرَ الْمُؤْمِنِ مُقدّس فِي الْمَرْأَةِ، وَالْمَرْأَةُ غَيْرُ الْمُؤْمِنَةِ مُقدّسة فِي الرَّجُلِ. وَإِلاَّ فَأَوْلاَدُكُمْ نَجِسُونَ، وَأَمَّا الآنَ فَهُمْ مُقدّسونَ" (١كو٧: ١٤).

فالأطفال بحسب هذا النصّ مُقدّسين في إيمان والديهم، ليس أحد والديهم بل كليهما، أيّ أنّه باعتبار ما سيحدث سوف يتشرّب من أحد والديه هذا الإيمان. وعليه فهو مُقدّس غير حامل لخطية. ومن هذا النصّ أيضًا جائت فكرة الإشبين.

الأشبين

أمّا كلمة "أشبين" فإنّها **سريانيّة** الأصل **ومعناها الحارس أو الوصي**.

قال القديس ديونسيوس الأريوباغيّ عن هذه العادة:

"إنّ هذا الأمر أفتكر به معلمونا الإلهيّون (الرسل) ورأوه موافقًا أن يقبل الأطفال على هذا الوجه الشريف أعني أن يسلم الوالدان الطبيعيّان ولدهم لمربٍ صالح **وأن يبقى الولد فيما بعد تحت إدارته كأنّه تحت عنايه أب إلهيّ وكفيل لخلاص مُقدّس**، فمتمّم السرّ يرفعه وهو معترف إلى الحياة المُقدّسة طالبًا رفض الشيطان والإقرار الشريف".[٢٣٨]

وقال القديس يوحنا ذهبيّ الفم:

"وإن كان المعمدون أطفالًا أو طرشًا لا يستطيعون استماع التعليم **فليجاوب أشابينهم عنهم، وهكذا يُعمّدون حسب العادة"**.[٢٣٩]

وقال المطوَّب أغسطينوس:

"إننا نؤمن ونصدّق بتقوى وصواب أنّ إيمان الوالدين والأشابين يفيد الأطفال، وعلى هذا الإيمان يُعمّدون".[٢٤٠]

---

[٢٣٨] في رئاسة الكهنوت ٧: ١١.

[٢٣٩] على مز ١٤.

[٢٤٠] في السلطة الذاتية ٢٣: ٦٧ ورسالة ١٩٣: ٣.

المعموديّة بالتغطيس

العلامة **ترتليانوس:**

"حين نأتي إلى الماء نغطس ثلاث مرات".[241] وقال أيضًا: "لإنَّنا نغطس **لا مرة واحدة بل ثلاث مرات باسم كلّ واحد من الاقانيم"**.[242]

وقال القديس باسيليوس الكبير:

"فبثلاث **غطسات ودعاء مساوٍ لها في العدّد يتم سرّ المعموديّة العظيم**، لكي يتصوَّر رسم الموت وتستنير نفوس المعمدين بتسليم معرفة الله".[243]

إنَّ جميع آباء الكنيسة هكذا علموا وهكذا مارسوا، قال القديس يوستينوس:

"إنَّ جميع الذين يقتنعون ويصدقون بأن يصلوا ويطلبوا من الله بصوم مغفرة خطاياهم السالفة، ونحن نصلي ونصوم معهم، بعد ذلك نأتي بهم إلى حيث يوجد ماء. **وتُعاد ولادتهم بأسلوب إعادة الولادة الذي أعيدت به ولادتنا، لأنهم يستحمون حينئذ في الماء** على (اسم) أبي الكلّ الإله السيد ومخلّصنا يسوع المسيح والروح القدس".[244]

والقديس **كيرلس الأورشليميّ** يقول:

"كما أنّ الذي يدخل في الماء **ويُعمَّد ينغمر بالماء من كلّ جهة**. هكذا قد اعتموا تمامًا من الروح أيضًا، لكن الماء يغمر المُعمَّد من الخارج، وأمَّا الروح فيعمّد النفس داخليًّا بلا انقطاع".[245]

كما نجد له الكثير من الدلائل الكتابيّة، مثل:

---

[241] في الإكليل ٣.
[242] ضد براكسياس ٢٦.
[243] في الروح القدس فصل ١٥. والذهبيّ الفم في تفسير يوحنا (مقالة ٢٥: ٢) وأمبروسيوس في الأسرّار (٢: ٧) وجيروم ضد لوكيفروس (فصل ٤).
[244] الدفاع الأوّل ٧.
[245] عظة ٣: ٢.

أولًا: إنّ السيد المسيح له المجد الذي شرع هذا السرّ المُقدّس هكذا اعتمد، ليضع لنا مثالًا نحتذيه، فيقول الانجيل عن عماده "فلما اعتمد يسوع **صعد للوقت من الماء**" (مت٣: ١٦). وفي ذلك برهان جليّ على أنّه كان مغمورًا بالماء ونازلًا فيه حتّى أنّه صعد منه.

ثانيًا: إنَّ **يوحنا المعمدان والرسل** الذين سلمونا وديعة الإيمان هكذا مارسوا العماد، فيوحنا المعمدان عمد الذين أتوا اليه في نهر الاردن، ولو جاز العماد بسكب الماء أو رشه **لما كانت هناك حاجة للاتيان بهم إلى النهر**، بل كان قليل من الماء يكفي في الحال. **وفيلبس عمد الخصي** وزير كنداكة ملكة الحبشة بالتغطيس. حيث جاء في سفر الاعمال قوله: "فأمر أن تقف المركبة فنزلا كلاهما إلى الماء فيلبس والخصي فعمده. **ولما صعد من الماء** خطف روح الرّبّ فيلبس فلم يبصره الخصي أيضًا" (أع٨: ٢٦- ٣٩)، فلو كان العماد بالرش جائزا لقنع فيلبس بقليل من الماء يرشه على الخصي، وهو في المركبة دون أن يكلفه النزول إلى الماء.

ثالثًا: مما جاء في أقوال الرسل عن معنى المعموديّة: فقد قال بولس الرسول:

> "أم تجهلون أنّنا كلّ من اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته **فدفنا معه بالمعموديّة** للموت، حتّى كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضًا في جدّة الحياة، لأنّه إن كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته نصير أيضًا بقيامته" (رو٦: ٣- ٥).

وقال:

> "مدفونين **معه في المعموديّة** التي فيها أُقِمتُم أيضًا معه بإيمان عمل الله الذي أقامه من الأموات" (كو٢: ١٢).

ففي أقوال الرسول تشبيهات كثيرة، حيث شبّه المعموديّة بالقبر، والتغطيس بالدفن، والانتشال من الماء بالقيامة. ولا يصح تشبيه الموت مع المسيح إلّا بذلك. فحيث أنّ المعموديّة هيَ مثال موت المسيح ودفنه وقيامته، فلا يصح إتمامها إلّا بالتغطيس الذي به نتحد مع المسيح بشبه موته ودفنه. لأنّها تُمثِّل موتنا ودفننا وقيامتنا معه.

وأيضًا يدعو الرسول المعموديّة "**غُسلًا**" بقوله:

"لا بأعمال في بر عملناها نحن بل بمقتضى رحمته خلَّصنا **بغسل** الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس" (تى ٣: ٥).

وقد أشار حنانيا إلى هذا المعنى حيث قال لشاول:

"والآن لماذا تتوانى، قم واعتمد **واغسل** خطاياك داعيًا باسم الرّبّ" (أع ٢٢: ١٦).[٢٤٦]

والغسل لا يمكن أن يتمّ بالسكب أو بالرش بل بانغمار الجسم كلّه في الماء. إلّا في بعض **ظروف استثنائية** لا مناص منها، وعلى الخصوص **للمرضى والمقعدين** الذين لا يمكن عمادهم بالتغطيس.[٢٤٧]

القديس كبريانوس كتب في هذا الموضوع، فقال:

"إنّ سرّ العماد لا يعدم قوته ولا صحته اذا تمّ عن الضرورة بالرش ولا حاجة إلى إعادته".[٢٤٨]

المعموديّة باسم المسيح أو باسم الثالوث القدوس

تمّت المعموديّة في العصر الرسوليّ باسم المسيح يسوع (أع ٢: ٣٨، ٨: ١٦، ١٠: ٤٨، ١٩: ٢٠)، بينما تمّت أيضًا باسم الثالوث القدوس، وهذا واضح من أمر الرّبّ الصريح القائل "عمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس" (مت ٢٨: ١٩).

ثمّ فيما بعد، ولأجل الهرطقات التي ظهرت في وقت مُتأخر، ثبتت الكنيسة المعموديّة على اسم الثالوث القدوس، وقد ورد في القوانين الرسوليّة:

"إنّ كلّ أسقف أو قس لا يعمِّد حسب أمر الرّبّ بالآب والابن والروح القدس بل بثلاثة (آباء) عديمى الابتداء أو بثلاثة بنين أو بثلاثة معزيين، يُقطع".

---

[٢٤٦] راجع أيضًا (ابط ٣: ١٨- ٢١، أف ٥: ٢٦).

[٢٤٧] ترتليانوس في التوبة فصل ٦ وتاريخ يوسابيوس ٦: ٤٣ واغسطينوس في تفسير يوحنا ٨٠.

[٢٤٨] رسالة ٧٦.

وعن ذلك يقول القديس أوريجانوس:

"معموديّة الخلاص لا ينبغي أن تتمّم على وجه آخر إلَّا باسم الثالوث القدّوس أعني باستدعاء الآب والابن والروح القدس".

ويقول القديس كبريانوس:

"إنَّ الرّبّ ذاته أوصى بأن نعتمد باسم الثالوث القدّوس بجملته".[٢٤٩]

ويقول القديس أثناسيوس الرسوليّ:

"من يرفض هذا الأقنوم أو ذاك من الثالوث القدّوس، ويعتمد باسم الآب فقط، أو الابن وحده، أو الآب والابن خلا الروح القدس، فذاك لا يشترك بالسرّ أصلًا لأنَّ الكمال والخلاص هما في الثالوث".[٢٥٠]

عدم إعادة المعموديّة

طُرِح هذا الموضوع في القرون الأولى للمسيحيّة، أوّلًا في روما، ثمّ في شماليّ أفريقيا **بين كبريانوس أسقف قرطاجة وإسطفانوس أسقف روما.**

فالاضطهادات التي كانت تصيب المسيحيّين جعلت الكثيرين منهم يجحدون إيمانهم خوفًا من التعذيب والموت، ويقدّمون ذبائح لآلهة الوثنيين أو يشترون شهادات تفيد بأنّهم قدّموا ذبائح؛ **ولدى انقطاع الاضطهادات كانوا يطلبون قبولهم من جديد في حضن الكنيسة.**

كان أساقفة روما يقفون من هؤلاء المسيحيّين موقفًا متسامحًا، فيفرضون عليهم التوبة ووقت امتحان ثمّ يقبلونهم لسرّ الإفخارستيا. هكذا فعل البابا كالستوس (٢١٧- ٢٢٢)، ومن بعده البابا كرنيليوس (٢٥١- ٢٥٣). وقد **قاوم هذا الموقفَ بعض المتشدّدين من أمثال الكاهن هيبوليتوس** الذي حمل حملة عنيفة على البابا كالستوس، **والكاهن نوفاتيانوس** الذي قاوم البابا كرنيليوس في الموضوع عينه. ومن

---

[٢٤٩] رسالة ٧٣.

[٢٥٠] الرسالة إلى سرابيون.

تعاليم نوفاتيانوس **نشأت بدعة "الأطهار"** الذين كانوا يرفضون أن يُقبَل من جديد في الكنيسة مسيحيّ جحد إيمانه أو اقترف خطيئة ثقيلة، وينكرون صحة الأسرّار التي يمنحها كاهن غير "طاهر".

أمّا موقف الكنيسة فكان التسامح اقتداء بالسيّد المسيح الذي أن قَبِل توبة الخطأة وطلب ألاّ يُقلعَ الزؤان من حقل القمح (متى ١٣: ٢٤- ٣٠).

وفي شمالي أفريقيا **وقف كبريانوس أسقف قرطاجة الموقف عينه** الذي وقفه أساقفة روما، فقاومه **دوناتوس** وأنشأ كنيسة مستقلّة عُرفت في ما بعد **ببدعة "الدوناتيين"**. ومن ممارسات هؤلاء المبتدعين إعادة معمودية المسيحيّين الذين كانوا ينتقلون إليهم، **لاعتقادهم أنّ المعمودية غير صحيحة في كنيسة تتساهل مع الخطأة وجاحدي الإيمان**. وفي مقابل ذلك راح كبريانوس يعيد هو أيضًا معمودية الدوناتيين الذين كانوا يأتون إليهم.

وفي هذا الموضوع الأخير حصل جدال عنيف بين كبريانوس والبابا اسطفانوس أسقف روما **الذي أكّد بشدّة صحّة معمودية الدوناتيين**، وطلب من كبريانوس العدول عن إعادة معموديتهم. إلاّ أنّ كنيسة شمالي أفريقيا بقيت على موقفها، **ولم يحسم الخلاف بين الموقفين إلاّ سنة ٣١٤ في مجمع "آرل"** وبعد وفاة أهمّ المتخاصمين. وقد قرّر المجمع ما يلي:

"بالنسبة إلى الأفريقيّين الذين يتبعون شريعتهم الخاصّة بإعادة المعمودية، رأى المجمع أنّه إن قدّم أحد من الهرطقة إلى الكنيسة، يُسأَل عن قانون الإيمان الذي تعمّد فيه، فإن بدا واضحًا أنّه تعمّد في الآب والابن والروح القدس، **يُكتفى بأن توضع عليه الأيدي لينال الروح القدس**. أمّا إذا لم يستطع الإجابة عن الثالوث، فتُعاد معموديّتُه".[251]

احتدم النقاش من جديد **بين الدوناتيين والمطوَّب أغسطينوس**، الذي أظهر أنّ **صحّة العماد غير مرتبطة بقداسة الكاهن** الذي يمنح السرّ، بل بالسلطة التي منحها المسيح لكنيسته. **فالكاهن لا يعمّد باسمه الخاص**، بل باسم الكنيسة، والكنيسة تعمّد باسم المسيح: "أبطرس عمّد أم بولس أم يهوذا،

---

[251] *Denzinger, 53 (23), Cite dans Hamman (A), op. cit., p. 76.*

فالمسيح هو الذي يعمّد".[252] والأمر الوحيد المطلوب من خادم السرّ هو احترام قوانين الكنيسة في منح السرّ.

وسنة ٣٢٥ **أقرّ المجمع المسكونيّ الأوّل في القانون ٨ صحّة عماد النوفاتيين وكهنوتهم**، وهم "الذين يسمّون أنفسهم أطهارًا، إذا عادوا إلى الكنيسة الجامعة الرسوليّة"؛[253] ولكنّه في القانون ١٩ طلب إعادة معمودية "أتباع بولس السميساطي اللاجئين إلى الكنيسة الجامعة".[254] إنّ القدّيس أثناسيوس السكندريّ الذي كان له دور هام في المجمع، وكان بعد شماسًا إنجيليًا، يفسّر هذا القرار بقوله إنّ أتباع بولس السميساطي كانوا يمنحون المعمودية حسب الصيغة الكنسية الصحيحة، إلاّ أنّ إيمانهم بالثالوث القدّوس كان خاطئًا:

"فهم لا يعترفون بالآب الحقيقي، إذ ينكرون الذي وُلد منه وله جوهر مماثل؟ وينكرون أيضًا الابن الحقيقي؛ إذ يسمّون ابنًا آخر مؤكّدين أنّه مخلوق من العدم. فكيف إذن لا تكون المعمودية التي يمنحونها فارغة وباطلة؟ وكذلك القول عن أتباع آريوس. فإنّهم وإن حافظوا على قول الكتاب المُقدّس ولفظوا أسماء (الآب والابن والروح القدس)، إلاّ أنّهم يخدعون من ينال منهم المعمودية... **لأن من ينال المعمودية باسم من ليس بشيء لا ينال شيئًا، بل يتّحد بالخليقة ولا ينال منها أيّ عون**".[255]

وسنة ٣٨١ أقرّ المجمع المسكوني الثاني أن تعاد معمودية الآتين من بعض البدع كأتباع بولس السميساطي، و"أتباع افنوميوس الّذين يعمّدون بغطسة واحدة، والصابيليين الذين يعلّمون أنّ الآب هو نفسه الابن".

[252] في إنجيل يوحنا، ٥: ٧، ١٥، ١٨؛ ٦: ٧.
[253] حنانيا إلياس كتاب، مجموع الشرع الكنسي، بيروت، ١٩٧٥، ص ٦٣.
[254] المرجع السابق، ص ٩٣.
[255] ضد الآريوسيين، ٢: ٤٢، ٤٣.

أمّا سائر المبتدعين من "**آريوسيين وتبّاع مكدونيوس... والذين يدعون أنفسهم أطهارًا والأبوليناريين**، فيُقبَلون بعد أن يعطوا صكًا برفضهم ضلالاتهم ولعنهم كلّ بدعة لا تتّفق مع تعليم كنيسة الله الجامعة المُقدّسة الرسوليّة، **ومن ثمّ يُختَمون ويُمسَحون بالزيت المُقدّس**".[256]

وكذلك المجمع المنعقد في القسطنطينيّة سنة ٦٩١ والمدعوّ "مجمع القبّة" (أو ترولّو) وهو مجمع خلقيدونيّ، **أعاد هذا التمييز بين البدع التي تُعتبَر المعمودية فيها صحيحة وتلك التي تعتبر المعمودية فيها باطلة**. وأضاف أنّ "النساطرة وأتباع افتيخيوس وأتباع ديسقورس وساويرس... **يجب على كل منهم أن يقدّم صكًا مكتوبًا يرفض فيه بدعته، وبذلك يصيرون أهلًا لتناول سرّ الشركة المُقدّس**".[257]

من هذا نستخلص أنّ المعمودية باطلة في كنيسة لا تعتقد الاعتقاد الصحيح في الثالوث القدّوس، ويجب إعادة معمودية الذين ينتقلون منها إلى الكنيسة الأرثوذكسيّة. أمّا الكنائس التي تعترف بالثالوث القدوس، فمهما اختلفت في سائر المواضيع، تبقى المعمودية فيها صحيحة، ولا تعاد معمودية من ينتقل من إحدى هذه الكنائس إلى كنيسة أخرى.

"إنه ختم لا يمحى وخاتم لا ينكسر".[258]

"إنَّه ختم **الله**، وكما خلق الإنسان الأوّل على صورة الله ومثاله هكذا الذي يتبع الروح القدس يختم منه ويأخذ صورة الخالق".[259]

ويقول المطوَّب أغسطينوس:

"إنّ السمة السيديّة لا تُمحى البتة عن الذين نقتبلهم ولا نعمدهم ثانية".[260]

ويقول ترتليانوس:

"لا يجوز أن تعاد المعموديّة".[261]

---

[256] مجموع الشرع الكنسيّ، ٢٧٩.
[257] المرجع السابق، ص ٦٠٥، ٦٠٦.
[258] أوامر الرسل ك٣ فصل ١٦.
[259] جيروم على رسالة أفسّس ١: ١٣.
[260] رسالة ١٨٥ إلى بونيفاتيوس فصل ١٣.
[261] في العفة.

ويقول القديس يوحنا ذهبيّ الفم:

"قد دفنا معه بالمعموديّة للموت، وكما أنّه غير ممكن أن يصلب المسيح مرة ثانية، هكذا لا يقدر من قد اعتمد مرة أن يقبل معموديّة ثانية".[٢٦٢]

ويقول القديس إفرام السريانيّ:

"إنَّ الرّبَّ أوصى تلاميذه أن يُنقوا بمياه المعموديّة خطايا الطبيعة البشريّة مرة واحدة".[٢٦٣]

معموديّة الدم

معموديّة الدم نالها كلّ من نال الشهادة على اسم يسوع المسيح قبل العماد، إذ أنّ المعموديّة هيَ موت وقيامة مع المسيح، وقد مات هؤلاء فعليًّا وتعمّدوا في دمائهم التي سالت لأجل اسمه القدوس. وقد تأسّست تلك المعموديّة بناء على النصوص الآتية:

"كلّ من يعترف بي قدام الناس اعترف أنا أيضًا به قدام أبي في السموات" (مت ١٠: ٣٢)

"وإنَّ من أراد أن يُخلِّص نفسه يهلكها ومن يهلك نفسه من أجلي يجدها" (مت ١٦: ٢٥)

"طوبى للمطرودين من أجل البر لأنّ لهم ملكوت السموات" (٥: ١٠)

"قد غفرت خطاياها الكثيرة لأنّها أحبّت كثيرًا" (لو ٧: ٤٧)

"الذي يحبّني يحبّه أبي وأنا أحبّه وأظهر له ذاتي" (يو ١٤: ٢١)

"ليس لأحد حبّ أعظم من هذا أن يضع نفسه لأجل أحبائه. أنتم أحبائي إن فعلتم ما أوصيكم به" (يو ١٥: ١٣ و١٤).

وقد اعتبر آباء الكنيسة هذه المعموديّة اعتبارًا كبيرًا. فقد قال القديس كبريانوس:

"لا يجهل أحد أنّ الموعظين بعد استشهادهم لا يكونون غير معمدين، لأنّهم اصطبغوا أعظم صبغة وأشرفها، أي صبغة الدم التي تكلم عنها المخلِّص. والرّبّ يؤكِّد أيضًا أن المعتمدين بدمهم والمُقدّسين بالتعذيبات يضحون كاملين ويأخذون نعمة الموعد الإلهيّ".

---

[٢٦٢] عظة ١١: ٣ على رسالة العبرانين.

[٢٦٣] في الإيمان ٤: ٩.

وقال القديس كيرلس الأورشليميّ:

"من لايقبل المعموديّة في خلاص له. ما عدا الشهداء وحدهم الذين بدون الماء ينالون الخلاص. لأن المخلص لما كان يفتدى العالم كلّه بالصلب نخس في جنبه فخرج منه دم وماء، ليعتمد البعض بالماء في اوقات السلام، والبعض الآخر بدمهم في أوقات الاضطهادات. ان المخلص نفسه دعا الشهادة صبغة بقوله "هل تستطيعان أن تشربا الكأس التي اشربها أنا وأن تصبغا بالصبغة التي أصطبغ بها".[٢٦٤]

وقال القديس باسيليوس:

"إنَّ بعضًا نالوا الموت بالجهاد الذي عن حسن العبادة لأجل المسيح حقيقة لا اقتداء، ولم يحتاجوا إلى شيء من الرسوم التي من الماء لخلاصهم، لأنهم تعمدوا بدمهم".[٢٦٥]

وقال القديس غريغوريوس النيزنزيّ:

"إنّني أعرف معموديّة أُخرى أيضًا وهيَ معموديّة الشهادة والدم، المعموديّة التي تعمّدها مخلِّصنا نفسه. هذه المعموديّة هيَ أكثر مجدًا من غيرها".[٢٦٦]

وقال المطوَّب أغسطينوس عن أطفال بيت لحم:

"الطوبى لكم لأنّكم بعد الولادة وقبل المحاربة قد تكلّلتم بالظفر، وإنّي لا أرتاب في أنّ استشهادكم قد استحق لكم إكليل عدم الموت كما لا أرتاب في أنّ المعموديّة مفيدة للأطفال".

عطايا المعموديّة

أولًا: المعموديّة **تعتبر الولادة الثانية وتجدّد خلقة الإنسان روحيًا** وهذا ظاهر من قول الرّبّ يسوع لنيقوديموس:

"الحق الحق أقول لك أن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله"

[٢٦٤] عظة ٣: ٨.

[٢٦٥] في الروح القدس، ١٥.

[٢٦٦] عظة في عيد الظهور.

فلم يفهم نيقوديموس قصد المسيح وفسره تفسيرا حرفيا، وقال كيف يمكن الإنسان أن يولد وهو شيخ. العله يقدر أن يدخل بطن امه ثانية ويولد؟ ففسر له الرّبّ معنى كلامه بقوله:

"الحق الحق أقول لك أن كان احد لا يولد من الماء والروح لا يقدر ان يدخل ملكوت الله، وأردف هذا الكلام ببيان الفرق بين الولادة الجسدية والولادة الروحية بقوله: "المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح" ونظرا لان هذه الولادة الروحية سرّيّة لا تدرك كيفيتها قال له: "لا تتعجب انى قلت لك ينبغي ان تولدوا من فوق. الريح تهب من حيث تشاء وتسمع صوتها لكنك لا تعلم من اين تأتي ولا اللا أين تذهب، هكذا كلّ من ولد من الروح" (يو٣: ٣- ٨)

فظاهر من هذا الكلام الصريح أنّ الرّبّ يسوع يدعو المعموديّة ميلادًا ثانيًا، ويبيّن فعلها السرّيّ غير المنظور. وإلى ذلك أشار يوحنا المعمدان الذي أشاد بمعموديّة المسيح وقال عنه "هو سيعمدكم بالروح القدس ونار" (مت٣: ١١) وبولس الرسول يقول:

"لا بأعمال في بر عملناها نحن بل بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس" (تى٣: ٥).

ثانيًا: من نتائجها غير المنظورة: **التبرير وغفران الخطايا**. وهذا واضح أيضًا من كلام المخلص نفسه بأن:

"المولود من الجسد جسد هو، واما المولود من الروح فهو روح"

وقول بطرس الرسول:

"توبوا وليعتمد كلّ منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس" (أع ٢: ٣٨)

وقوله أيضًا:

"الذي مثاله يخلّصنا نحن الآن أي المعموديّة".

موضحًا بأنّ المُراد بها:

"لا إزالة وسخ الجسد، بل سؤال ضمير صالح عن الله" (١بط ٣: ٢١)

وقول بولس الرسول:

"أيها الرجال أحبّوا نساءكم كما أحبّ المسيح أيضًا الكنيسة وأسلم نفسه لأجلنا، لكي يقدّسها مطهرًا إياها بغسل الماء بالكلمة، لكي يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة لا دنس فيها ولا غضن، أو شيء من مثل ذلك، بل تكون مُقدّسة وبلا عيب" (اف ٥: ٢٥- ٢٧)

فيسميها الرسول هنا "غسل الماء" وفي (١كو ٦: ١١) ويقول:

"لكن اغتسلتم بل تقدستم بل تبرّرتم باسم الرّبّ يسوع وبروح إلهنا".

ثالثًا: إنّ المعموديّة تمنح الإنسان نعمة التبني حسب قول بولس الرسول:

"لإنّكم جميعًا أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع، لأنّ كلّكم الذين اعتمدتم بالمسيح، قد لبستم المسيح، ليس يهوديّ ولا يونانيّ، ليس عبد ولا حر، ليس ذكر وأنثى، لأنّكم جميعًا واحد في المسيح يسوع. فإن كنتم للمسيح فأنتم إذًا نسل إبراهيم وحسب الموعد ورثة" (غل ٣: ٢٦- ٢٩)

وقوله أيضًا:

"لإنّنا جميعنا بروح واحد أيضًا اعتمدنا إلى جسد واحد يهودًا كنا أم يونانيّين، عبيدًا أم أحرارًا. جميعنا سقينا روحًا واحدًا" (١كو ١٢: ١٣).[٢٦٧]

وقال القديس إكليمندس السكندريّ:

"هذا الأمر عينه يحصل لنا نحن أيضًا الذين قد صار لنا المسيح مثالًا، فإذ نعتمد نستنير، وإذ نستنير نتبني، وإذ نتبني نكمل، واذ نكمل نضحى غير مائتين. كما يقول "أنا قلت أنّكم آلهة

---

[٢٦٧] راجع أيضًا (أع ٢: ٤١، رو٦: ٣ و٤).

وبنو العلي جميعكم"، ويدعى هذا الفعل بأسماء كثيرة، أعني نعمة واستنارة وكمالًا وحميمًا. فهو نعمة إذ يقودنا إلى اللاهوت، وحميم لأنّنا به نغسل خطايانا".[٢٦٨]

وقال القديس غريغوريوس النيزنزيّ:

"إنَّ نعمة المعموديّة تنقي الإنسان من كلّ خطية وتغسله غسلًا كاملًا من الأوساخ والأقذار اللاحقة به من الرذيلة... وهيَ من حيث إنّها نجدة للولادة الأولى تجعلنا جدّدًا من عتق، وإلهيّين بدلًا مما نحن عليه".[٢٦٩]

وقال القديس باسيليوس الكبير:

"المعموديّة فدية المأسورين، وصفح الأوزار، وموت الخطية، وإعادة ولادة النفس، وثوب نير، وختم لا ينفك، ومركبة إلى السماء تؤدي إلى الملكوت، ومنحة التبني".[٢٧٠]

وقال القديس يوحنا ذهبيّ الفم:

"إنَّ المعموديّة النعمة تطهر كلّ إنسان سواء كان فاسدًا أو زانيًا، عابدًا للأصنام أو غير ذلك، لإنّه مهما كان غارقًا في الخطية فحالما يدخل مياه المعموديّة يخرج من هذه المياه الإلهيّة أنقى من أشعة الشمس عينها، وليس نقيًّا بل قديسًا بل بارًا أيضًا، لأنّ الرسول لم يقل: "واغتسلتم" فقط بل قال "وتقدستم وتبرّرتم باسم الرّبّ يسوع". ثمّ أنّه فضلًا عن نوالنا بالمعموديّة صفح الخطايا والتنقية من المآثم والمظالم، فإنّنا نولد بعد المعموديّة ولادة ثانية ونخلق ونصوَّر بها".[٢٧١]

وقال المطوَّب أغسطينوس:

"إنّنا بميلادنا من الماء والروح القدس نتطهر من كلّ خطية، سواء كانت من آدم الذي به أخطأ الجميع، أو بفعلنا وقولنا لأننا نغسل منها بالمعموديّة".[٢٧٢]

---

[٢٦٨] المربي كتاب ١ فصل ٦: ٢٢٦.

[٢٦٩] عظة في المعموديّة.

[٢٧٠] عظات منسوبة للقديس باسليوس، على المعموديّة فصل ١٦.

[٢٧١] عظات على المعموديّة فصل ٣.

[٢٧٢] رسالة ١٧٨: ٢٨.

خادم السرّ

إنَّ الرّبّ يسوع قد جعل حق التعميد **للرسل** حيث قال لهم "اذهبوا وتلمذوا جميع الامم وعمدوهم الخ" (مت ٢٨: ١٩، مر ١٦: ١٦) وقد **انتقل هذا الحق من الرسل إلى خلفائهم الاساقفة، ومن الاساقفة إلى القسوس** أي ان الذين لهم حق التعميد هم الاساقفة والقسوس لا غير مع خدمة الشماس معهم. وقد نصت القوانين الرسوليّة هكذا:

"إنّنا لا نسمح بحق التعميد لأحد من الإكليروسيّين مثل القارئين والمرتلين والبوابين والخدمة، إلَّا للأساقفة والقسوس وحدهم، الذين يخدم معهم الشمامسة".

وقد أثبت ذلك جميع آباء الكنيسة. فقد قال القديس أغناطيوس الشهيد في رسالته إلى أهل أزمير:

"لا يسمح لكم أن تعمدوا بدون أسقف ولا أن تقربوا قرابين ولا أن تقدموا ذبيحة"

وقال العلامة ترتليانوس:

"إنَّ السلطة في تتميم المعموديّة منوطة بالأسقف ثمّ القسوس مع الشمامسة".

وقال القديس أبيفانيوس:

"إنّه حسب النظام الكنسيّ لا يتمّم الشمامسة سرًّا من الأسرّار، ولكنهم يخدمون في خدمة الأسرار، غير أنّه حينما تدعو الضرورة يسمح للعالمين أيضًا أن يعمدوا".[٢٧٣]

---

[٢٧٣] بناريون، ٨٩.

الميرون

في الكتاب المُقدّس

"لما سمع الرسل الذين في أورشليم أن السامرة قد قبلت كلمة الله أرسلوا اليهم بطرس ويوحنا. اللذين لما نزلا صليا لاجلهم لكي يقبلوا الروح القدس. لأنه لم يكن قد حل بعد على احد منهم. غير انهم كانوا معتمدين باسم الرّبّ يسوع. **حينئذ وضعا الأيادي عليهم فقبلوا الروح القدس**" (أع ٨: ١٤- ١٧)

فمن قوله "غير انهم كانوا معتمدين باسم الرّبّ يسوع" يتضح ان سرّ المعموديّة ليس هو قبول الروح القدس للتثبيت الذي لا يحل الا بواسطة سرّ الميرون.

وكذلك لما جاء بولس الرسول إلى افسّس:

"فإذ وجد تلاميذه قال لهم هل قبلتم الروح القدس لما آمنتم: قالوا له ولا سمعنا أنّه يوجد الروح القدس. فقال لهم فبماذا اعتمدتم؟ فقالوا بمعموديّة يوحنا. فقال بولس إنَّ يوحنا عمَّد بمعموديّة التوبة قائلًا للشعب أن يؤمنوا بالذي يأتي بعده أي بالمسيح يسوع. فلما سمعوا اعتمدوا باسم الرّبّ يسوع. **ولما وضع بولس يده عليهم حل الروح القدس عليهم**" (أع ١٩: ٢ و٦).

ويكتب في موضع آخر:

"ولكن الذي يثبتنا معكم في المسيح **وقد مسحنا هو الله الذي ختمنا أيضًا** وأعطى **عربون الروح في قلوبنا**" (٢كو ١: ٢١ و٢٢)

وعند كلامه عن المعموديّة يقول:

"لكن اغتسلتم ـ ثمّ يردفها بقوله ـ بل تقدستم" (١كو ٦: ١١)

ويقول أيضًا:

"خلصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس" (تي ٣: ٥، أف ٥: ٢٦)

وفي (عب ٦: ٢) يشير إلى تعليم المعموديات ووضع الايادى، وفي ذلك دلالة ظاهرة على أن وضع الأيادي خلاف المعموديّة.

عند الآباء

وُجِد سرّ الميرون، أو وضع الأيدي في العصر المسيحيّ الأوّل كعادة مقبولة من عامّة الكنائس، يتضح من الكتاب المدعو القوانين الرسوليّة،[٢٧٤] ومن جيروم.[٢٧٥] وأخذوا يستعملون عبارات تشعر أنّ الروح القدس كان يُعطى مع الزيت.[٢٧٦] قال القديس ديوناسيوس الأريوباغيّ في كلامه عن سرّ الشركة:

"لكن توجد تكملة أخرى معادلة لهذه (أي الشركة) يسميها معلمونا الرسل" (تكملة الميرون)"

ثم أخذ في شرح تجهيز الميرون وكيف تتمّ المسحة على المعتمدين. والمواهب التي تمنحها إلى أن قال

"إنّ مسحة التكميل بالميرون المُقدّس لمن استحق سرّ الولادة الثانية يمنحها حلول الروح ذي العزة الإلهيّة".[٢٧٧]

وقال العلامة ترتليانوس:

"بعد خروجنا من حميم المعموديّة **مسحنا بزيت مُقدّس تبعا للتكملة القديمة، كما كانوا قديما يدهنون بزيت القرن لنوال الكهنوت**... ان المسحة تتم علينا جسديا لكننا نستثمر منها اثمارا روحية، كما في المعموديّة حيث نعتمد جسديا بالماء ونستثمر اثمارا روحية إذ نتنقى من الخطايا. **وبعد ذلك توضع اليد التي مع البركة تستدعى الروح القدس** وتحدره".[٢٧٨]

---

[٢٧٤] ٣: ١٧؛ ٧: ٢٢.

[٢٧٥] في نبوة حزقيال، ٩. كما نجده أيضًا عند ديوناسيوس الأريوباغيّ في (كتاب رئاسة الكهنوت ٧: ٤- ٧) وكيرلس الأورشليميّ في (مقالة عن الأسرار) ويوحنا ذهبيّ الفم في (تفسير ٢كو فصل ٢) وأمبروسيوس في (الأسرار فصل ٥).

[٢٧٦] حتّى إنّنا نجد عبارات مثل هذه في كبريانوس (رسالة ٧٠ إلى يانواريوس) وأمبروسيوس(الأسرار، ٧) وأغسطينوس (فصل ٦ في تفسير رسالة يوحنا).

[٢٧٧] كتاب رئاسة الكهنوت ٤: ١و ١١، ٢: ٨.

[٢٧٨] في المعموديّة، ٧، وضد مركيانوس ٣: ٢٢.

وقال القديس كبريانوس:

"من **اعتمد ينبغي أن يمسح أيضًا** لكي يصير بواسطة المسحة ممسوحًا لله ويأخذ نعمة المسيح".[279]

وقال في (رسالة ٧٢ عن الهرطقة): "لإنّهم لا يستطيعون أن يتقدّسوا تمامًا ويصيروا أبناء الله **بدون إعادة ولادتهم بواسطة السرّين**".

وقال أيضًا في (رسالة ٧٣): "كما أنّ الرسولين بطرس ويوحنا بعد صّلاة واحدة استحدار الروح القدس على سكان السامرة بوضع الأيادي، **هكذا في الكنيسة أيضًا من ذلك الحين جميع المعمدين ينالون الروح القدس ويختمون بختمه عند دعاء الكهنة ووضع أياديهم**".

وقد ورد في أوامر الرسل:

"بعد هذا فليعمده الكاهن باسم الآب والابن والروح القدس **وليمسحه بالميرون**".[280]

وقال القديس كيرلس الأورشليميّ:

"قد صرتم مسحاء إذ قَبِلتم الروح القدس، وكلّ شيء قد صار عليكم بحسب الرسم إذ أنّكم رسوم المسيح، فإنّه لما استحم في نهر الأردن وصعد منه، انحدر الروح القدس عليه جوهريًّا واستراح المثيل على مثيله، ونحن أيضًا بعد أن صعدنا من جرن الينابيع المُقدّسة مُنِحَت لنا المسحة رسميًّا كما مُسِح بها المسيح... لكن انظر واحترس من أن تظن ذاك الميرون بسيطًا، لأنّه كما أنّ خبز الشكر بعد استدعاء الروح ليس خبزًا بسيطًا، بل هو جسد المسيح. هكذا هذا الميرون المُقدّس لا يُعدّ ميرونًا بسيطًا ولا عموميًّا بعد الدعاء، بل موهبة المسيح وحضور الروح القدس فاعلًا فعل إلوهيّته فتمسح به على جبهتك وسائر حواسك، والمسيح هو الذي رُسِم. فإنّ الجسم يدهن بالميرون الظاهر ولكن النفس تُقدَّس معًا بالروح القدس المحيي".[281]

---

[279] رسالة ٧٠.

[280] ٧: ٤٣.

[281] تعليم الأسرّار ٣: ٣.

وقال القديس إفرام السريانيّ:

"إنّ سفينة نوح كانت تُبشِّر بمجيء المزمع أن يسوس كنيسته في المياه، وأن يرتد أعضاؤها إلى الحرّيّة باسم الثالوث القدّوس. **وأمّا الحمامة فكانت ترمز إلى الروح القدس المزمع أن يصنع مسحة هيَ سرّ الخلاص**".[٢٨٢]

وقال القديس كيرلس السكندريّ:

"إنّ الميرون يشير حسنًا إلى مسحة الروح القدس".[٢٨٣]

كما قال القديس كيرلس الأورشليميّ في مقالته الثالثة عن الأسرار:

"بعد خروجنا من جرن مجاري المياه المُقدّسة أعطيت المسحة وهيَ رسم المسحة التي مسح بها المسيح فهذه هيَ الروح القدس".

وورد في مجمع اللاذقية:

"يجب على المستنيرين أن يمسحوا بعد المعموديّة بمسحة سمائيّة ويشتركوا في ملكوت المسيح".

خادم السرّ

إنَّ الكنيسة الأرثوذكسيّة تُعلِّم أنّ تكريس سرّ الميرون **هو من حق الأساقفة فقط، أمَّا إتمامه فلا يختصّ بالأساقفة وحدهم بل بالقسوس أيضًا**. فقد ورد في أوامر الرسل:

"أيها الأسقف أو القس قد رتبنا سابقًا والآن نقول.. ينبغي أن تُدهن أولًا بزيت ثمّ تعمِّد بماء وأخيرًا تختم بالميرون".

[٢٨٢] عظة ١٩ ضد الفاحصين.

[٢٨٣] على يوئيل ٢: ٢٣.

والقديس أمبروسيوس يؤكِّد أنّ مسحة الميرون تتمم من القس، وأنّه عندما يصلى يحلّ الروح القدس، فيكتب:

"فعندما تتقدّم بهذا (أي بعد المعموديّة) إلى الكاهن، تأمل ماذا يتمّ. أليس ما قاله داود: مثل الدهن على الرأس النازل على اللحية لحية هارون، هذا هو الميرون..".[٢٨٤]

وقال القديس يوحنا ذهبيّ الفم:

"لإنّهم (أي الأساقفة) يعلون على القسوس بالشرطونيّة وحدها فقط، وبها وحدها يظهر أنّهم يسمون عليهم".[٢٨٥]

وقال المطوَّب جيروم:

"ما الذي يصنعه الأسقف ولا يصنعه القس غير الشرطونية".[٢٨٦]

أمَّا استناد الذين يقولون إنّ حقّ المسحة للأساقفة وحدهم بناء على ما جاء في (أع ٨: ١٤– ١٦)، من جهة إرسال بطرس ويوحنا إلى أهل السامرة لوضع أيديهما عليهم لحلول الروح القدس، فهذا لأنّ فيلبس الذي عمّدهم كان شماسًا ولم يكن قسًا، ولذلك قال يوحنا ذهبيّ الفم:

"لماذا لم يكن هؤلاء السامريّون قد نالوا الروح القدس بعد التعميد؟ لإنّ فيلبس لم يمنحهم إياه اعتبارًا للرسل على رأي بعضهم. وإمّا لأنّه لم تكن له هذه السلطة بما أنّه كان واحدًا من الشمامسة السبعة وهذا هو الأرجح".[٢٨٧]

نفاذ الميرون

في القرن الثاني عشر وُجِدَت رسالة من أسقف مصريّ مرسلة إلى كلّ من: ديونسيوس الصليبيّ والبطريرك ميخائيل الكبير، جاء فيها:

---

[٢٨٤] في الأسرّار فصل ٧.

[٢٨٥] مقالة ١٠: ١ على ١تى.

[٢٨٦] رسالة ١٤٥: ١.

[٢٨٧] مقالة ١٨: ٣ على سفر الأعمال.

"لم يزل العماد بالدهن الموروث المُقدّس الذي كان من الحنوط إلى أن أُهمِل أمره، ونفذ".

لكن، لنذكر دائمًا، أنّ للكنيسة الحقّ في إعادة تقديس الخليقة كلّها، وليس الميرون فقط، فالمسيح إلهنا ذاته يعمل من خلالها وفيها، إذ هيَ جسده ذاته، هيَ امتداد تجسيد الله في العالم.

الإفخارستيّا

كلمة يونانيّة بمعنى الشكر. وترد الكلمة في المصطلحات الكنسيّة أحيانًا بشكل مختلف فتصبح بمعنى الشكر الإلهيّ، **أي شكر نعبر عنه بتقدمة ما، سواء بالتسبيح أو بالصّلوات أو بالذبائح**، فالقديس **إيرينئوس**[٢٨٨] يرى أنّ من الأهداف الأساسيّة لسرّ "الإفخارستيّا" هو أن **يقدِّم الإنسان ـ بلسان الخليقة كلّها ـ شكرًا لله من أجل خلق العالم وما أُعطيَّ له من بركات.**

إذًا، **فالفكر المدرسيّ والذي اعتبر أنّ الإفخارستيّا فقط مجرّد سرّ من أسرّار الكنيسة، قد همّش كلّ التقليد اللّتورجيّ**، الذي كان يرى **الإفخارستيّا مركزًا ومنبعًا لحياة الكنيسة**، وليست لإرضاء مطالب المؤمنين الخاصة والفرديّة.

إنَّ هدف العبادة هو التعبير الدائم عن الكنيسة كوحدة الجسد والمسيح هو رأسها، وأن نعبد الله "بفم واحد وقلب واحد". الإفخارستيّا هيَ سرّ الكنيسة الأساسيّ، بمعنى تحقيقها كجسد المسيح، متحدة بالمسيح، بواسطة الروح القدس. وبالتالي فإنّ سرّ الإفخارستيّا ليس أعظم أو أهمّ سرّ لّتورجيّ في الكنيسة، بل هو مصدر وهدف كلّ الحياة اللّتورجيّة للكنيسة، فأي تعليم لّتورجيّ لا يأخذ الإفخارستيّا كأساس للبنية الجامعة له؛ هو في الأساس تعليم ناقص. وعلى ذلك، يجب أن نعرف الخط أو الهدف العام اللّيتورجيّ، ثمّ بعد ذلك كلّ لّيتورجيّة على حدة، وذلك مثل البناء تمامًا يجب أن نعرف التخطيط العام له، قبل أن ندرس كلّ وحدة على حدى.

هكذا فإذا كانت **الإفخارستيّا هيَ مصدر وهدف الكنيسة، وهيَ مركز العبادة اللّتورجيّة، فبقية الأسرّار تقود إلى هذا المركز**، لذلك فإنّ التعاليم اللاهوتيّة لكل سرّ ترتبط دائمًا بمفهوم طقس الإفخارستيّا، وأيضًا صّلوات السواعي اليوميّة، والطقس الأسبوعيّ، والسنة الطقسيّة يجب أن ترتبط في دراستها بالإفخارستيّا. وهكذا فإنّ اللّيتورجيَّات المتعلقة باحتياجات المؤمنين مثل سرّ مسحة المرضى، وسر الزيجة، وسر التوبة والاعتراف، وأيضًا الصلّاة على الموتى، وأي صلوة كنسية مثل صّلاة الحميم، وصّلاة تبريك المنازل... إلخ. كلّها تصب في سرّ الإفخارستيّا.

---

[٢٨٨] إيرينئوس: ضد الهرطقات ٤: ١٨: ١٤.

ويشير القديس غريغوريوس اللاهوتي إلى أنّ:

"**الاشتراك المنتظم في سرّ الإفخارستيّا، هو أمر هامّ وضروريّ للكمال في الحياة المسيحيّة**. لأنّه بواسطة التناول من جسد المسيح ودمه، **ترتبط حياة المؤمنين بحياة المسيح**. وعدم الشركة في هذا السرّ يؤدي إلى تأثيرات سلبيّة وضارة على الحياة الروحيّة. لأنّ تنازل الله نحو الإنسان في هذا السرّ العظيم، يتطلّب أيضًا ارتفاع الإنسان نحو الله".[٢٨٩]

تأسيس السرّ

جاء الوقت الذي فيه يقدِّم المسيح نفسه ذبيحة لله أبيه لأجل خلاصنا. ففي ذلك الوقت **قبل أن يقدِّم اليهود فصحهم بيوم واحد، أرسل الرّبّ اثنين من تلاميذه إلى أورشليم ليعدا الفصح** وفي الليلة التي فيها أُسلِمَ حضر مع تلاميذه الاثنى عشر إلى عُليّة صهيون وهُناك غسل أرجل تلاميذه مُعلِّمًا إياهم التواضع، ثمّ سلّمهم سرّ جسده ودمه القدّوسين كما يقول القديس متّى الإنجيليّ:

"وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي. وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلًا اشربوا منها كلّكم، لأنّ هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يُسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا" (مت ٢٦: ٢٦- ٢٨).

وقد كتب بولس الرسول قائلًا:

"لإنّني تسلّمت من الرّبّ ما سلمتكم أيضًا أنّ الرّبّ يسوع في الليلة التي أسلم فيها أخذ خبزًا وشكر فكسر وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي المكسور لأجلكم. اصنعوا هذا لذكري. كذلك الكأس أيضًا بعد ما تعشوا قائلًا: "هذه الكأس هيَ العهد الجديد بدمي اصنعوا هذا كلّما شربتم لذكري، فإنّكم كلّما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرّبّ إلى أن يجيء. إذًا أي من أكل هذا الخبز أو شرب كأس الرّبّ بدون استحقاق يكون مجرمًا في جسد الرّبّ ودمه. ولكن ليمتحن الإنسان نفسه وهكذا يأكل من الخبز ويشرب من الكأس لأنّ

---

[٣] القديس غريغوريوس اللاهوتي: عظة على عيد الخمسين ١٢:٤١، *P.G. 36, 445B*

الذي يأكل ويشرب بدون استحقاق يأكل ويشرب دينونة لنفسه غير مميّز جسد الرّبّ. من أجل هذا فيكم كثيرون ضعفاء ومرضى وكثيرون يرقدون" (١كو ١١: ٢٣- ٣٠).

عند الآباء

قال القديس إغناطيوس عن الهراطقة:

"إنّهم يبتعدون عن الإفخارستيّا والصلّاة لعدم اعترافهم بأن الإفخارستيّا هيَ جسد مُخلِّصنا يسوع المسيح الذي تألم لأجلنا والذي أقامه الآب بصلاحه".[٢٩٠]

وقال القديس يوستينوس الفيلسوف الشهيد:

"لاننا لا **نتناولهما بمثابة خبز عادى**، لكن كما أنّه بكلمة الله لما تجسد يسوع المسيح مخلصنا قد اتخذ لأجل خلاصنا لحما ودما، هكذا تعلمنا أن الغذاء الذي شكر عليه بدعاء كلامه وبه يغتذى لحمنا ودمنا بحسب الاستحالة هو لحم ودم ذلك المتجسد".[٢٩١] "وبعد أن يتمم الخادم الشكر ويقول الشعب "آمين" يناول الشمامسة جميع الحاضرين من الخبز والخمر والماء، ويحفظون جزءًا من التقدمة للغائبين".[٢٩٢]

وقال القديس إيرينئوس عن الهراطقة:

"كيف يستطيعون أن يدركوا أنّ الخبز الذي عليه تمّ الشكر هو جسد الرب، وأنّ هذه الكأس هيَ كأس دمه، ما لم يفهموا أنّه هو ابن صانع العالم".[٢٩٣]

وقال أيضًا:

"لو كانوا يتناولون الكأس وهيَ ممزوجة بالماء ويتناولون الخبز وهو معد ككلمة الله ذاته، ولو كانت لهم هكذا شركة الخبز والخمر سرّ شكر جسد المسيح ودمه اللذين يغذيان ويثبتان وجود

---

[٢٩٠] رسالة إلى أزمير ٧.
[٢٩١] الدفاع الأوّل ١: ٦٦؛
[٢٩٢] الدفاع الأوّل، ١: ٨٥.
[٢٩٣] ضد الهرطقات ٤: ١٨، ٤و٥.

جسدنا، فكيف يستطيعون أن يقولوا إنّ هذا الجسد الذي يغتذى من جسد المسيح ودمه لا يشترك بموهبة الله الذي هو الحياة الأبديّة''.[٢٩٤]

وقال القديس كيرلس الأورشليميّ:

''لكونه هو نفسه تكلم وقال عن الخبز هذا جسدي فمن يجسر بعد ذلك أن يرتاب، ولكونه هو نفسه ثبت وقال هذا هو دمي فمن يتوهم أو يقول إنّه ليس دمه؟ لإنّ الذي حوَّل من الماء إلى خمر في قانا الجليل بإشارته، أفليس مصدقًا إذا قال إنّه حوَّل الخمر إلى دم؟ وقد دعى إلى عرس جسدي فصنع فيه تلك العجيبة الفائقة. فكيف لا نعترف له بالأحرى بأنّه منح بني العرس التمتع بجسده ودمه؟ فلنتناولهما إذًا باليقين التام أنّهما جسد المسيح ودمه. لإنّه برسم الخبز يعطى لك الجسد، وبرسم الخمر يعطى لك الدم، لكي بتناولك من جسد المسيح ودمه تصير متحدًا معه جسدًا ودمًا. لإنّنا بهذه الحالة نصير لابسي المسيح، أي بامتزاج جسده ودمه في أعضائنا، وبهذه الواسطة نصير مشاركي الطبيعة الإلهيّة كما يقول بطرس المغبوط. فلا تنظر إذًا إلى الخبز والخمر كأنّهما عاديان، إذ هما جسد ودم حسب القول السيديّ. لإنّه وإن كان الحسّ يظهرهما لك عاديّين لكن الإيمان يحقّق لك أنّهما جسد ودم. فلا تحكم إذًا بحسب الذوق الحسّيّ بل تحقق من الإيمان وتأكد بلا ارتياب أنّك قد أُهِلت لجسد المسيح ودمه''.[٢٩٥]

وقال القديس يوحنا ذهبيّ الفم:

''كم منكم يقول الآن ليتني كنت أرى هيئة الرّبّ وشكله وملابسه. أنت تنظر وتلمسه وتأكله هو نفسه، وأنت تشتهي أن ترى ملابسه مع أنّه هو يعطيك ذاته، لا لتراه فقط بل لتلمسه أيضًا ولتأكله ولتأخذه في داخلك، فلا يتقدّم أحد غافلًا ولا متراخيًّا، بل فلنبادر جميعنا بحماسة وحمية ونهضة.. ويجب أن نكون من كلّ جهة ساهرين، لأن القصاص المعدّ للمشتركين على خلاف الاستحقاق ليس صغيرًا. تفطن كم أنت تتمرمر من الذي خانه ومن الذي صلبوه.

---

[٢٩٤] ضد الهرطقات ٥: ٢، ٤: ١٧: ٥،٢٣: ٢.

[٢٩٥] في الأسرّار ٤: ١-٦.

فاحترس إذًا من أن تصير أنت أيضًا مجرمًا في جسد المسيح ودمه. فإنّ أولئك قد ذبحوا الجسد الكلّيّ قدسه، وأمّا أنت فتقتبله حينئذ بنفس دنسة بعد إحسانات كثيرة جدًّا. لإنّه لم يكتف بأن يصير إنسانًا ويُضرَب ويُذبَح عنّا، بل أن يمزج ذاته فينا، لا بالإيمان فقط بل بالفعل أيضًا، جاعلًا إيانا جسدًا له، أفلا ينبغي ألّا نكون أقل نقاوة من الذي يتمتع بهذه الذبيحة. وأي شعاع شمسيّ يجب ألّايكون أقل بهاء من اليد التي تقطع هذا الجسد، والفم الذي يمتلىء من النار الروحانيّة، واللسان الذي يصطبغ بالدم المخوف؟ فتأمّل الكرامة التي كُرِّمتها والمائدة التي تتمتع بها. إنّ الذي تنظر اليه الملائكة وترتعد ولا تجسر أن تحدِّق به بلا خوف من البرق الساطع منه، هذا نفسه نحن نغتذي به، وبه ننعجن وقد صرنا جسدًا واحدًا للمسيح لحمًا ودمًا. من يتكلم بعظائم الرّبّ ويجعل تسابيحه مسموعة؟ أي راع يغذي خرافه بأعضائه. وما لي أذكر الراعي. كثيرًا ما دفعت أمهات أولادهن بعد أوجاعهن إلى مرضعات أخر. وهو لم يطق أن يفعل ذلك، بل شاء هو نفسه أن يغذينا بدمه ويجعلنا مرتبطين ومتحدين بذاته بكلّ الوسائط".[٢٩٦]

وقال المطوّب أمبروسيوس:

"هذا الجسد الذي نقدِّمه في سرّ الشكر قد جاء من البتول. ولماذا تبحثون هُنا وتطلبون العمل الطبيعيّ والموضوع هو جسد يسوع المسيح. أفلم يولد الرّبّ نفسه من البتول بحال تفوق الطبيعة. هذه هيَ بشرة يسوع المسيح المصلوبة والمدفونة. فهذا هو إذًا سرّ الجسد بعينه بكلّ الحقيقة".[٢٩٧]

كأنّه يقول كيف آمنتم بسر تجسده الفائق الطبيعة ثمّ تحاولون وضع سرّ الشكر تحت البحث العقليّ فقط مُجرّدًا من الإيمان. والخلاصة أنّ هذا الإيمان هو إيمان جميع الآباء في كلّ عصر منذ نشأت الكنيسة حتّى الآن، تجد هذا التعليم في مؤلفات القديس إكليمندس السكندريّ (كتاب المربى ١: ٦١، ١١: ٥)

---

[٢٩٦] تفسير متّى مقالة ٨٢: ٤ و٥.

[٢٩٧] في الأسرّار ٩: ٥٣، ٨: ٣٧ و٤٨.

والعلامة ترتليانوس في (كتابة ضد مركيون ٥: ٨) وديوناسيوس السكندريّ في (مجمع القوانين) والقديس باسيليوس في (رسالته ٩٣) والقديس أبيفانيوس والقديس كيرلس السكندريّ في (تفسير يوحنا ٢٠: ٣٧ وضد نسطور ٤: ٥: ٦) وغيرهم من الآباء.

وفي رسالة القديس كيرلس بطريرك الإسكندريّة إلى نسطور:

"إنّنا نادي بأنّ ابن الله الوحيد ربنا يسوع المسيح مات بالجسد، ونقرّ بقيامته وبصعوده إلى السموات، فنتمّم في الكنائس الذبيحة غير الدمويّة، وهكذا نقترب من الأسرّار المباركة ونتقدّس إذ نشارك جسد يسوع المسيح مخلِّصنا المُقدّس ودمه الكريم.. لكن لا ينبغي أن ننظر إلى جسده كما إلى جسد إنسان يماثلنا من كلّ الوجوه في أهوائنا، بل يجب أن نوقن أنّه بالحقيقة جسد الذي قد صار لأجلنا ابن الإنسان نفسه".[٢٩٨]

وشهادة القديس كبريانوس الذي يقول:

"إنّنا نحثهم ونحرضهم على الجهاد ولا نتركهم بلا سلاح، بل نحصنهم بالسلاح الكامل وهو جسد ودم المسيح، لأنّنا كيف نعلم أن ندعو إلى الاعتراف باسمه أن يهرقوا دمهم إذا كنّا لا نمنح دم المسيح للمجاهدين عنه؟".[٢٩٩]

هل الإفخارستيّا مجرد ذكرى؟

من قول السيد: "**خذوا كلوا هذا هو جسدي ـ خذوا اشربوا هذا هو دمي**"..

يتضح لنا أن الإفخارستيّا هيَ **جسد حقيقيّ ودم حقيقيّ** لربنا يسوع المسيح وليست رموزًا. أي أنّ الخبز الذي قدّمه يسوع إلى تلاميذه، لا يرمز لجسده ولكن هو جسده، كذلك عصير الكرمة لا يرمز إلى دمه، بل هو دمه. وما يؤكّد لنا هذا:

١ ـ إنّ **اسم الإشارة** "هذا" يعود على الخبز الذي في يد الرّبّ وكذلك في حالة الكأس.

---

[٢٩٨] ذُكِرَ في مجمع أفسّس الجلسة الأولى.

[٢٩٩] رسالة ٥٤، اقرأ أيضًا: كيرلس الأورشليميّ في (الأسرار٤: ٣ و٦)، والقديس يوحنا ذهبيّ الفم في (مقالة ٨٢ على تفسير متّى)، والقديس أمبروسيوس في (الأسرار٨: ٥٨)، والقديس إيريئوس (ضد الهرطقات ٤: ١٨: ٥، ٥: ٢)، وترتليانوس في (قيامة الأموات فصل ٨).

٢ ـ إنّ **الكلمة المترجمة "هو"** في الأصل اليونانى للأناجيل الثلاثة **تأتي كفعل "يكون"** أي عبارات السيد المسيح تُترجم هكذا: **هذا يكون جسدي، هذا يكون دمي.**

٣ ـ **استخدام الفعل "يكون"** هنا لا يترك أي مجال للتفكير في الرمزية للجسد والدم بالخبز والخمر.

٤ ـ في (١كو١٠:١٦) يؤكِّد الرسول بولس على أن الأكل من الخبز والشرب من الكأس في سرّ الشكر الإلهيّ، **هما شركة حقيقيّة في جسد ودم المسيح.**

٥ ـ وفي (١كو١١:٢٧) يذكر أن **من يتناول بدون استحقاق** من سرّ الإفخارستيّا هو مذنب أمام نفس جسد ودم المسيح وليس أمام شيء مماثل لهما.

٦ ـ وفي (يو٦:٥٣) أشار السيد إلى أن **من لا يأكل جسد ابن الإنسان ويشرب دمه –وليس من شيء مماثل لهما– لن تكون له حياة.**

٧ ـ يقول القديس كيرلس الكبير في تفسيره لإنجيل لوقا الإصحاح (٢٢):

"**لا تشك فإنّ هذا حق**، مادام يقول بنفسه وبوضوح: "**هذا يكون جسدي**"، "**هذا يكون دمي**" بل تقبل كلمة المخلص بإيمان إذ هو الحق الذي لا يمكن أن يكذب"[٣٠٠].

٩ ـ في الرشومات الأخيرة في القداس الباسيليّ يقول الكاهن:

"جسد مُقدّس ودم كريم **حقيقي** ليسوع المسيح ابن إلهنا آمين، مُقدّس وكريم جسد ودم **حقيقيّ** ليسوع المسيح ابن إلهنا آمين، جسد ودم عمانوئيل إلهنا هذا هو **بالحقيقة** آمين". وفي كلّ مرة يرد الشعب آمين"[٣٠١].

١٠ ـ وأخيرًا هذه الحقيقة الإيمانية يعبر عنها الفن القبطيّ، عندما يرسم في أيقونة العشاء السرّيّ "سمكة" حيث السمكة باللغة اليونانية ترمز للحروف الأولى للعبارة "***يسوع المسيح ابن الله مخلص***". أي أن هذا الذي يُقدَّم في سرّ الشكر الإلهيّ هو نفسه يسوع المسيح ابن الله.

أخيرًا في وصية السيد "..*هذا أصنعوه لذكري*" (لو٢٢:١٩) **لا يطلب يسوع** من تلاميذه في كلّ مرة يتممون فيها سرّ الشكر الإلهيّ **أن يتذكروا فقط هذه** الإفخارستيّا التي يقيمها معهم الآن، ولكن **يطلب**

---

[300] *PG72, 912.*

[٢] الخولاجي المُقدّس، إعداد القمص إسيذوروس البراموسيّ، ص ١٨٤-١٨٥.

أن يتذكروا أيضًا كلّ حضوره بينهم، أي تجسُّده، حياته، موته، قيامته، صعوده إلى السموات، ومجيئه الثاني.

ووفقًا لرأي **الأسقف بولس البوشي** (ق١٣)، فإنّ السيد بقوله هذا، **يأمرنا باستمراريّة ممارسة الفصح الخلاصي**ّ (أي سرّ الشكر الإلهيّ) كما سلّمه لنا بنفسه، كرئيس الكهنة الأعظم. هذا السرّ يجب أن يُتمّم، ليس كذكرى لنبي أو لرسول ما، ولكن لتذكُّر ربّ المجد نفسه وحتّى مجيئه الثاني[٣٠٢].

أي لا ننظر هُنا إلى حدث تسليم الجسد والدم على أنّه عمل أخير ليسوع قبل آلامه وموته، ولكن على أنّه بداية الحياة السرائريّة للكنيسة، والتي يمثل سرّ الشكر فيها مركز هذه الحياة.

هذا وكلمة الذكرى في اللغة اليونانيّة **لا تعني مجرّد التذكُّر الذهنيّ لأمر حدث في الماضي، بل تحمل أيضًا إعادة تحقيقه**. إذًا التذكُّر هنا يعني تذكُّر المسيح المتجسّد، المصلوب، القائم من الأموات، **لا كحدث تمّ في الماضي وانتهى، بل كحدث مُعاش** وذلك بتقديم ذبيحة جسده ودمه الحقيقيّة.

ويُضاف إلى ذلك أنّ الفعل "***اصنعوا***" (هو فعل أمر مستمر في المبني للمعلوم) **يعني أنّ إتمام سرّ الإفخارستيّا يكون بصورة مستمرة**.

وأخيرًا نقول إنّه كما طلب الرسول بولس من أهل كورنثوس كلّما أكلوا من جسد الرّبّ وشربوا من دمه أن يخبروا بموت الرّبّ إلى أن يجيء (انظر ١كو١١: ٢٦). هكذا المؤمنين الآن باشتراكهم في سرّ الشكر الإلهيّ، يبشرون بموت المسيح وينتظرون مجيئه الثاني المُمجد، عندما يرتلون من بعد الترديد لكلمات السرّ التأسيسيّة.

"حقًا حقًا يارب بموتك نبشر، وبقيامتك المُقدّسة وصعودك إلى السموات نعترف، نسبحك، نباركك، نشكرك يارب، ونتضرع إليك يا إلهنا"[٣٠٣].

---

[١٩] انظر مقالات الأنبا بولس البوشي، عن الصلب، ص ٦٠.

[٦] الخولاجى السابق، ص ١٥٨.

متى يتمّ التقديس

من البديهي أنّ الأرثوذكسيّين والكاثوليك يفهمون (وقت) تقديس القرابين بشكل مختلف.

فحسب اللاهوت اللاتينيّ، **يتمّ التقديس عن طريق كلام التأسيس** أي: (هذا هو جسدي... هذا هو دمي).

أمّا حسب اللاهوت الأرثوذكسيّ، **فإنّ فعل التقديس لا يكتمل قبل استدعاء الروح القدس. وتُحرّم الكنيسة الأرثوذكسيّة تكريم القرابين المُقدّسة قبل هذه اللحظة.**

لكنّ التعاليم الأرثوذكسيّة لا تقول بإنّ التقديس يتم من طريق استدعاء الروح القدس فقط، **ولا تعتبر أنّ كلام التأسيس كلامًا عابرًا أو قليل الأهمّيّة**. إنّها بالعكس من ذلك **تعتبر قانون الشكر كُلًّا لا يتجزّأ**، حيث إنّ أقسامه الرئيسيّة الثلاثة، أي صّلاة الشكر، وذكرى حياة المسيح، واستدعاء الروح القدس، تُشكِّل جزءًا لا يتجزّأ في فعل واحد هو فعل التقديس.

ولكن إذا جاز اختيار وقت معيّن للتقديس، **فلابد أن يكون بعد الانتهاء من تلاوة عبارة: آمين في آخر صّلاة استدعاء الروح القدس.**

مفهوم الاستحالة

كلمات استدعاء الروح القدس تدل دلالة واضحة على أنّ الكنيسة الأرثوذكسيّة **تؤمن بأنّ الخبز والخمر يستحيلان حقيقة** بعد التقديس إلى جسد المسيح ودمه، **وأنّهما ليسا رمزين** لهذا الجسد وهذا الدم بل هما الجسد والدم عينهما. ولكن مع تأكيدها على حقيقة الاستحالة، **لم تحاول الأرثوذكسيّة قط تفسير الطريقة التي تجري بها**. والعبارات المستخدمة في قانون الشكر للدلالة على هذا الأمر، أي: (ناقلًا إياهما) لا تُعطي أي توضيح.

وصحيح أنّ **بعض الكتّاب الأرثوذكسيّين في القرن السابع عشر، وحتّى بعض المجامع (مثل مجمع أورشليم لعام ١٦٧٢)**[٣٠٤] **استخدموا عبارة (استحالة الجوهر–** *Transubstantiatio*) اللاتينيّة، كما

[٣٠٤] مجمع للكنائس الأرثوذكسيّة الخلقيدونيّة، لا تعترف به كنيستنا القبطيّة.

استعملوا التمايز الذي تحدثت عنه المدرسة السكولستيكيّة بين الجوهر والأعراض. لكن المجتمعين بمجمع أورشليم أضافوا في الوقت نفسه قولهم **بإنّ استخدام مثل هذه التعابير لا يعني تفسيرًا للطريقة التي تتمّ بها الاستحالة**، لأنّ ذلك سرّ ينبغي أن يظل دائمًا غير مفهوم!

تميِّز فلسفة العصر الوسيط **بين الجوهر (الذي يكوّن الشيء، ويجعله ما هو عليه) والأعراض أو الصفات التي تخصُّ الجوهر (أي كلّ ما تدركه الحواس: الحجم، الوزن، الشكل، اللون، الذوق، الرائحة الخ...)**.[٣٠٥] والجوهر شيء موجود بذاته (*ens per se*)، أمّا الأعراض فموجودة في داخل شيء غيرها ليس إلاّ (*ens in alio*).

إذا ما طبقنا هذا التمايز على الإفخارستيّا، **فإنّنا نصل إلى عقيدة (استحالة الجوهر)**. وفق هذه العقيدة، عند تقديس القرابين في القداس الإلهيّ يحدث تغيير في الجوهر في حين تظل الأعراض هيَ هيَ. فجوهرا الخبز والخمر يتغيّران إلى جوهريّ جسد المسيح ودمه، لكن أعراض الخبز والخمر، أي لونهما ورائحتهما إلخ...، تستمر في الوجود على نحو عجائبيّ وتبقى خاضعة لإدراك الحواس. لكن على الرغم من هذا، **أحسّ الكثيرون من الأرثوذكسيّين بأنّ مجمع أورشليم هذا قد ذهب بَعيدًا في التوافق مع التعبير اللاتينيّ والسكولستيكيّ**.

وفي السنة الـ١٨٣٨ أصدرت الكنيسة الروسيّة ترجمة لأعمال مجمع أورشليم، استعملت فيها تعبير (*Transubstantiatio*) لكنها تجنّبت ذكر تعابير الجوهر والأعراض، وذلك من طريق تحوير النص الأصليّ.[٣٠٦]

والكتّاب الأرثوذكسيّون المعاصرون ما زالوا يستخدمون تعبير (استحالة الجوهر) ولكن مع التشديد على نقطتين:

أولًا، يمكن استخدام الكثير من الكلمات الأخرى، وبشكل مشروع، للدلالة على التقديس. من هذه الكلمات، ليس لتعبير (استحالة الجوهر) سلطة حاسمة.

---

[٣٠٥] راجع ما ذكرناه في شرح فلسفة أرسطو في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

[٣٠٦] فالكنيسة انتقائيّة فيما يخصّ المجامع المحليّة.

ثانيًا، استخدام العبارة بالضرورة قبول معانيها الفلسفيّة الأرسطوطاليّة. **والموقف الأرثوذكسيّ العام بشأن هذه القضية موجز بوضوح في (التعليم الديني الموسّع) الذي كتبه فيلاريت، متروبوليت موسكو** (١٧٨٢ – ١٨٦٧)، والذي أقرّته الكنيسة الروسيّة السنة الـ١٨٣٩:

"**سؤال**: كيف ينبغي أن نفهم عبارة (استحالة الجوهر)؟

جواب: ..... كلمة (استحالة الجوهر) لا تحدّد الطريقة التي يتغيّر بها الخبز والخمر إلى جسد الرّبّ ودمه. فهذا لا يستطيع أن يفهمه أحد غير الله. لكن الكلمة تدل فقط على أن الخبز يتحوّل في الواقع والحقيقة والجوهر إلى جسد ربنا يسوع المسيح والخمر يصبح الدم الحقيقيّ للرّبّ".

وكذلك يذكر (التعليم الدينيّ الموسّع) استشهادًا من يوحنا الدمشقيّ:

"إذا كنتم تسعون لمعرفة كيف يتمّ ذلك، **يكفي أن تعلموا بأنّ ذلك يتمّ بواسطة الروح القدس**... ولا نعرف شيئًا أكثر من أنّ كلام الله صحيح وفاعل وكلّيّ القدرة، ولكنه يفوق الإدراك".[٣٠٧]

وهكذا، فإنّ اللاهوت الأرثوذكسيّ يرفض اللاهوت **الكاثوليكيّ الذي يقول إنّ ما يتحوّل في الافخارستيّا هو فقط جوهر الخبز والخمر** فيما أشكال الخبز والخمر تبقى على ما هيَ عليه، **كما يرفض اللاهوت اللوثريّ الذي يقول بوجود جوهرين معًا**. فالمسيح، في نظر اللاهوت الأرثوذكسيّ، لا ينزل من السماء ليحتجب تحت أشكال الخبز والخمر، كما يقول الكاثوليك، ولا إلى جانب جوهر الخبز والخمر، كما يقول اللوثريّون.

يوضِّح إفدوكيموف في كتابه "الأرثوذكسيّة" المفهوم الأرثوذكسيّ لحضور المسيح ولتحوّل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه، فيقول:

"**إنّ جسد المسيح لم يعد من هذا العالم، إنّه جسد سماويّ. إنّه ليس "في أي مكان"، لأنّه خارج المكان ويسمو كلّ حيّز مكانيّ**. ولكنه يستطيع متى شاء أن يوجد في أيّ موضع مكانيّ ويتجلّى

---

[٣٠٧] في الإيمان الأرثوذكسي، ٤، ١٣.

فيه. إنّ هذا الحصر في موضعٍ ما ضروريّ لنا، وبدونه لا نستطيع أن ندخل في شركة غير المنظور. **ولكنّ الجسد السماويّ ليس تحت الخبز ولا معه ولا فيه، كما يقول لوثر، ولا مكان الخبز، كما يقول الكاثوليك، بل هو هذا الخبز: "هذا بعينه هو جسديّ".** حسب القديس إيرينيئوس: "إنّ الخبز الافخارستيّ، باستدعاء الروح القدس، **لا يحجب حضورًا آخر، بل يوحّد الطعام السماويّ وطعام الأرض، إذ يجعلهما الشيء نفسه، وتلك هيَ المعجزة**".[٣٠٨]

يغطس الكاهن الحملَ في دمه، وإذا هو الجسد الحيّ، وليس علامة أو خداع الأعراض. وليس هو تجسّد ثانٍ للمسيح في الأشكال، بل التحوّل الكامل، تحوّل الجوهر والأعراض إلى جسد سماويّ. ليست أعراض الخبز هيَ التي تبقى، بل حالة أعيننا التي لا تقوى على تأمل الجسد السماويّ المحافظ على خداع الأشكال. إنّ خطأ العقيدة يقوم على الاهتمام بالموضوع وليس بالشخص، بالخبز وليس بالإنسان. يجب ألاّ نحلِّل المعجزة، على غرار التحليل الكيميائيّ، تبعًا لحواسّنا. بل يجب بالحريّ أن نتّهم حواسّنا بأنّها لا ترى المعجزة الحقيقيّة، الحقيقة السماويّة. هناك شبه مع معجزة تجلّي المخلّص على جبل ثابور، فليس المسيح هو الذي يتغيّر، بل أعين الرسل التي تنفتح زهاء لحظة. يقول يوحنا الدمشقي:

"إنّ استدعاء الروح القدس يحقّق ما لا يمكن أن يقبله إلاَّ الإيمان وحده".[٣٠٩]

فمن غير المجدي أن نفلسف في هذا الموضوع. إنّ الغربيّين، في عقائدهم، يحاولون الولوج إلى قلب المعجزة وتفسير ما تعنيه. أمّا الشرقيّون فينظرون بأعين الإيمان ويرون لأوّل وهلة الجسد والدم، ولا شيء سوى ذلك.[٣١٠]

وتظلّ القرابين المُقدّسة، محفوظة في كلّ كنيسة أرثوذكسيّة فوق المذبح. **ولكن لا تُعرض للعبادة، كما هو شائع في الكنيسة الكاثوليكيّة.** خلال القداس الإلهيّ، يُبارك الكاهن المؤمنين بالقرابين المُقدّسة، ولكن ليس خارج هذه الفترة أبدًا.

---

[٣٠٨] ضد الهرطقات ٤: ٣٤.

[٣٠٩] المائة مقالة في الإيمان الأرثوذكسي، ٤: ١٣.

[310] *Evdokimov. Le orthodoxie, pp. 246: 248.*

ومن الدلائل الكتابيّة التي تُشير إلى هذا التعليم:

أولًا: من عبارات الكتاب الإلهيّ التي أوردناها سابقًا، فإنّ الرّبّ جل ذكره لما وعد بهذا السرّ قال:

"أنا هو الخبز الحى الذي نزل من السماء. أن أكل أحد من هذا يحيا إلى الأبد. والخبز الذي أنا أعطى هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم" (يو ٦: ٥١)

وحين سلّم تلاميذه هذا السرّ قال:

"كأس البركة التي نباركها أليست هيَ شركة دم المسيح الخبز الذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح" (١كو ١٠: ١٦)

وقال:

"اذن أي من أكل هذا الخبز أو شرب كأس الرّبّ بدون استحقاق يكون مجرما في جسد الرّبّ ودمه. ولكن ليمتحن الإنسان نفسه وهكذا يأكل من الخبز ويشرب من الكأس. لأن الذي يأكل ويشرب بدون استحقاق يأكل ويشرب دينونة لنفسه غير مميز جسد الرب" (١كو ١١: ٢٧- ٢٩).

والحقيقة هنا واضحة من كلّ هذه النصوص **وهيَ أن الرّبّ والرسول يسميان الخبز جسد المسيح، والخمر دم المسيح بأصرح عبارة**. ولم يقل الكتاب أن جسد المسيح يكون في الخبز، أو مع الخبز، أو تحت الخبز. ولم يقل السيد أن الخبز الذي أعطيه يكون فيه جسدي، بل قال "الخبز الذي أنا أعطى هو جسدي".

ثانيًا: إذا راجعنا جميع كتب القداسات المستعملة في كلّ الكنائس شرقًا وغربًا، وهيَ قديمة جدًّا. نجدها كلّها متفقة في تضرعاتها على هذه الكلمات:

"ليحل روحك القدوس على هذه القرابين الموضوعة ويطهرها وينقلها ويظهرها قدسك لقديسيك. وهذا الخبز يجعله جسدا مُقدّسا له، وهذه الكأس أيضًا دما كريما للعهد الجديد الذي له.. الخ"

وهذا يدل على إيمان الكنيسة الجامعة الذي لم يتغيّر منذ القديم حتّى الآن.

ثالثا: مما ورد في أقوال الآباء التي سبق ذكرها حيث وردت فيها كلمات "ينتقلان، يتغيران، يستحيلان"، كما قال القديس غريغوريوس:

"إنّني اعتقد وأقر بالحقيقة أنّ الخبز يستحيل اليوم أيضًا إذ يتقدّس بالكلمة الإلهيّة إلى جسد الإله الكلمة".

وقال القديس أمبروسيوس:

"كلّما تناولنا القرابين المُقدّسة التي **تتحول سرّيًّا بالطلبة المُقدّسة إلى جسد المسيح ودمه نخبر بموت** الرب".[٣١١]

وقال القديس إفرام السريانيّ:

"إنّكم تشتركون في جسد الرّبّ الكلّيّ قدسه بإيمان كامل غير مرتابين بأنّكم تأكلون الحمل كلّه". وقال في موضع آخر: "إنّ جسد الرّبّ يتحد بجسدنا على وجه لا يلفظ به أيضًا ودمه الطاهر يصب في شراييننا. وهو كلّه بصلاحه الأقصى يدخل فينا".

الإفخارستيّا هيَ جسد ربنا يسوع المسيح الذي تألم عن خطايانا، الذي أقامه الله الآب[٣١٢]. أي جسد المسيح المصلوب والمُمجد في السماء. هذا ما رآه يوحنا في السماء "*ورأيت في وسط العرش والحيوانات الأربعة وفي وسط الشيوخ خروف قائم كأنه مذبوح*" (رؤ٥:٦). وما يشدّد عليه الأب الكاهن في صّلاة الاعتراف:

"**أومن أنّ هذا هو الجسد المحيي الذي أخذه ابنك الوحيد** ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح من سيدتنا وملكتنا كلّنا والدة الإله القديسة مريم **وجعله واحدًا مع لاهوته** بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير. واعترف الاعتراف الحسن أمام بيلاطس البنطي. وأسلمه عنّا على خشبة الصليب المُقدّسة بإرادته وحده عنا كلنا".

---

[٣١١] في الإيمان ٤: ١٠: ١٢٤.
[٣] الرسالة إلى أزمير- عن كتاب الآباء الرسوليّين لمطران حلب إلياس معوض، ص ١٣٥.

ولكن حفظ الرّبّ المادة المصنوع منها الخبز من أن تتحوَّل عن شكلها الظاهر (كما تحوّل الماء خمرًا سابقًا بإرادته ـ انظر يو٢:١-١١). إذ **جعل التحوُّل هُنا ليس في الشكل أو المظهر أو الطعم بل في طبيعة المادة، أي أنّ الرّبّ أعطى للخبز طبيعة جديدة وصفات جديدة لم تكن له أصلًا.**

هذه الطبيعة الجديدة لا تخضع للتغيرات الماديّة ولا تدركها الحواس الجسديّة، تمامًا مثل جسد المسيح الذي كان يعيش به على الأرض. فالمسيح الإله ظهر في شكل وصورة جسد ترابيّ والحواس لم تستطع أن تدرك لاهوته. ولكن بالإيمان فقط أدرك بطرس حقيقته (انظر مت١٦:١٦).

قال القديس يوحنا ذهبيّ الفم:

"هذا الجسد لما كان بعد في هذا المذود خجل منه المجوس. ورجال كفرة وبرابرة تركوا أوطانهم وبيوتهم وقطعوا طريقًا طويلة، وأتوا بخوف وارتجاف كثير وسجدوا له. فلنقتدين إذًا بالبرابرة على الأقل نحن أبناء السموات. لأنّ أولئك مع أنّهم رأوه في مذود وضمن كوخ، ولم يروا شيئًا مما تراه أنت الآن تقدموا برعب كثير. وأمَّا أنت فلست تراه في مذود بل على مذبح، ولست ترى امرأة حاملة إياه بل كاهنًا، وروحًا طائرًا على الموضوعات ونازلًا عليها بغزارة لأنّك لست تنظر الجسد وحده فقط على بسيط الحال مثل أولئك، لكنك تعلم أيضًا قدرته وكلّ التدبير، وليس خافيًا عليك شيء مما تمّ به لأنّك متعلّم جميع الأسرّار بتدقيق".[٣١٣]

وقال المطوَّب أغسطينوس:

"ما من أحد يُشارك جسد يسوع المسيح ما لم يقدم له عبادة إلهيّة".[٣١٤]

ما معنى "أشربه معكم جديدًا في ملكوت أبي"؟

"وأقول لكم "إنى من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديدًا في ملكوت أبى" (مت٢٦:٢٩، مر١٤:٢٥، لو٢٢:١٨)

"لأني أقول لكم إني لا آكل منه بعد حتّى يكمل في ملكوت الله" (لو٢٢:١٦).

---

[٣١٣] عظة على تفسير ١كو ٢٤: ٥.
[٣١٤] على مزمور ٩٨.

كلمات السيد هذه لا تأخذ معنى أسخاتولوجيّ (آخرويّ) غير محدّد، ولكن بالتحديد **معنى كنسيّ** حيث **ملكوت الله هُنا يُفسر على أنّه التحقيق للكنيسة**. ففي داخل الكنيسة يرى المؤمن ويتذوّق خيرات ملكوت الله الآتي. أو بكلام آخر يعيش المؤمنين داخل الكنيسة ملكوت الله الحاضر وفي نفس الوقت ينتظرون ملكوت الله الآتى.

وبالتالى فإنّ السيد المسيح بكلماته هذه **يعني أنّه بعد أن يكمل عمل الفداء بالصلب والقيامة والصعود، تتحقق الكنيسة بإرسال الروح القدس على التلاميذ وإيمان الشعوب بشخصه،** فهو كما كان حاضرًا مع التلاميذ في هذه الإفخارستيّا، سيكون أيضًا حاضرًا معهم ومع المؤمنين باسمه الذين صاروا خليقة جديدة فيه في كلّ إفخارستيّا تُقام في الكنيسة:

"إذًا إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت هوذا الكلّ قد صار جديدًا" (٢كو٥:١٧)

و"ها أنا معكم كلّ الأيام وإلى انقضاء الدهر " (مت٢٨:٢٠).

كلمات يسوع "إنّي لا أشرب..." ليس لها معنى إسخاتولوجي (أخروي)، غير محدّد كما يزعم بعض المفسرين[٣١٥]، ولكن بالتحديد معنى كنسيّ، يكتب القديس كيرلس السكندريّ:

"أن يُسمّى التبرير الذي يأتي بالإيمان، والتطهير الذي يأتي بالمعموديّة، وشركة الروح القدس، والقوة التي نأخذها من الحياة بالروح، **كلّ هذه يسميها ملكوت الله**"[٣١٦].

وأيضًا رأى سمعان بن كليل (ق١٢)، والذي وفقًا له **فإنّ ملكوت الله يُفسر على أنّه قيامة المسيح،** لأنه على الرغم من أن جسد القيامة ليس له حاجة للأكل والشرب، إلاّ أن السيد آنذاك أكل أمام التلاميذ (انظر لو٢٤: ٤١-٤٣) لكي يبرهن لهم أنّه هو نفسه معلمهم الذي صلب ومات[٣١٧].

---

[315] *F.X.P. LEBEAU " Les Paroles eschatolgiques de Jésus á la céne (mt26, 19) dans L'exégés Patristique st. Patr VII, 1966 P. 516 – 523.*

[١٣] تفسير إنجيل لوقا *P.G. 72, 905* انظر أيضًا الترجمة العربية، الجزء الخامس، ص ١٠٦.

[١٣] انظر مخطوط ٣١ لاهوت، ورقة ٢٩٨ ظ.

استمرارًا لعرض الآراء، نقدم رأى أسقف مصر في القرن الـ ١٣ بولس البوشي الذي يرى أن الكلمات السابقة التي نطق بها السيد **تعني الإبطال للفصح القديم**، الذي فيما عدا أنّه كان وقتيًا، كان أيضًا مثالًا مصورًا مسبقًا للفصح الجديد الأصلي. ويسوق الكاتب لتعضيد رأيه الشاهد من الرسالة إلى العبرانيين (١٠: ١) القائل "*لأن الناموس له ظل الخيرات العتيدة لا نفس صورة الأشياء*"[٣١٨].

وبحسب رأينا، فإنّ **معنى الآية يتركز حول كلمة "جديدًا"** (مر١٤: ٢٥) التي تُظهر عمل الروح القدس في الخليقة. فالإنسان الجديد، هو الذي يعيش بحسب الروح (انظر رو٨: ١٢ـ١٤)، وحتّى السماء الجديدة والأرض الجديدة هيَ أيضًا روحية (رؤ٢١: ١). فالروح القدس الذي نأخذه عن طريق أسرار الكنيسة هو الذي يساعدنا على تحقيق حياتنا الجديدة خلال حياتنا الأرضية، أي يجعل سيرتنا الأرضية هيَ سماوية (انظر فيلبي٣: ٢٠).[٣١٩]

وبالتالي يمكن تفسير الآية كالآتي: إنّه عندما يتم الفداء ويحل الروح القدس على التلاميذ حسب وعد المسيح (انظر مثلًا: لو٢٤: ٤٩، أع٤: ١، ٢: ١ـ٤) وتتم الشهادة والكرازة باسمه في اليهودية والسامرة وفي أقصى الأرض (انظر أع١: ٨) ستنضم أعضاء أخرى لكنيسة المسيح، **هذه الأعضاء ستصير جديدة بعمل الروح القدس فيها داخل الكنيسة، وكما كان السيد حاضرًا مع تلاميذه في إفخارستية يوم الخميس الكبير، فإنه سيكون حاضرًا أيضًا مع هذه الأعضاء الجديدة في كلّ إفخارستيّا تُقام**. وما يؤكّد هذا، أن كنيستنا القبطية تبدأ لِّيتورجيّة القديس باسيليوس (بالطقس الإسكندري)، معترفةً بحضور الله وسط شعبه قائلة:

"مجدًا وإكرامًا، إكرامًا ومجدًا للثالوث القدوس الآب والابن والروح القدس سلامًا وبنيانًا لكنيسة الله"[٣٢٠].

ومن جانب آخر، فإنّ هذا الحضور وعمل الثالوث القدوس في الكنيسة ما هو إلا دليل قوي على أن ملكوت الله قد بدأ الآن وأما استعلانه الكامل فسيكون في الدهر الآتي (انظر لو١٧: ٢٠ـ٢١).

---

[١٥] انظر مقالات الأنبا بولس البوشي، عن الصلب، إصدار القمص منقريوس عوض الله، القاهرة ١٩٧٢[٢]، ص ١٧٨.

[٣١٩] القس المتنيح صموئيل وهبه، مقال بدورية المركز الأرثوذكسيّ للدراسات الآبائيّة.

[١٦] انظر "الخولاجي المُقدّس وخدمة الشماس" ص ١١٥.

من كلّ التفاسير السابقة التي قدمها أباء الإسكندريّة والكتاب الأقباط للشواهد (مر١٤: ٢٥، مت٢٦: ٢٩، لو٢٢: ١٨)، يمكننا أن نلخص معنى ملكوت الله في النقاط التالية:

١ ـ هو **اكتمال العهد القديم بالعهد الجديد**.

٢ ـ هو **دخول المؤمنين إلى الحياة الجديدة** عن طريق الإيمان باسم المسيح والاعتماد على اسم الثالوث.

٣ ـ هو **التمتع بجمال تلك الحياة الجديدة عن طريق عمل الروح القدس** من خلال أسرار الكنيسة في حياة المؤمنين بمشاركتهم في حياة الكنيسة التعبدية.

٤ ـ وهو **انتظار قيامة الأجساد والحياة السماوية المستقبلية**.

إذًا، **ملكوت الله يتحقق الآن بصورة جزئية هنا على الأرض**، وذلك عندما يعيش المؤمنون في شركة الروح مع المسيح، عن طريق الكنيسة، متذوقين عربون خيرات هذا الملكوت ثمّ يتحقق بصورة كاملة هناك في السماء بعد قيامة الأجساد[٣٢١].

مفهوم التناول باستحقاق

هذا لا يعني بطبيعة الحال، أن الاشتراك في سرّ الإفخارستيّا يتطلب استحقاق معين، **فلا يوجد أحد مستحق لهذا السر**، الاستحقاق يأتي فقط من خلال نعمة الله، ثمّ الاستجابة لهذه النعمة الغنية.

ولكن النص الكتابيّ هُنا يُعالج مشكلة الإنقسامات في كنيسة كورنثوس، حيث صار الجميع في عداوة، والتطهُّر المطلوب هو وحدانية القلب والروح داخل الكنيسة، فلا توجد ضغينة أو بغضة أو انقسامات أو أعمال شريرة نصنعها، ثمّ نتقدم بقلبنا الذي ملأه السواد هذا نحو المائدة السماويّة!

لكن، أي حديث عن تطهرات جسديّة أو أعمال نعملها لنكون مستحقين للتناول من جسد الرّبّ ودمه فهو حديث غريب عن الأرثوذكسيّة، فلا يمكن لأحد بقدراته الشخصيّة وبره الذاتيّ أن يتجاسر ويشترك في جسد المسيح الذي لا تجسر الملائكة أن تتقدم نحوه!

[321] *P.Vassiliadis , " Orthodxy and Ecumenism " Thessaloniki 1996 , p. 161.*

ولذلك فإنّ سرّ الإفخارستيّا كما لاحظ نيقولا كاباسيلاس:

"هو نور لمن تنقي، ونقاوة لمن هم في احتياج لتنقية، وسند للمجاهدين ضد الخطية وضد الشهوات"[٣٢٢].

ولن ينال الإنسان حياة حقيقيّة، إلاّ من خلال ثباته في شخص المسيح الواهب حياة للجميع.

يقول القديس إيرينيئوس:

"كمثل النسمة للمخلوق التي تجعل الأعضاء قادرة على الحياة، هكذا الكنيسة، مذخر فيها الشركة مع المسيح"[٣٢٣].

الإفخارستيّا سرّ الوحدة

تأتي أهمّيّة التناول من جسد الرّبّ ودمه، **فالكنيسة كلها يجب أن تشترك في هذه الوليمة السمائية**. هذا ما يقوله القديس **يوستينوس** الفيلسوف والشهيد في دفاعه والتي يشير فيه إلى اشتراك الجميع في التناول من الجسد والدم، قائلًا:

"في هذا اليوم الذي يُدعى الأحد، **يجتمع كلّ الذين يعيشون في المدن والقرى في مكان واحد** وتبدأ اللِّتورجيّا بقراءات من مذكرات الرسل، أو من كتب الأنبياء، على قدر ما يسمح به الوقت، ثمّ نقف جميعًا ونرفع صلواتنا من أجل المسيحيّين ومن أجل البشر في العالم أجمع. وعندما ننتهي من الصلوات، يقبّل كلّ منا الآخر بقبلة السلام. ثمّ يصلي الكاهن صّلاة التقديس على الخبز والخمر، ثمّ **يتقدم الجميع ويتناولون من الجسد والدم**. **ونرسل للغائبين أيضًا مع الشمامسة**"[٣٢٤].

---

[٤] نيقولا كاباسيلاس: "الحياة في المسيح" *P.G. 150, 596A*.

[٥] ضد الهرطقات: ٣:٢٤:١.

[٣٢٤] يوستينوس: الدفاع الأوّل ١:٦٧: ٣ـ٥.

ولذلك فالقانون الثاني من قوانين الرسل القديسين يعتبر:

"إنّ الذين يحضرون إلى الكنيسة ويستمعون إلى قراءات الكتاب المُقدّس.. ولا يتناولون من الأسرّار المُقدّسة، فإنّ مثل هؤلاء يُعزلون عن الكنيسة إلى أن يعترفوا ويُظهرون ثمار تليق بالتوبة".

ذلك لأن الاشتراك في سرّ الإفخارستيّا **هو ضرورة مُلحة لحياة الشركة**، أو أن حياة الشركة لا تتحقق إلاّ من خلال سرّ الإفخارستيّا. يقول القديس يوحنا ذهبي الفم وهو بصدّد الحديث عن احتفالات الشهداء:

"إنّ احتفالات الشهداء يستحيل أن تكتمل، إن لم تشترك الكنيسة كلها في التناول من جسد الرّبّ ودمه"[٣٢٥].

هذا هو مبعث الحياة في الكنيسة أن المؤمنين يشتركون جميعًا في التناول من الأسرّار المُقدّسة المُحيية.

القديس إيرينئوس أسقف ليون (القرن الثاني) يؤكّد على هذه الحقيقيّة قائلًا:

"أجسادنا لاشتراكها في القرابين لم تعد تبقى قابلة للفساد، إذ لها رجاء القيامة الأبدية"[٣٢٦].

فالإفخارستيّا هيَ "دواء للخلود" كما يقول الآباء. ويتحدث القديس كيرلس السكندريّ عن الإفخارستيّا فيصفها بأنها:

"**تحقق أسمى نموذج للاتحاد المكن مع المسيح**. لأنها تحقق الشركة في حياة الكلمة المتجسد، ليس على مستوى روحي فقط، بل أيضًا على مستوى جسدي"[٣٢٧].

ثم يتساءل القديس كيرلس:

"من يمكنه أن يفصل ويفرق هذا الاتحاد الطبيعي بين المؤمنين بعضهم وبعض، هؤلاء الذين من خلال جسد المسيح الواحد المُقدّس.. ارتبطوا باتحاد مع المسيح"[٣٢٨].

---

[٣٢٥] عظة عن الشهداء ٥٩.

[٣٢٦] عن كتاب "كلمات حول الإفخارستيّا"، سرّ الشكر في الكنيسة للمطران جورج خضر ص ٥٩.

[327] *P.G. 74, 809 CD.*

[328] *P.G. 74, 560B.*

كل هذا يؤكِّد على أهميّة الثبات في المسيح من أجل تحقيق حياة الشركة. التناول من الأسرّار المُقدّسة يحقق هذا الثبات، وعليه تتحقق الوحدة بين المؤمنين. يتساءل القديس يوحنا ذهبي الفم:

"ماذا يحدث للمتناولين؟ يقول: إنهم يصيرون جسد المسيح، جسد واحد وليس أجساد كثيرة. مثلما أن الخبز الواحد يُصنع من حبوب كثيرة ومتفرقة، إلاّ أنها لا تظهر بعد كحبوب، وتختفي الفروق الظاهرية فيما بينها. هكذا يكون أعضاء جسد المسيح الواحد"[٣٢٩].

عندما تتحقق هذه الوحدة من خلال سرّ الإفخارستيّا، يصير على الكنيسة دور تجاه العالم، وهو إعلان المحبّة وتجسيدها كحياة والحياة كمحبّة. ولا يمكن للكنيسة أن تشهد للمحبة، ولا يمكنها أن تكون جسرًا تعبر عليه هذه المحبة إلى العالم، ولا أن تعتق الخليقة من عبوديتها لناموس الانقسام والموت، ما لم تجد كمالها في المحبة. ويؤكد الأب ألكسندر شميمن على أننا:

"لا يمكننا أن نقيم ذكرى المسيح والاتحاد بجسده ودمه والتوق إلى الملكوت الإلهيّ وحياة الدهر الآتي، ما لم نلبس حُلة المحبة. ارتداء هذه الحُلة هو شرط أساسيّ للمشاركة في الاحتفال الإفخارستي"[٣٣٠].

هذا هو محتوى الحياة الجديدة، أنها حياة قائمة ومؤسّسة على الحب، وهذا ما حمل الرسول بولس على القول:

"إن كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة ولكن ليس لي محبّة فقد صرت نحاسًا يطن أو صنجًا يرن. وإن كلّ لي نبوة وأعلم جميع الأسرّار وكلّ علم. وإن كان لي كلّ الإيمان حتّى أنقل الجبال ولكن ليس لي محبّة فلست شيئًا. وإن أطعمت كلّ أموالي وإن سلّمت جسدي حتّى احترق ولكن ليست لي محبّة فلا انتفع شيئًا" (١كو١٣:١-١٣).

ولذلك قال اللاهوتي الروسى خومياكوف:

"إن الكنيسة محبّة تجسدت في جماعة"[٣٣١].

---

[٣٢٩] عظة ٢٤ على كورنثوس الأولي.

[٣٣٠] ألكسندر شميمن: الإفخارستيّا سرّ الملكوت، ص٢٠٣-٢٠٤.

[٨] ألسكندر شميمن: الإفخارستيّا سرّ الملكوت، منشورات النور، لبنان١٩٩٣، ص ٢٠٣.

ولذلك فكل من يتناول من الأسرّار المُقدّسة عليه التزام نحو محبّة القريب والسعي نحو خدمته وتغطية احتياجاته. القديس يوحنا ذهبي الفم يتكلم عن مذبحين، واحد نعرفه كلنا ونكرمه وهذا هو المذبح الموجود داخل الكنيسة، لكن هناك مذبح آخر نحن نجهله ونحتقره ولا نلاحظه ولكننا نستطيع أن نقدم على هذا المذبح ذبائح كلّ يوم، المذبح الآخر، هم الفقراء والذين هم في ضيقة[٣٣٢].

الإفخارستيّا ذبيحة

تؤمن الكنيسة الأرثوذكسيّة أن الإفخارستيّا هيَ ذبيحة. والتعليم الأرثوذكسيّ بهذا الشأن واضح جدًّا في النص اللّتورجيّ نفسه:

(التي لك، مما لك، نقدمها لك، على كلّ شيء ومن جهة كلّ شيء).

١) **(التي لك مما لك)**: الذبيحة التي تُقدم في الإفخارستيّا هيَ المسيح نفسه، والمسيح نفسه هو الذي يقوم في الكنيسة بفعل التقدمة. فهو الكاهن والضحية في آن واحد:

(أنت الموزِّع والموزَّع... والمقرِّب والمقرَّب...) {صلاة الكاهن قبل الدورة الكبرى}.

٢) (**نقدمها لك**): الإفخارستيّا تُقدم لله الثالوث ليس للآب فقط، بل كذلك للروح القدس وللمسيح نفسه. هكذا حين نسأل: ما هيَ ذبيحة الإفخارستيّا؟ ومن ذا الذي يقدمها؟ وإلى من تُقدَّم؟ فالجواب في كلّ مرة هو: المسيح.

٣) (**على كلّ شيء ومن جهة كلّ شيء**): إن الإفخارستيّا حسب اللاهوت الأرثوذكسيّ ذبيحة تكفير تُقدم عن الأحياء والأموات.

فذبيحة المسيح إذًا هيَ الذبيحة التي تُقدم في الإفخارستيّا، ولكن ما الذي يعنيه ذلك؟ نظريات اللاهوتيّين عديدة بهذا الشأن، والكنيسة رفضت بعضها باعتبارها غير ملائمة، لكنها لم تدعم قط بصورة نهائية أيًا من هذه النظريات. ويوجز **نقولا كباسيلاس** الموقف الأرثوذكسيّ كما يلي:

[٣٣٢] كلمات حول الإفخارستيّا: " شركة الإفخارستيّا المُقدّسة- للأسقف كالستوس وير"، بيت التكريس لخدمة الكرازة، القاهرة ١٩٩٨م، ص ٥١.

"أولًا، الذبيحة ليست مجرد صورة أو رمز، بل هيَ ذبيحة حقيقيّة. حمل الله ذُبح مرة واحدة وإلى الأبد... ولا تتمثل الذبيحة في الإفخارستيّا في إراقة دم الحمل، بل بتحويل الخبز إلى الحمل المذبوح".[333]

والإفخارستيّا ليست إحياء لذكرى ذبيحة المسيح أو تصويرًا خياليًّا لها، بل هيَ الذبيحة الحقيقيّة عينها. لكنها ليست بذبيحة جديدة، كما أنها ليست تكرارًا لذبيحة الجلجلة إذ أن الحمل ذُبح (مرة واحدة وإلى الأبد). جميع عناصر ذبيحة التسبيح، التجسد، والعشاء الأخير، والصلب، والقيامة، والصعود، لا يجري تكرارها في الإفخارستيّا، بل هيَ معاشة من جديد.

"خلال القداس الإلهي، وبفعل قوته الإلهية، نُقذف إلى نقطة تلتقي فيها الأبدية مع الزمان. عند هذه النقطة نصبح معاصرين حقيقيّين للأحداث التي نحيي ذكراها".[334]

"وجميع العشاءات السرّيّة المُقدّسة في الكنيسة ليست سوى عشاء سرّي واحد أزلي فريد، عشاء المسيح في العلّية. فالفعل الإلهيّ نفسه وقع مرة في فترة محدّدة من التاريخ ويُعاد إحياؤه دائمًا في السرّ المُقدّس".[335]

فقد قال القديس إغناطيوس:

"إنّ جسد الرّبّ يسوع واحد. دمه المهرق عنّا واحد. خبز واحد كُسِر. وكأس واحد وزعت للجميع. ومذبح واحد لكلّ الكنيسة".[336]

وقال المطوّب كبريانوس:

"إنّ دم المسيح لا يُقدّم ما لم يكن في الكأس خمر. وتقديس "ذبيحة الرب" لا يتمّ قانونيًّا ما لم يكن "قرباننا **وذبيحتنا"** مطابقين لآلامه.. لأنّه إذا كان إلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح وهو رئيس الكهنة العظيم للآب قد قدّم نفسه ضحية وأمرنا أن نصنع ذلك لذكره فلا يتمّم الكاهن على

---

[333] شرح القداس الإلهي، ٣٢.

[334] بول افدوكيموف، (الأرثوذكسيّة)، ص٢٤١.

[335] المصدر نفسه، ص٢٠٨.

[336] رسالة لاهل فيلادلفيا فصل ٤ والى أهل مغنيسيا فصل ٨ والى أهل أفسّس فصل ٥.

الحقيقة عمل المسيح ما لم يعمل كما عمل يسوع المسيح نفسه. أعني أن يقدّم في الكنيسة للإله الآب "الذبيحة الحقيقيّة بتمامها" متبعا في ذلك مثال المخلص نفسه".[٣٣٧]

وقال القديس غريغوريوس:

"لإنّ المدبّر لكلّ شيء بحسب سلطانه السيديّ لم ينتظر الاضطرار الناتج عن الخيانة ولا هجوم اليهود اللصيّ، ولا محاكمة بيلاطس الخارجة عن الشريعة، كي لا يكون شرّ هؤلاء بدءًا لخلاص الناس العام وعلّة له. لكنه بتدبيره قد سبق هجومهم وهو نفسه قدّم ذاته قربانًا وذبيحة عنّا بعمل التقديس الذي لا يُنطق به، غير المنظور من البشر إذ هو كاهن وحمل الله الرافع خطية العالم. وإن سألت متى كان هذا؟ أجيبك. أنّه كان عندما جعل جسده مأكلًا بصريح العبارة وأعطاه للأكل وصارت ذبيحة الحمل كاملة. لإنّه لو كان الجسد ذا روح لما كان ضحية تصلح للأكل. فلما منح تلاميذه أن يأكلوا جسده ويشربوا دمه "ضحى جسده بوجه لا ينطق به وغير منظور. مدبرًا هذا السرّ كما أرادت سلطته".[٣٣٨]

وقال القديس يوحنا ذهبيّ الفم:

"ألسنا نحن نقدِّم كلّ يوم قرابين؟ نعم نقدِّم ولكننا نصنع تذكار موته، وهذه الذبيحة "التي كلّ يوم نقدّمها هيَ واحدة لا أكثر لأنّه قدَّم مرة واحدة مثل الذبيحة التي كانت تُقدَّم إلى قدس القديسين. وكما أنّه هو رسم لتلك هكذا هذه "الذبيحة" رسم لها. لإنّنا نقدِّمه نفسه دائمًا حملًا واحد، ولا نقدِّم الآن خروفًا آخر بل الحمل نفسه دائمًا. "فالذبيحة" إذًا هو واحدة. أو هل المسحاء كثيرون لأن "الذبيحة" تقدّم في كنائس كثيرة؟ حاشا. لأنّ المسيح واحد في كلّ مكان، وهو هُنا بكليته جسدًا واحدًا، كما أنّه يقدَّم في أماكن متعدّدة ولا يزال جسدًا واحدًا لا أجسادًا كثيرة، هكذا "الذبيحة" أيضًا واحدة هيَ".[٣٣٩]

ونجد مثل هذه الاقوال في تعاليم جميع آباء الكنيسة شرقًا وغربًا.

---

[٣٣٧] رسالة ٤٣.

[٣٣٨] عظة على قيامة المسيح، ١.

[٣٣٩] في تفسير العبرانيين، ١٦: ٧، وعلى ١كو٢٤: ٤، وعلى رسالة افسّس ٣: ٥، وفي الكهنوت ٣: ٤، ٤:٤.

بالتعبيرات "هذا يكون جسدي"، "هذا يكون دمي" يريد السيد أن يوضِّح لنا أن الإفخارستيّا هيَ ذبيحة، إذ وفقًا للطقوس اليهوديّة، فإنّ المصطلحات "جسد" (لحم)، و"دم" تدل على العناصر التي تتكوَّن منها الذبيحة، والتي يجب أن تقدَّم إلى الله على المذبح، "*فتعمل محرقاتك اللحم والدم على مذبح الرّبّ إلهك. أما ذبائحك فيسفك دمها على مذبح الرّبّ إلهك، واللحم تأكله*" (تث١١: ٢٧).

أيضًا العبارات " مبذولًا عنكم... مسفوكا عنكم وعن كثيرين " تجعلنا نعترف بالخاصية الكفارية والخلاصيّة للإفخارستيّا، فجسد المسيح دائمًا في حالة بذل، ودم المسيح دائمًا في حالة سفك، وذلك "لمغفرة الخطايا" كما يقول الإنجيليّ متّى (٢٦: ٢٨)، ولكي "يهب حياة للعالم" كما يقول الإنجيليّ يوحنا (٦: ٣٣).

هذا، وإنه لمن الواضح، أن كلمة " كثيرين " هنا ليس لها معنى محدود، ولكن متسع، أي أن جسد المسيح مبذول ودمه مسفوك لأجل كلّ البشر عامة، ولأجل كلّ واحد وحده خاصة، في كلّ مكان على الأرض، وعلى مر العصور كلها، وحتّى نهاية هذا العالم[٣٤٠].

وعلى أي الأحوال، فإنّ التعبيرات الإنجيلية " *من أجل كثيرين*" (مر١٤: ٢٤، مت٢٦: ٢٨) " عنكم" (لو٢٢: ٢٠) "*من أجل حياة العالم*" (يو٦: ٥١) تُحضر إلى ذهننا كلمات الإصحاح ٥٣ لإشعياء، حيث السيد المسيح يُصَوَر كالعبد المتألم الذي "*حمل خطية كثيرين وشفع في المذنبين* " (أش٥٣: ١٢).

هذه الخاصية الخلاصية لسرّ الإفخارستيّا، يشدّد عليها كلّ كاهن قبطي أثناء نطقه بالاعتراف، وقبل أن يناول المتقدمين للشركة كالآتي: "أؤمن، أؤمن، أؤمن وأعترف إلى النفس الأخير، أن هذا هو الجسد المحيي لابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح.. يعطى عنا خلاصًا وغفرانًا للخطايا وحياة أبدية لكل من يتناول منه"[٣٤١].

أيضًا، في كنيستنا القبطية الأرثوذكسيّة يحافظ الكاهن على الطقس كما مارسه السيد، إذ يناول المؤمنين الجسد أولًا ثمّ الدم، مؤكدًا بهذا على حقيقة كون الإفخارستيّا ذبيحة.

---

[٣٤٠] من الشواهد التالية يتضح لنا أن كلمة كثيرين ليس لها معنى محدود ولكن متسع، وكثيرا ما تستخدم بدلًا من كلمة "كلّ" (انظر على سبيل المثال: مت١٠: ٤٥ مع ١ تيمو٢:٢، ٦، رو ٥: ١٢ مع ٥: ١٦).

[٣٤١] انظر "الخولاجي المُقدّس وخدمة الشماس" ص ١٨٥ ـ ١٨٦.

تُقدَّم عن الأحياء والأموات

إنّ الكنيسة مجتمعة لها سلطان على كلّ الخليقة، إذ هيَ جسد المسيح، أي امتداد لتجسُّد الله وسط العالم، فلها ما للمسيح من سلطان إلهيّ (يو١٤: ١٢)، لذا فهي تغفر الخطايا، وتشفي المرضى، وتقيم المائتين في الخطايا وفي موت الجسد أيضًا،[٣٤٢] وتشفع حتّى في المائتين، وهذا بحسب إيمان كنيستنا. لكن فوق كلّ شيء، نحن لا نتحكم في هذه الأمور بشكل آلي، بل نؤمن بها ونصدقها، ونترك البقية لمراحم الله.

قال العلامة ترتليانوس:

"إنّها تُقدّم عن الأحياء والأموات".[٣٤٣]

وقال المطوَّب كبريانوس:

"إنّها تُقدّم عن الأموات".[٣٤٤]

وقال القديس كيرلس الأورشليميّ:

"إنّها ذبيحة استغفاريّة. وإنّنا نقدِّم المسيح مذبوحًا لأجل خطايانا، مستغفرين الإله المُحبّ البشر عنا (الأحياء) وعنهم (الذين رقدوا)".[٣٤٥]

وقال القديس يوحنا ذهبيّ الفم

"لإنّه لم يرتب هذا الترتيب على بسيط الحال، ولا باطلًا نذكر المتوفين على الأسرّار الإلهيّة، ونأتي متضرعين لأجلهم للحمل الموضوع الرافع خطية العالم، بل لكي تحصل من ذلك تعزية لهم. ولا عبثًا يصرخ الواقف على المذبح عند تتميم الأسرّار الرهيبة من أجل جميع الراقدين بالمسيح والذين يصنعون التذكار من أجلهم. ولو لم يقم التذكار من أجلهم لما قيلت هذه الكلمات. فلا نكل إذًا في مساعدتنا الراقدين بتقديمنا الصّلوات من أجلهم لأنّ التنقية العامة

[٣٤٢] ليس بحسب الهوى أو لعمل أعمال مبهرة بكلّ تأكيد، بل على مستوى المعجزات الإلهيّة التي للمسيح ربنا.
[٣٤٣] في الأكاليل ٣ وفي وحدة الزيجة فصل ٩.
[٣٤٤] رسالة ٦٦.
[٣٤٥] في الأسرّار ٦: ٨، ٥: ٨ و١٠.

لكلّ المسكونة هيَ حاضرة. ولهذا نتجاسر أن نطلب من أجل المسكونة وقتئذ وندعو للراقدين والشهداء والمعترفين والكهنة".[٣٤٦]

وفي محل آخر يشهد أن اقامة التذكارات في سرّ الإفخارستيّا عن الراقدين شريعة رسوليّة ويقول:

"لم يشرع عبثًا من الرسل إقامة تذكار الراقدين حين تتميم الأسرّار الرهيبة لأنّ الرسل يعرفون أنّ للراقدين ربحًا عظيمًا ونفعًا جزيلًا من ذلك".[٣٤٧]

ويقول القديس كيرلس الأورشليميّ:

"ثمّ بعد أن نتمّم الذبيحة الروحيّة والعبادة غير الدمويّة نتضرّع إلى الله تجاه ذبيحة الاستغفار هذه من أجل سلامة الكنائس عمومًا، ومن أجل الملوك، ومن أجل الجنود والمحاربين معهم، من أجل الذين في الأمراض، ومن أجل المتعبين، وبالأحمال من أجل جميع المحتاجين إلى مساعدة. فنطلب نحن جميعًا ونقدّم هذه الذبيحة".[٣٤٨]

[٣٤٦] عظة ٤١: ٤ على ١كو.

[٣٤٧] عظة ٣ على رسالة فيلبي.

[٣٤٨] في الاسرار ٥: ١.

سرّ التوبة والاعتراف

مفهوم التوبة

إنّ التوبة ليست فقط الدموع والبكاء والندم، بل هي تغيير اتجاه قلبي، عودة إلى أحضان الله المفتوحة لنا دائمًا. فالأمر الأساسيّ الذي يجب أن نصدقه من كلّ قلوبنا أنّ محبّة الله ثابتة، لا تتغيّر، لا نحتاج أن نفعل أي شيء فتزيد محبّة الله لنا، ولا نفعل أي شيء لتقل محبّة الله تجاهنا، بل هي ثابتة دائمًا. فما فائدة التوبة إذًا؟

إنّنا بفعل الخطية نبتعد بإرادتنا الحرّة عن الحضن الإلهيّ، نخرج عن مراحم الله المتسعة، نعطي لله ظهورنا بدلًا من وجوهنا، أي أنّ مراحم الله وحضنه مفتوح دائمًا لنا، ونحن من ندخل ونخرج منه، نحن من نلتصق به أو نبتعد عنه، وهو الكائن الأكثر سموًّا، لا يمكن أن يفرض ذاته علينا، فيتركنا لحرّيّتنا، إمّا أن نتوب أي نعود إلى حضنه، أو نستمر في الابتعاد عنه.

قال القديس يوحنا ذهبيّ الفم:

"إن كان بكاء بطرس محا خطية عظيمة جدًّا، فأنت اذا بكيت كيف لا يمحو الله خطيتك؟ لأن انكار ذاك لسيده لم يكن جريمة صغيرة بل عظيمة وقوية. ومع ذلك فقد محت الدموع الخطية. فأبك إذًا أنت أيضًا على خطيتك، **ولكن لا يكونن بكاؤك على حسب العادة وفي الظاهر فقط بل أبك بمرارة مثل بطرس وقدم ينابيع دموعك من داخل العمق حتّى يتحنن عليك السيد ويصفح عن** ذنبك".[349]

وقال القديس باسيليوس:

"**يجب على التائبين أن يبكوا بمرارة** وأن يظهروا من قلوبهم سائر علامات التوبة".[350]

---

[349] في التوبة ٣:٣.

[350] في أدبياته ١: ٣.

وقال أيضًا:

"ان **التوبة تدعو الإنسان أولًا أن يصرخ في نفسه ويسحق قلبه** ثمّ أن يصير قدوة صالحة للاخرين ويجعل طريقة توبته مسموعة ويشهرها".[351]

ولا يجب أن يكون هذا الانسحاق ناتجا عن الخوف **من العقاب، بل ينبغي أن يكون انسحاق القلب ناشئًا عن شعور بأنه أغضب الله المُحبّ.** لأنّ الحزن الأوّل هو **حزن العبيد**، أمّا النوع الثاني فهو شعور الأبناء. قال القديس يوحنا ذهبيّ الفم:

"تنهّد عندما تخطىء لا لأنّك مزمع أن تُعذَّب لأنّ هذا ليس شيئًا، بل لأنّك خالفت سيدك الوديع الذي يود وصبر إلى خلاصك حتّى أنّه أعطى ابنه عنك، فلهذا تنهّد واصنع هكذا دائمًا".[352]

وقال القديس باسيليوس:

"**لإنّ ليس الذي يقول أخطأت، ويلبث مصرًا على الخطية يعترف. لا. بل الذي يجد خطيته ويبغضها كما قال المزمور.** فما الفائدة للضعيف من اجتهاد الطبيب إذا كان يجلب ما يفسد حياته؟ هكذا لا فائدة من الصفح عن الظالم إن لم يكف عن ظلمه، ولا فائدة لمن يقول إنّه ترك الرجاسة ويبقى في نجاسته. فبدون المسامحة من الله لا يُمكن للإنسان أن يبتدىء بالحياة الفاضلة. ولهذا قد أراد مدبر حياتنا الحكيم من الذي امتحن ببعض الخطايا وعزم على السلوك بالسيرة المعافاة أن يضع حدًّا للأمور الماضية يجدّدها به، ويجعل لنفسه بدءًا جديدًا بعد الخطايا كان حياته قد تجدّدت بالتوبة. وأمّا الذي يعترف بخطاياه مرارًا ثمّ يسقط فيها بتواتر فإنّه يغلق عنه باب تعطفه ويتركه في اليأس".[353]

---

[351] شرح إشعياء ١٥.
[352] عظة ٧: ٥على ٢كو.
[353] على إشعياء ١: ٥: ١٤.

وقال أيضًا:

"إنّه لا يكفي للتائبين غفران الخطايا وحده للحصول على الخلاص بل **من الضروريّ أن تكون لهم أثمار لائقة بالتوبة**".[354]

وقال ذهبي الفم:

"إن اخطئت؟ فأدخل الكنيسة وأمح خطيتك. وكما أنّك بقدر ما تقع في الشارع وتنهض، هكذا كلّما خطِئت تب عن الخطية ولا تيأسن من ذاتك. وإن خطِئت ثانية فتب توبة ثانية أيضًا ولا تسقطن من الرجاء بالخيرات الموعود بها سقوطًا كاملًا بسبب إهمال. **وإن كنت في غاية الشيب وخطئت، فادخل واندم. لإنّ هذا المكان هو مستشفى وليس محكمة وهو لا يطلب مجازاة على الخطايا بل يهب صفح** الخطايا".[355]

الخطية التي بلا مغفرة

ورد في رسالة القديس يوحنا الإنجيليّ هذا النص: "إِنْ رَأَى أَحَدٌ أَخَاهُ يُخْطِئُ خَطِيَّةً لَيْسَتْ لِلْمَوْتِ، يَطْلُبُ، فَيُعْطِيهِ حَيَاةً لِلَّذِينَ يُخْطِئُونَ لَيْسَ لِلْمَوْتِ. تُوجَدُ خَطِيَّةٌ لِلْمَوْتِ. لَيْسَ لأَجْلِ هذِهِ أَقُولُ أَنْ يُطْلَبَ. ١٧كُلُّ إِثْمٍ هُوَ خَطِيَّةٌ، وَتُوجَدُ خَطِيَّةٌ لَيْسَتْ لِلْمَوْتِ" (١يو٥: ١٦، ١٧)،[356] فهل هُناك بالفعل خطيّة للموت، أي ليس لها مغفرة؟ يجيبنا القديس يوحنا ذهبيّ الفم قائلًا:

"ومثال لخطية التجديف على الروح القدس هو يهوذا الإسخريوطيّ الذي انقطع منه كلّ رجاء توبة، وما كانت ندامته سوى زيادة خطية على خطية فإنّه ذهب وشنق نفسه وارتكب إثمًا فوق إثمه. فعلى ذلك طالما يرجى من الخاطيء ندامة فلا تكون خطيته تجديفًا على الروح القدس، ولكن متى صمت صوت ضميره وتأصّل في قلبه بغض شيطانيّ ضد نعمة الله التي

[354] أدبيات ١: ٤.

[355] في التوبة ٣: ٤.

[356] هذا النص يوضّح بأجلى بيان أنّ للكنيسة حقّ الشفاعة في خطايا الآخرين، هذا الأمر -كما أوضحنا- الذي كان في قدرة المسيح على الأرض، ونقله للكنيسة إذ هيَ جسده.

كان ذاقها، وصارت حالته شبيهة بحالة الشيطان وبحالة يهوذا الإسخريوطيّ ولم يبق له رجاء توبة. حينئذ تكون خطيته تجديفًا على الروح القدس، ولا يمكن أن يحصل على غفران نظرًا للحالة الشنيعة التي وصل إليها. وقانا الله من مثل هذا التخلي الفظيع".[٣٥٧]

فهذه الخطية هي عدم الرجاء في الغفران الإلهيّ، إنعدام الإيمان بأنّ الله يغفر كلّ خطية مهما كانت ومهما كان فاعلها، وأيًا كان عِظَم مِقدار هذه الخطية في أعين البشر، فعدم الرجاء في مراحم الله هو أعظم خطية وأكبر خطية لا تُغفر.

الاعتراف على يد كاهن

بداية، يجب أن نعرف أنّ سرّ الاعتراف كان جهاريًّا ولمرة واحدة قبل العماد، وذلك في القرون الخمسة الأولى، ثمّ تطوَّر السرّ في الغرب حتّى صار الاعتراف في أذن الكاهن، ثمّ صار هُناك كرسيّ اعتراف بجانب حجرة تحجب المعترف عن الكاهن.

أمّا في الشرق فيكفي أن نذكر أنّ الاعتراف على يد كاهن كانت تعدّه الكنيسة القبطيّة بدعة، وترفضه تمامًا، وهُناك حادثة شهيرة لكاهن يُدعى مرقس بن قنبر، في القرن الثاني عشر، تمّ ايقافه لأنّه كان يدعو الناس للاعتراف على يد كاهن. وكانت الكنيسة القبطية تستخدم الاعتراف على الشوريا بدلًا من ذلك، وظلّ الأمر هكذا على مدى قرن ونصف تقريبًا، وفي معية ثلاثة بطاركة.

عند الآباء

قال القديس يوحنا ذهبيّ الفم:

"لإنّ ساكني الأرض والقاطنين فيها قد سمح لهم أن يسوسوا ما في السموات، وأخذوا سلطانًا لم يعطه الله لا للملائكة ولا لرؤساء الملائكة، لأنّه لم يقل لأولئك كلّ ما تربطونه على الأرض يكون مربوطًا في السماء، وكلّ ما تحلّونه على الأرض يكون محلولًا في السماء.. ثمّ أنّ للمتسلطين سلطانًا في الأرض أن يربطوا ولكنهم يربطون أجسادًا فقط، وأمّا هذا الرباط فإنّه

---

[٣٥٧] تفسير متّى عظة ٤١: ٣.

يمس النفس عينها، ويجتاز السموات، وما يعمله الكهنة تحت يثبته الله فوق، ويؤيّد السيد رأي العبيد''.[358]

وقال أيضًا:

''إنّ الآباء الطبيعيّين إذا خالف أولادهم أحدًا من الرؤساء أو ذوي القدرة في هذه الحياة لا يستطيعون أن ينفعوهم شيئًا. **وأمّا الكهنة فإنهم كثيرًا ما استعطفوا وصالحوا لا رؤساء وملوكًا بل الله** نفسه''.[359]

وقال أيضًا:

''أي سلطان يمكن أن يكون أعظم من هذا السلطان؟ إن الآب أعطى الحكم كلّه للابن وأرى أنّ هؤلاء تسلموه كلّه من الابن.. وقد كان لكهنة اليهود سلطان أن يطهروا برص الجسد، وبالأحرى لم يكونوا يطهرونه بل يفحصون المعتوقين منه، وأنت تعلم كم كان سلطانهم وقتئذ مشتهى. **ولكن هؤلاء قد نالوا سلطانًا لا على برص جسدانيّ بل على الدنس النفسانيّ، ولا أن يفحصوه بعد التطهير بل أن يطهروه تمامًا''**.[360]

وقال القديس أمبروسيوس:

'' من يستطيع أن يترك خطايا إلّا الله وحده والذين أعطاهم هو هذا السلطان''. ''إنّ هذا الحق أعطيَّ للكهنة وحدهم''.[361] ''إنّ البشر يتممون سرّ التوبة لغفران الخطايا من دون أن يكون لهم سلطان في ذلك باسمهم، وإنّما يتمّمونه بالاسم الممجد اسم الآب والابن والروح القدس، فهم يطلبون والله يعطي وعلى البشر الطاعة هُنا ومن الله الهبة العظيمة''.[362]

وقال المطوَّب أغسطينوس:

''إنّ الخطية إذا فعلها موعوظ تغسل بالمعموديّة، وإذا فعلها معتمّد تترك بالتوبة''. ''وقروهم (الآباء الروحيّين) وأكرموهم وقدموا لهم جميع أنواع الكرامة، لأنّهم أخذوا من الله سلطان

---

[358] في الكهنوت عظة ٣: ٤ و٥.
[359] في الكهنوت ٣: ٦.
[360] الكهنوت عظة ٣: ٥و٦.
[361] التوبة ١: ٢.
[362] في الروح القدس ٣: ٨.

الحياة والموت بأن يحاكموا الخطاة ويحكموا بموت نار أبديّ، وأن يحلّوا الراجعين عن خطاياهم".

الكاهن شاهد للكنيسة أمام المسيح، وليس غافرًا للخطايا

ليس في الكنيسة الأرثوذكسيّة كرسيّ اعتراف على الطراز الكاثوليكيّ، فالتائب والمعرِّف على العموم يقفان معًا أمام الأيقونسطاس، وأحيانًا وراء ستاره، أو داخل غرفة مخصّصة لهذا الأمر. يقف التائب أمام الصليب أو أيقونة السيّد أو كتاب الأناجيل، ويقف الكاهن إلى جانبه. **ووضع الشخصين على هذا النحو يؤكِّد بأن الله هو الحاكم في الاعتراف، وبأن الكاهن ليس سوى شاهد وخادم الله**. ويُشار إلى ذلك أيضًا من خلال قول الكاهن قبل سماع الاعتراف:

"يا ولدي، المسيح موجود هنا بشكل غير منظور ويتقبل اعترافك. لا تخجل ولا تخش شيئًا ولا تخبئ عليّ أي أمر. بل اذكر بدون إحجام كلّ ما اقترفته، كي تحوز على الغفران من ربنا يسوع المسيح. انظر إلى أيقونته قربنا. وما أنا سوى شاهد يشهد أمامه لكل ما ستقوله لي. ولكن لو أخفيت عني شيئًا، ستقترف ذنبًا كبيراً. تشجّع إذًا، جئت إلى الطبيب، فحذار أن تعود غير معافى".[٣٦٣]

شرح بعض الآيات الخاصة بمفهوم الحل والربط

مت ١٦:١٨و١٩ "وَأَنَا أَقُولُ لَكَ أَيْضًا: أنت بُطْرُسُ، وَعَلَى هذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْنِي كَنِيسَتِي، وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا. وَأُعْطِيكَ مَفَاتِيحَ مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ، فَكُلُّ مَا تَرْبِطُهُ عَلَى الأرض يَكُونُ مَرْبُوطًا فِي السَّمَوَاتِ. وكلّ مَا تَحُلُّهُ عَلَى الأرض يَكُونُ مَحْلُولًا فِي السَّمَوَاتِ".

ليس عفويًا أن يعطي المسيح مفاتيح ملكوت السموات لبطرس ليربط ويحل، بل على أساس الإيمان الذي أرسى قواعده، فهذا الإيمان إن شبَّهناه بالمفتاح يصبح كلّ مفتاح ينطبق على هذا **المفتاح بمواصفات الإيمان الذي فيه**، إذا دخل "الكالون" وانطبقت المواصفات انفتح "الكالون" من ذاته، وبالتالي انفتح

[٣٦٣] هذا الإرشاد موجود في الكتب الطقسيّة السلافونيّة وليس في الكتب اليونانيّة أو القبطيّة، أو العربيّة.

الباب السماوي الذي للملكوت. فبطرس لا يفتح بإرادته ولا يغلق بإرادته، ولكن بمقتضى انطباق إيمان كلّ إنسان طالب الملكوت. **فطالما انطبق إيمانه على إيمان بطرس الذي أصبح إيمان الكنيسة ينفتح له باب الملكوت، والذي إيمانه لا يطابق إيمان الكنيسة الذي هو "يسوع المسيح ابن الله" لا ينفتح له الملكوت، مهما كانت مشيئة الناس.**[٣٦٤]

وفعلًا فتحَ بطرس ملكوت السماوات أولًا لليهود في (أعمال الرسل ٢:١٤-٤٢) وثانيًا للسامريين في (أعمال الرسل ٨:١٤-١٧) وثالثًا للأمم في (أعمال الرسل ١٠:١ إلخ).

كما أنّ الرسول بطرس مُشتركًا في **ربط خطية حنانيا وامرأته** عليهما للتأديب (أعمال الرسل ٥:١-١١) وكذلك **خطية سيمون الساحر** أيضًا الذي كان قد اعترف بالمسيح (أعمال الرسل ٨:٢٠) غير أن الحكم بالتأديب في هذه الحادثة الأخيرة إنما يستنتج من جواب سيمون نفسه الذي ظهر له أنّه لا بد من وقوع القصاص عليه طبقًا لكلام الرسول. وأما من جهة اشتراك الرسول في إجراء الحل فلم يُرِد في الكتاب ذكر لذلك. ونرى الرسول بولس أيضًا مُشتركًا في هذا العمل من الوجهين، **أولًا الربط في** (أعمال الرسل ١٣:٦-١٢) حيث ربط خطية **باريشوع** عليه للقصاص إلى حين. وفي ذلك ما يستحق المُلاحظة لأن المذكور لم يكن قد اعترف باسم المسيح ولكنه كان يهوديًا تحت المسئولية الخصوصية لله فأجرى عليه الحكم التأديبي على وجه صائب. وكان أيضًا نبيًا كذابًا يُقاوم الحق. وكان في ذلك **مثالًا لأُمة اليهود على وجه الإطلاق. فإنهم رفضوا المسيح. وصاروا أشد المُقاومين للإنجيل إلى أن أفرغوا صبر الله وطول أناته فربط خطاياهم عليهم للقصاص**. فاستخدم بولس ليُخصص لهم نبوة إشعياء بشأن ذلك (انظر أعمال الرسل ٢٨:٢٣-٢٧؛ تسالونيكي الأولى ٢:١٥، ١٦). فسقوط الضباب والظلمة على بصر ذلك المُقاوم إلى حين هو نظير الحكم بالعمى، الذي حكم به على اليهود إلى هذا اليوم. ونرى أيضًا أن هذا الرسول قد حكم بالربط (كورنثوس الأولى ٥:٣-٥) **وبالحل** (كورنثوس الثانية ٢:٥-١١) **وبالربط أيضًا** (تيموثاوس الأولى ١:٢٠). ويتضح من هذه العبارات المُتعلقة بإجراء الربط والحل أنهما من الأعمال التي تُجرى على الأرض مؤقتًا. **ولا دخل لهما في أمر خلاص النفس أو هلاكها. حتّى ولو كان التأديب ينتهي بموت المحكوم عليه فإننا لا نقدر بناء على ذلك أن نجزم بهلاكه.**

---

[٣٦٤] الأب متّى المسكين، شرح وتفسير إنجيل القديس متّى.

إن كان ملكوت السماوات هو عمل إلهيّ يعلنه الآب في قلوبنا بالروح القدس في ابنه، **فقد قدّم مفاتيح هذا الملكوت بين يديّ الكنيسة، لا لتسيطر، وإنما لتخدم البشريّة**. لقد تسلّمت السلطان لا لتعمل بذاتها بل بالروح القدس الساكن فيها. فتشترك العروس في عمل العريس نفسه، لتنال كرامة الشركة معه على أن تتم إرادته الإلهيّة في سلوكها.

مفتاح الملكوت في الحقيقة هو في ملكيّة ابن داود نفسه الذي يفتح ولا أحد يُغلق، ويُغلق ولا أحد يفتح، فإنّ كان السيّد قد وهب كنيسته هذا المفتاح الإلهيّ إنّما يأتمنها عليه ويبقى هو العامل سرّيًا في داخلها، يعرف من يستحق فيفتح له خلالها ومن يتركه خارجًا يغلق عليه.[٣٦٥]

مت ١٨: ١٨ "الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: كلّ مَا تَرْبِطُونَهُ عَلَى الأرض يَكُونُ مَرْبُوطًا فِي السَّمَاءِ، وكلّ مَا تَحُلُّونَهُ عَلَى الأرض يَكُونُ مَحْلُولًا فِي السَّمَاءِ".

فالحلّ والربط هنا يخص التعليم ووضع الأُسّس الصحيحة للكنيسة وتعاليمها عامة. أمَّا المعنى الثاني وهو الغفران من عدمه فهو بعد نوالهم قوة الروح القدس، الأمر الذي جعله ق. يوحنا لهم خاصة، بالنفخ في وجوههم بعد القيامة مباشرة، ودون انتظار حلوله العام في يوم الخمسين، وذلك لأهمّيّة الروح القدس في الغفران وإعطاء المشورة في الربط. **وسواء كان الأوّل أو الثاني فهو السور المنيع الذي حفظ الكنيسة من الخارجيّن عن الإيمان الصحيح ومبتدعي العقائد**. ولا تزال تحافظ الكنيسة على هذا السلطان من أجل غفران الخطايا وعدم غفرانها، دون شروط مسبقة من المسيح، ذلك اعتمادًا على مشورة الروح القدس.[٣٦٦]

إذًا برفضه الكنيسة يَحرم الإنسان نفسه من العضويّة في جسد المسيح، ويصير من حق الكنيسة أن تربطه. إذ يكمّل السيِّد كلماته هكذا: "الحق أقول لكم كلّ ما تربطونه على الأرض، يكون مربوطًا في السماء، وكلّ ما تحلّونه على الأرض يكون محلولًا في السماء". أنّه يربط نفسه بنفسه برفضه الفكر الكنسي، وتلتزم الكنيسة أن تربطه ليس تشفيًا فيه، وإنما لحفظ بقيّة الأعضاء من فساده لئلا يتسرب إليهم، كما تُعزل الخميرة الفاسدة عن العجين كله، أو يُبتر العضو الفاسد. وإن كان هذا الأمر لا يتمّ باستهتار أو

---

[٣٦٥] من تفاسير وتأملات الآباء الأولين، على إنجيل متى، الأب تادرس يعقوب.

[٣٦٦] الأب متّى المسكين، شرح وتفسير إنجيل القديس متّى.

بتسرّع. فإنه ليس سهلًا أن يقبل إنسان بتْر عضو من جسده إلا بعد استخدام كلّ وسيلة ووسيلة لعلاجه، وحينما يجد جسده كلّه في خطر يلتزم تسليمه للبتْر. أقول أنّه ما أصعب على قلب الكنيسة أن ترى إنسانًا. يُلقي بنفسه خارجًا ويُلزمها بربطه، أنها تبقى منتظرة من يومٍ إلى يومٍ رجوعه لكي تحِلُّه فيجد بابها مفتوحًا له. لهذا يذكر السيِّد الربط أولًا فالحَل، ليعطي للمربوطين رجاءً في الحَل، وليلهب قلب الكنيسة نحو حلّ المربوطين فلا تستكين من جهة خلاصهم حتّى وإن كانوا قد ألقوا أنفسهم بأنفسهم خارج أبوابها.[٣٦٧]

يو ٢٠: ٢٣ "مَنْ غَفَرْتُمْ خَطَايَاهُ تُغْفَرُ لَهُ، وَمَنْ أَمْسَكْتُمْ خَطَايَاهُ أُمْسِكَتْ".

وقال القديس كيرلس السكندريّ:

"ان المتوشحين بالروح القدس يتركون الخطايا أو يمسكونها على نوعين كما أرى: أما بأنهم يدعون إلى المعموديّة الذين اقتضى نوالهم اياها حسن سلوكهم وخبرتهم في الإيمان، وأما بأنهم يمنعون البعض ويحجبونهم عن النعمة الالهية، لأنهم لم يصيروا بعد مستحقين لها. أو على وجه آخر أيضًا يتركون الخطايا ويمسكونها، وذلك أما بقصاصهم أبناء الكنيسة عندما يخطئون واما بمسامحتهم اياهم عندما يندمون".[٣٦٨]

ومن الأهمّيّة بمكان عظيم، أن نذكر:

(١) إنّ هذا السلطان ليس وقفًا على فرد من الأفراد، مهما سمت رتبته، لكنه من حق الكنيسة مجتمعة.

(٢) إنّ الحل والعقد المذكورين في هذه الآية، ليسا من الأحكام التعسفية التي يصدرها من يشاء، حسبما يشاء، بل هما **من النتائج المترتبة على الكرازة بكلمة البشارة. فالكلمة نفسها هيَ خير حكم لمن يقبلونها، وعلى من يرفضونها**. أو بعبارة أخرى: إن خير حكم للإنسان، أو عليه، هو الإنسان نفسه – فإنّ قبل كلمة البشارة تمتع بنعمة الغفران، **وإن رفضها صار هو الحاكم على نفسه** بأنه ليس أهلًا لهذه النعمة. وخير مثال لذلك، ما جاهر به بولس وبرنابا لليهود الذين لم يقبلوا كلمة الإنجيل "كان يجب أن تكلموا أنتم بكلمة الله ولكن إذ دفعتموها عنكم

[٣٦٧] من تفاسير وتأملات الآباء الأولين، على إنجيل متى، الأب تادرس يعقوب.

[٣٦٨] تفسير يوحنا ٢٠: ٢٣.

وحكمتم أنكم غير مستحقين للحياة الأبدية، هو ذا نتوجه إلى الأمم" (أعمال ١٣: ٤٦). **وما إمساك الخطايا إلا نتيجة طبيعية لعدم غفرانها**.

سرّ مسحة المرضى

"أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب. وصّلاة الإيمان تشفى المريض والرّبّ يقيمه. وان كان قد فعل خطية تغفر له" (يع ٥: ١٤و١٥)

قد مارس الرسل هذا السرّ عندما أرسلهم المسيح للكرازة كما قال مرقس الانجيلى "**ودهنوا بزيت مرضى كثيرين فشفوهم**" (مر٦: ١٣)

والأرثوذكسيّة لا تؤمن بأن سرّ الزيت (أو مسحة المرضى) يجلب الصحة للمريض بصورة آلية. أنّه يجلب أحيانًا الشفاء، وإلا فإنه يؤثّر على المريض في العمق ويمنحه القوى الروحية التي يحتاجها لاستقبال الموت:

لهذا السرّ وجهان، واحد يتجه للشفاء، والثاني للخلاص من المرض من طريق الموت.[٣٦٩]

يعرف هذا السرّ في الكنيسة الكاثوليكية (بالمسحة الأخيرة) التي تعطى للمحتضرين فقط، وقد أُهمل مفهوم الشفاء كليًا. أما في الكنيسة الأرثوذكسيّة، فيعطى هذا السرّ لكل مريض كائنة ما كانت خطورة مرضه.

عند الآباء

فالقديس أوريجانوس عند تعداده الوسائط للحصول على غفران الخطايا، كالمعموديّة والاستشهاد قال:

"وهنا يتم ما قيل من يعقوب الرسول: أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة **فيضعوا عليه الأيدي** ويمسحوه بزيت باسم الرّبّ وصّلاة الإيمان تخلص المريض وإن كان مرتكبًا لخطايا تغفر له".

[٣٦٩] سرجيو بولغاكوف، (الأرثوذكسيّة)، ص ١٣٥.

ولنلاحظ هنا في قول أوريجانوس **أنّه أبدل عبارة الرسول "يصلوا عليه" بقوله "يضعوا علية الأيادي" وبذلك يشير إلى العادة الجارية منذ الأزمنة الأولى** حتّى الآن في تتميم سرّ الزيت، وهيَ وضع الكاهن يده على رأس المريض حين يصلي عليه. **ومن كلام أوريجانوس نستنتج أيضًا أنّه لا يضع فاصلًا بين سرّيّ التوبة والمسحة بالزيت لأنّه يتكلم عن الواحد بعد الآخر، وهذا يدل على أن سرّ المسحة كان يتمّم قديمًا بعد سرّ التوبة.**

والقديس يوحنا ذهبيّ الفم يقول عند مقابلته بين الكهنة والآباء الجسديين:

"أمّا أولئك (أي الوالدين) فيلدوننا لهذه الحياة وأمّا هؤلاء فلتلك. أولئك لا يستطيعون أن ينقذونا من الموت الجسديّ ولا أن يزيلوا مرضًا يتسلّط علينا. **وأمّا هؤلاء فكثيرًا ما خلّصوا نفسًا مريضة وقريبة من الهلاك، وجعلوا عذاب البعض خفيفًا جدًّا، ولم يدعوا كثيرين أن يسقطوا في عذاب أو أن يدنوا منه**، ليس بالتعليم والإرشاد فقط بل بمساعدتهم بالصّلوات أيضًا. لإنَّ سلطانهم في غفران الخطايا لا ينحصر في البرهة التي يلدوننا فيها بالمعموديّة بل يمتد إلى ما بعدها أيضًا. لإنّه يقول: "أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرّبّ وصّلاة الإيمان تشفى المريض والرّبّ يقيمه وإن كان قد فعل خطية تغفر له". ثمّ إنّ الوالدين الطبيعيّين لا يستطيعان أن ينفعا أولادهما بشيء إذا سقطوا تحت غضب أحد من ذوي التقدُّم والاقتدار في هذه الدار، لكن الكهنة يسترضون لهم لا رئيسًا ولا ملكًا أرضيًّا، بل الله ذاته الذي يغضبونه مرارًا كثيرة".[٣٧٠]

والقديس كيرلس السكندري يقول وهو يحارب السحر:

"أمّا أنت فإذا كنت موجعًا في أجزاء جسدك وآمنت بالحقيقة إنّ دعاءك باسم رّبّ الصباؤوت وسائر أنواع الدُعاء التي ينسبها الكتاب الإلهيّ لله بحسب طبيعته تحلّ مصيبتك، فصل هذه الكلمات وادع بها عن نفسك لأنك تعمل عملًا أفضل من أولئك المؤمنين بالسحر، إذا كنت تقدِّم المجد لله لا للأرواح النجسة. وإنّنى لمتذكر الكتاب الإلهيّ حيث يقول "أمريض أحد

---

[٣٧٠] عظة ٣: ٦ في الكهنوت.

بينكم فليدع قسوس الكنيسة فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرّبّ وصّلاة الإيمان تشفى المريض والرّبّ يقيمه وان كان قد فعل خطية تغفر له". [٣٧١]

ويبيّن القديس غريغوريوس في كتابه في الأسرّار كيفية تتميم سرّ الزيت مع صلواته، وفيه يذكر أن الكاهن يمسح المريض بزيت على اسم الآب والابن والروح القدس ويقول له:

"لا يبق فيك الروح النجس مختفيًا بل فلتسكن فيك قوة المسيح الإله والروح القدس لكي تشفى بتتميم هذا السرّ وبمسحة الزيت المُقدّس، وبصلواتنا بقوة الثالوث القدوس وتعود إلى الصحة التامة".

[٣٧١] في العبادة بالروح والحق كتاب ٤.

سر الزيجة

كتابيًّا

جاء في سفر التكوين بدايات الخلق، وبدايات العلاقة بين الله والإنسان، وبدايات العلاقة بين الرجل والمرأة، كالتالي:

"فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه ذكرا وأنثى خلقهم. وباركهم الله وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض" (تك ١: ٢٧و٢٨).

وقول الرّبّ بعد خلق آدم:

"ليس جيدا أن يكون آدم وحده. فاصنع له معينا نظيره" (تك ٢: ١٨).

وعند خلق المرأة قال:

"فأوقع الرّبّ الإله سباتا على آدم فنام. فاخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما. وبنى الرّبّ الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة لأنها من أمرء أخذت. لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسدا واحدا" (تك ٢: ٢١-٢٤).

ولما فسد البشر وهلك العالم بالطوفان لم يبطل الله هذا الناموس، بل عاد وثبته كما يقول الكتاب

"وبارك الله نوحا وبنيه وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض" (تك ٩: ١).

هذا ما عاد إليه وأشار له ربنا يسوع المسيح بقوله:

"أما قرأتم أن الذي خلق من البدء خلقهما ذكرا وأنثى. وقال: من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسدا واحدا. اذا ليسا بعد اثنين بل جسد واحد. فالذى جمعه الله لا يفرقه انسان" (مت ١٩: ٤-٦).

وعلى ذات المنهاج يتحدث بولس الرسول في كثير من المواضع كالتالي:

"لأن الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل. ولأن الرجل لم يخلق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل. غير أن الرجل ليس من دون المرأة ولا المرأة من دون الرجل في الرب. لأنه

كما أن المرأة هيَ من الرجل هكذا الرجل أيضًا هو بالمرأة. ولكن جميع الاشياء هيَ من الله" (١كو١١: ٨-١٢).

"اذا من زوج عذراءه فحسنا يفعل" (١كو٧: ٣٧) كم بالشجب على الذين يحتقرون رباط الزيجة المُقدّس (١تى ٤: ١و٢)

"ايها النساء أخضعن لرجالكن كما للرب. لأن الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح أيضًا رأس الكنيسة وهو مخلص الجسد ولكن كما تخضع الكنيسة للمسيح كذلك النساء لرجالهن في كلّ شيء". وبقوله للرجال "أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحبّ المسيح أيضًا الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها. لكي يقدّسها.. كذلك يجب على الرجال أن يحبوا نساءكم. من يحب امرأته يحب نفسه. فانه لم يبغض أحد جسدة قط بل يقوتة ويربية كما الرّبّ أيضًا للكنيسة.لاننا اعضاء جسمة من لحمة ومن عظامة.من اجل هذا يترك الرجل اباة وامة ويلتصق بامراتة ويكون الاثنان جسدا واحدا. هذا السرّ عظيم ولكننى أنا أقول نحو المسيح والكنيسة" (أف ٥: ٢٢-٣٢).

"المرأة مرتبطة بالناموس ما دام رجلها حيا. ولكن أن مات رجلها فهيَ حرة لكي تتزوج بمن تريد في الرّبّ فقط" (١كو٧: ٢٩).

"ليكن الزواج مكرما عند كلّ واحد والمضجع غير نجس..." (عب ١٣: ٤).

"لأن هذه هيَ ارادة الله قداستكم. أن تمتنعوا عن الزنا. أن يعرف كلّ واحد منكم أن يقتنى اناءه بقداسة وكرامة. لا في هوى شهوة كالامم الذين لا يعرفون الله، (١تس ٤: ٣-٥).

الزواج في اليهوديّة

هدف الزواج الأسمى والأساسي في اليهودية هو **الإنجاب**، فكان الإنجاب **علامة على البركة والرضى الإلهيّ** (تك٢٢: ١٧- ١٨). ويعود ذلك لعدم إيمانهم بالحياة الأُخرى بعد الموت، **فيجب حفظ الإنسان من خلال نسله**.. وهذا ما نراه من شريعة زواج الأخ من أرملة أخيه ليصنع له نسلًا فيصنع له

خلودًا ولو جزئيًا (تك٣٨: ٨)، **وهو ما نرى صداه في العهد الجديد حين يكتب الرسول بولس أن ولادة الأبناء تُخلِّص لكن فقط إن تمّت في** ''إيمان ومحبة وقداسة'' (١تي٢: ١٥).

وكما نعرف **فإنّ اليهودية كانت تسمح بالطلاق** كما جاء في سفر التثنية (٢٤: ١، ٢) وفي أسفار أخرى كثيرة من العهد القديم.

الزواج في العالم الروماني

''**ليس الزواج في المعاشرة الجنسية، إنما الزواج في الاتفاق**''.

لم يكن الزواج في العالم الروماني وسيلة لتحديد الأنسال، بقدر ما كان حفظًا للحقوق واختيارًا حرًا لطرفين من الأحرار (أي ليسا من العبيد).

فهو عقد بين طرفين، **وكأي عقد فإمكانية فسخه قائمة في أي وقت**.. ولكن الشروط التي تسمح بانحلال العقد اختلفت قليلًا بين الرومان واليهود والمسيحيّين الأوائل كما سنرى.

الزواج كسرّ كنسيّ

الزواج المسيحيّ في بدايته **لم يكن خارجًا عن تلك القوانين المدنية الرومانية السابق ذكرها**، بل خاضعًا لقوانين الدولة المدنية، كما يذكر ذلك الفيلسوف والمدافع المسيحيّ أثيناغوراس (عام ١٣٠ تقريبًا)، حين كتب:

''كل منا يعتبر المرأة التي تزوجها حسب قوانينكم زوجة له''.

وحتى القرن الرابع، في عهد القديس يوحنا الذهبي الفم، نجده يُشير إلى سيادة القانون المدني على المجتمع المسيحيّ، وذلك في عظاته على التكوين (٥٦: ٢).

وفي القرن الخامس نجد المطوّب أغسطينوس يكتب:

"ان التعدّد كان مباحا لأنه كان متوافقا مع العرف، وليس مباحا في عهدنا لأنه مخالف للعرف، السبب الوحيد لتجريم التعدّد حاليا هو لأنه مخالف للعرف والقانون".[٣٧٢]

لكن، كما سنرى في كتابات الآباء، فإنّ الكنيسة كانت تبارك الزواج، أي تكون شاهدة عليه، معطية بركة له، ومُكللة الزوجين بالروح القدس.

عند الآباء

قال **القديس اغناطيوس الشهيد:**

"يجب على المتزوجين والمتزوجات أن يجروا اتحادهم برأي الأسقف، لكي يكون الزواج مطابقًا لإرادة الله لا بحسب الشهوة".[٣٧٣]

وقال العلامة **ترتليانوس:**

"كيف يمكننا أن نعبر عن سعادة الزيجة التي تباركها الكنيسة ويثبتها القربان وتختمها البركة".[٣٧٤]

وقال **المطوَّب أمبروسيوس**:

"إذا كان من الواجب أن يعقد الزواج بُحلّة كهنوتيّة وبركة فكيف يمكن أن تكون زيجة حيث الإيمان مختلف؟".[٣٧٥]

وقال:

---

[372] *Augustin.Reply to Faustus the Manichæan Book 22 c47 In The Writings Against the Manichaeans and Against the Donatists, P289*

[٣٧٣] رسالة إلى بوليكربوس فصل ٦.

[٣٧٤] لامرأته ٢: ٩.

[٣٧٥] رسالة إلى ويجيليوس فصل ٧: ١٩ و٢٣.

"إنّنا نعترف بأنّ الله هو سيد الزواج وحارسه ولا يطيق أن يدنس المضجع. فمن يخطىء خطية كهذه يخطىء ضد الله إذ يخالف شريعته ويسيء استعمال نعمته، ومتى أخطأ ضد الله لا يقدر أن يشترك في السرّ الإلهي".[٣٧٦]

وقال **القديس يوحنا ذهبيّ الفم** عند كلامه ضد الأغاني والاحتفالات غير اللائقة في الأعراس:

"قل لي لماذا تسمح من بادىء الأمر بأن تمتلىء آذان ابنتك من الشوائب بالاناشيد القبيحة وبذاك الاحتفال الذي لا محل له؟ ألست تعلم أن الصبوة سهلة الزلق؟ لماذا تهتك صّلوات الزيجة الموقرة؟ فإنّه ينبغي أن ترفض كلّ هذه وتعلم ابنتك الحياة منذ البدء، وتدعو الكهنة وتعقد اتحاد الأزواج بالصّلوات والبركات لكي ينمو شوق العريس وتزداد عفة العروس، يدخل عمل الفضيلة في بيتهما بكلّ وجه".[٣٧٧]

وقال **يوحنا ذهبيّ الفم في** مثل هذا المعنى:

"لإنّ كلّ واحد أخذ ما له. فهذا الزواج إذًا هو زواج بحسب المسيح. هو زواج روحيّ وولادة روحيّة. لا من دم ولا من المخاض كما أنّ ولادة إسحق هكذا كانت. واسمع ماذا يقول الكتاب المُقدّس: وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء. فلم يكن الزواج عن هوى ولا كان زواجًا جسديًّا بل كان كلّه روحيًّا. زواج نفس اتحدت بالله اتحادًا يفوق الوصف كما يعلم هو وحده. ولهذا يقول إنّ من يلتصق بالرب يكون روحًا واحدًا. وانظر كيف يجتهد في أن يقرن الجسد بالجسد ويجمع بين الروح والروح".[٣٧٨]

الطلاق في المفهوم الأرثوذكسيّ

إنَّ اللاهوتيين الأرثوذكس يفسّرون السماح بالطلاق في حال الزنى بقولهم أن **مادة سرّ الزواج هيَ الحب. والزّنى يعني أن الحب لم يعد قائمًا بين الزوجين**. لذلك **فالطلاق** الذي تعلنه الكنيسة ليس من شأنه

---

[٣٧٦] عظة على إبراهيم ١: ٧.
[٣٧٧] على التكوين مقالة ٤٨: ٦.
[٣٧٨] على أفسّس مقالة ٢٠: ٥.

فسخ الزواج ولا إزالة الحب. **إنّما هو مجرّد إعلان بأن الحب بين الزوجين قد تلاشى**، وبأن الزواج بالتالي لم يعد قائمًا. ويعتبرون موت الحب شبيهًا بالموت الجسدي وبموت الإيمان في حال الجحود.[379]

إنّ الكنيسة الشرقية، بقبولها الطلاق كحالة استثنائية، **تؤكّد الاحترام للشخص البشري ولسرّ الحب. فالحب لا يمكن أن يُفرَض على الإنسان. والأمانة الزوجية، كالإيمان والاستشهاد، يجب أن تبقى عمل الحرية، وإلاّ فلا قيمة لها.**"[380]

هناك حالة سمح فيها بولس الرسول نفسه بالطلاق، دعيت **"الامتياز البولسي"**. ففي بدء المسيحيّة كان يحدث أن يهتدي إلى المسيحيّة أحد زوجين كانا قد عقدا زواجهما في اليهودية أو الوثنية. فكان السؤال: هل يتوجّب على من صار مسيحيًّا أن يبقى على زواجه، أم يستطيع أن يفسخه ويتزوّج من جديد مع شخص مسيحيّ؟ على هذا السؤال أجاب بولس الرسول:

"أمّا الباقون فأقول لهم، أنا لا الرب: إن كان أخ له امرأة غير مؤمنة، وهي ترتضي أن تقيم معه، فلا يتركها؛ والمرأة التي لها رجل غير مؤمن وهو يرتضي أن يساكنها، فلا تترك رجلها. لأن الرجل غير المؤمن يقدّس بالمرأة المؤمنة، والمرأة غير المؤمنة تقدّس بالأخ المؤمن. وإلاّ فيكون أولادكم نجسين، والحال أنّهم قدّيسون. ولكن، إن فارق غير المؤمن، فليفارق؛ فليس الأخ أو الأخت مستعبدًا في مثل هذه الأحوال، فإنّ الله قد دعاكم لتعيشوا في سلام. فما أدراكِ، أيتها المرأة، أنّك تخلّصين رجلكِ؟ وما أدراكَ، أيها الرجل، أنّك تخلّص امرأتك؟" (١ كو ٧: ١٢- ١٦).

إنّ القديس يوحنا الذهبي الفم، في تعليقه على هذا النصّ، يقول:

"إنّ فسخ الزواج أفضل من الهلاك".

فهناك حالات خاصة تفرغ فيها الحياة الزوجية من جوهرها، ولا بدّ للكنيسة من أن تأخذ منها موقفًا خاصًا لخلاص الإنسان.[381]

---

[379] *EVDOKIMOV, P. Sacrement de L'amour: Le mystere con jugal Ii la lumiere de la tradition orthodoxe,., p. 255*

[380] المرجع السابق، ٢٥٨- ٢٦٦.

[381] *PG, 61, 155.*

كما يكتب اللاهوتي الأرثوذكسيّ كاليستوس وير في كتابه ''الكنيسة الأرثوذكسيّة إيمان وعبادة- الفصل الخامس'':

''من البديهي أن الكنيسة تنظر للزواج على أنه مبدئيًا غير قابل للحل وتعتبر فسخه خطيئة. ولكن رغم إدانة الخطيئة، تساعد الكنيسة الخطأة إذ تمنحهم فرصة أخرى. وحينما لا يعود الزواج حقيقة واقعة، لا تتشبث الكنيسة بالحفاظ على وهم شرعي. فينظر إذًا إلى الطلاق كتساهل استثنائي ولكنه ضروري للخطيئة البشرية. إنه فعل تدبير كنسي (*Oikonomia*) وفعل من محبّة الله للبشر (*Philanthropia*). ولكن الكنيسة الأرثوذكسيّة، وهي تساعد الرجل والمرأة على النهوض بعد السقطة، تعلم تمامًا أن الزواج الثاني لا يمكن أن يكون مثل الأول، لذا فإن جزءًا من الاحتفالات التي تشير إلى الفرح يجري إلغاؤه ويُستبدل بصّلوات التوبة.

والقانون الكنسي الأرثوذكسيّ الذي يبيح زواجًا ثانيًا وحتى ثالثًا يمنع الرابع منعًا باتًا. **ومن الناحية النظرية يُمنح الطلاق في حالة الزنى فقط، لكنه يُمنح أحيانًا لأسباب وجيهة أخرى**''.

أمّا في الكنيسة القبطية، فإنّه على مدى تاريخها نجدها قد أباحت الطلاق في لكثير من الأسباب الجوهريّة -لا لكل سبب بالطبع أو بحسب الهوى فقط- ففي قوانين ابن العسّال التي تعود للقرن الثاني عشر، نجد يحصر الطلاق في عدة أسباب، منها:

١- امتناع أحد الزوجين عن المعاشرة الجنسية لقرينته إمّا لسبب طبيعي، أو لمرض، أو لانقطاع خبره.

٢- إنقطاع خبر إحدى الزوجين أكثر من خمس سنوات.

٣- امتناع حدوث التعاون في المعيشة.

نفس هذا الأمر نجده في **قوانين البطريرك القبطي كيرلس بن لقلق**.

كما أورده العلامة القبطي **ابن كبر** في كتابه الشهير: مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة. (القرن الـ ١٣)

وفي مجموعة **قوانين الأبغومانوس فيلوثاؤس عوض** قدّم أيضًا **قوانين بن العسال** هذه، وأضاف إليها بعض الحالات الأخرى التي يُسمح فيها بالتطليق. (القرن الـ ١٩)

وفي عام ١٩٣٨ سادت لائحة للأحوال الشخصية بحسب الكنيسة القبطية شارك في وضعها القديس حبيب جرجس، وقد قامت على قوانين ابن العسال السابق ذكرها، وأضافت إليها أيضًا.

وفي عام ١٩٥٥، تقدم المجلس الملي لوزارة العدل بوثيقة على أن يتم تقنينها فيما بعد، وقد أضافت هذه الوثيقة بندًا هامًا أخرجها عن حيز التنفيذ، **وهو أنه من الجائز لأحد الزوجين أن يُنهي عقد الزواج بإرادته المنفردة**.. وهذا ما رفضته الكنيسة بكلّ تأكيد.[٣٨٢]

وقد ذكر العلامة القمص صليب سوريال سببًا هامًا تقبل لأجله الكنيسة القبطية الطلاق، وهو:

يجوز طلب الطلاق إذا أساء أحد الطرفين معاشرة الآخر، أو أخلّ بواجباته نحوه إخلالًا جسيمًا، مما أدى إلى استحكام النفور بينهما، وانتهى الأمر بافتراقهما عن بعضهما، واستمرت الفرقة ثلاث سنوات متوالية.[٣٨٣]

أمّا عن قول السيد الرّبّ ما جمعه الله لا يفرقه إنسان.. نجد المطوَّب أمبرسيوس يكتب:

"يظن البعض أن كل زواج هو من الله، إذ كُتب: "الذي جمعه الله لا يفرقه إنسان" (مت ١٩: ٦). لو أن كل زواج من الله لما سُمح بالفرقة، إذ قيل: "لكن أن فارق غير المؤمن فليفارق" (١ كو ٧: ١٥)...

ليس كل زواج هو من الله، فقد أمر ألا يتزوج المسيحيّ بأممي كما جاء في الناموس... يتم الاتحاد عندما تتكيف الأشياء وتنسجم أوتار الآلة معًا، فتعطي شجي النغم الموسيقي... بهذا ندرك أنه لا يمكن أن يتحقَّق الانسجام في مثل هذا الزواج الذي فيه يكون العريس مسيحيًّا والمرأة أممية، إنما يتحقَّق الزواج ويتم الانسجام عندما يجمعهما الرب...

---

[٣٨٢] انظر: دراسات في قوانين الأحوال الشخصية لعقدي الخطبة والزواج وبطلانه وفسخه، للقمص صليب سوريال، ص ١٤٢.
[٣٨٣] المرجع السابق، ص ١٧٦.

تكلم الرّبّ قبلًا عن ملكوت الله قائلًا أنه لا تسقط نقطة واحدة من الناموس، ثمّ أضاف أن من يطلق امرأته ويتزوج بأخرى يزني ومن تزوج بمطلقة من رجل يزني. ويوصينا الرسول وصيَّة مطابقة لذلك: ”هذا السرّ عظيم، ولكني أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة“ (أف ٥: ٣٢). **هنا نتلامس مع زواج لا يمكن لإنسان أن يشك في أن الله قد جمعه،** إذ قال: ”لا يقدر أحد أن يقبل إليّ أن لم يجتذبه الآب“ (يو ٦: ٤٤). إنه الوحيد القادر أن يجمع هذا الزواج، لذا قال سليمان مشيرًا للسّر: ”الزوجة المتعقلة فمن عند الرب“ (أم ١٩: ١٤). المسيح هو العريس، والكنيسة هيَ العروس والعذراء بحبها وعفتها.

ليته لا ينحرف أحد عن المسيح بسبب ضيق أو خطيَّة، وقد جذبه الآب إليه!

ليت الفلسفة لا تفسد إيماننا، وأيضًا البدع!... فإن ذلك طلاق!...

ليت العريس يجد كل عروس تجدل خيوط الفضيلة الثمينة؛ ترفع يديها في الليالي (بالصلاة) (مز ١٣٣: ٢)، وتدبر عملها، وتزن عاداتها. وتنتظر مجيء عريسها متعجلة ذلك بشوق، قائلة: ”العريس قد أبطأ في المجيء، لذا أسرع أنا نحوه لأراه وجهًا لوجه عندما يبدأ في المجيء في مجده. تعال أيها الرّبّ يسوع، فتجد عروسك بلا دنس ولا غضن، لم تدنس مسكنك، ولا أهملت وصاياك“. لتقل أيضًا: ”وجدت من تحبه نفسي“ (نش ٣: ٤)، وتدخل بك إلى بيت الخمر... تسكر بالروح، فتكشف لها السّر، وتعلمها الأسرار“.[384]

وقال القديس أوريجانوس:

”إنّ سماح بعض رؤساء الكنائس بأن المرأة تتزوج برجل آخر في حياة زوجها مضاد لشريعة الكتاب المُقدّس. لأنهم خالفوا ما كتب. أن المرأة مرتبطة ما دام رجلها حيا. فمن ثمّ ما دام رجلها حيا ان صارت لرجل آخر فإنّها تدعى زانية. ولكن لا يخلو عملهم هذا من عذر **لأنهم رُبّما تساهلوا بمخالفة الشريعة المسطرة والمقرّرة من البدء منقادين لإرادة الغير تلافيًا لشرور أعظم**“.[385]

---

[384] *In Luc 16: 16-18.*

[385] في شرحه انجيل متى كتاب ١٤.

الكهنوت

رئيس كهنتنا يسوع

"المسيح ابن الله الحي بعد أن صُلب لأجل خطايانا وقام حيًا بمجدٍ عظيم، صعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب. وبصعود المسيح بالجسد إلى يمين الآب فإنه موجود بصفة أبدية كرئيس كهنة للخيرات العتيدة" (عب٩:١١).

تحدثنا الرسالة إلى العبرانيين بكلّ وضوح عن عمل المسيح كرئيس كهنة في السماء يخدم الأقداس السماوية ويقوم بالشفاعة الدائمة عنا أمام الآب، فتقول الرسالة:

"وأما رأس الكلام فهو أن لنا رئيس كهنة مثل هذا قد جلس في يمين عرش العظمة في السموات خادمًا للأقداس والمسكن الحقيقيّ الذي نصبه الرّبّ لا إنسان" (عب٨:١،٢).

وأيضًا:

"وأما هذا (يسوع) فمن أجل أنّه يبقي إلى الأبد له كهنوت لا يزول. فمن ثمّ يقدر أن يخلّص أيضًا إلى التمام جميع الذين يتقدمون به إلى الله إذ هو حي في كلّ حين ليشفع فيهم" (عب٧:٢٤،٢٥).

"وأما المسيح وهو قد جاء رئيس كهنة للخيرات العتيدة.. بدم نفسه دخل مرة واحدة إلى الأقداس فوجد فداءً أبديًا" (عب٩:١١،١٢).

"لإنّ المسيح لم يدخل إلى أقداس مصنوعة بيد أشباه الحقيقيّة بل إلى السماء عينها ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا" (عب٩:٢٤).

وبدخول المسيح إلى الأقداس بصعوده إلى السماء فإنه **سكب الروح القدس على الكنيسة وبهذا الروح القدس يجرى المسيح كلّ عمله الإلهيّ في الكنيسة وفي كلّ أسرارها.**

ولابد أن نذكر أن الروح القدس لم يكن ممكنًا أن يأتي وينسكب على المؤمنين بالمسيح ليسكن فيهم سكنى دائمة إلاّ بعد أن يتمجد يسوع أولًا بالقيامة والصعود إلى السماء بعد صلبه، كما قال الرّبّ يسوع نفسه.

"إن عطش أحد فليقبل إلى ويشرب من آمن بي تجرى من بطنه أنهار ماء حي. قال هذا عن الروح القدس الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه لأن الروح القدس لم يكن قد أعطى بعد لأن يسوع لم يكن قد مُجد بعد" (يو٧:٣٧-٣٩).

وهكذا فقد حقق المسيح وعده بعد صعوده، وبخدمته كرئيس كهنة في السماء أخذ موعد الروح القدس من الآب وسكبه على الكنيسة يوم الخمسين كما يقول معلمنا بطرس في سفر الأعمال (انظر أع٢: ٣٢، ٣٣).

ولا يزال المسيح ربّ المجد هو الذي يسكب الروح القدس على الكنيسة في كلّ صلواتها لإتمام الأسرار. لذلك فالكنيسة في كلّ أسرارها تطلب الروح القدس ليأتي باسم الرّبّ يسوع وذلك بحسب ما أوصى المسيح نفسه "الحق الحق أقول لكم إن كلّ ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم" (يو١٦:٢٣). وأيضًا "ومهما سألتم باسمي فذلك أفعله" (يو١٤:١٣) لذلك ينبغي أن ننتبه إلى أن المسيح الحي المُمجد في السماء هو حاضر في كلّ صّلاة وإجراء سرّ في الكنيسة بل هو الفاعل الأصلي في كلّ عمل تقوم به الكنيسة بحسب وصيته.

"لاحظوا رسول اعترافنا ورئيس كهنته المسيح يسوع. حال كونه أمينا للذى أقامه كما كان موسى أيضًا في كلّ بيته. فإنّ هذا قد حسب أهلا لمجد أكثر من موسى بمقدار ما لبانى البيت من كرامة أكثر من البيت لأن كلّ بيت يبنيه إنسان ما ولكن بانى الكلّ هو الله. وموسى كان أمينا في كلّ بيته كخادم شهادة للعتيد أن يتكلم به. وأما المسيح فكابن على بيته. وبيته نحن" (عب٣: ١-٦)

أقيم المسيح كاهنًا إلى الأبد على رتبة ملكي صادق (راجع عب ص٧و٨) وهو رأس الكنيسة (أف ٤: ١٥و كو١: ١٨).

الكهنوت العام

يقول القديس بطرس الرسول:

"كونوا أنتم مبنيين كحجارة حية بيتًا روحيًا كهنوتًا مُقدّسا لتقديم ذبائح روحية مقبولة عند الله بيسوع المسيح. وأما أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكى أمة مُقدّسة" (١بط٢:٥، ٩).

كما يقول الكتاب في سفر الرؤيا:

"الذي أحبنا وقد غسّلنا من خطايانا بدمه وجعلنا ملوكًا وكهنة لله أبيه" (رؤ١:٥، ٦)

وأيضًا

"وجعلتنا لإلهنا ملوكًا وكهنة" (رؤ٥:١٠).

فكون الكنيسة هيَ جسد المسيح (١كو١٢:٢٧، أف١:٢٣، ٤:١٢، كو١:١٨). وكون أعضاء الكنيسة أعضاء المسيح نفسه، وبما أن المسيح رئيس كهنة (عب٣:١، ٤:١٤) وملك (لو١:٣٣)، فإنّ أعضاء جسده من البشر هم أيضًا يُدعَون " كهنوت ملوكى أمة مُقدّسة" (١بط٢:٥، ٩) و"ملوك وكهنة" تُطلق على المؤمنين هذه الصفات لكونهم يقدمون لله ذبائح روحية هيَ صلواتهم وعبادتهم كما يتضح من النص المذكور أعلاه (١بط٢:٥، ٩). إنما هناك تمييز بين هذه الذبائح التي يقدمها عامة المؤمنين وبين الذبائح المُقدّسة بواسطة الكهنة المخصصين للخدمة ولا يجوز لغيرهم تقديمها. يقول المطوَّب أمبروسيوس:

"إن كلّ مؤمن يُمسح كاهنًا وملكًا غير أنّه لا يصير ملكًا حقيقيّا، ولا كاهنًا حقيقيّا، بل ملكًا روحيًا وكاهنًا روحيًا يقرب لله ذبائح روحية وتقدمات الشكر والتسبيح".[٣٨٦]

والمطوَّب أغسطينوس يقول:

"إن الكهنوت الملوكى لا يقال عن الأساقفة والقسوس فقط الذين هم في الواقع وحقيقة الأمر كهنة في بيعة الله، ولكن الجميع يدعون مسيحيّين بسبب المسحة السرّية، كذلك **الجميع**

---

[٣٨٦] في الكهنوت، ٤.

يدعون كهنة لأنهم أعضاء جسد كاهن واحد هو المسيح، وعنهم قال الرسول إنهم "أمة مُقدّسة وكهنوت ملوكيّ".[٣٨٧]

ولكن كون المؤمنين لا يقدمون الذبيحة لا يجعلهم بعيدين عن خدمة هذه الأسرار، لذلك يجب عليهم أن يعوا أنهم ليسوا سامعين متفرجين بالنسبة للأسرار المُقدّسة **بل أيضًا خدام لهذه الأسرّار كما يتضح من تحليل الخدام في القداس الإلهيّ**. فالشعب المؤمن بكامله هو حافظ للتقليد، **والدور الذي يقوم به المؤمنين في العبادة لا يُستغنى عنه، فالأسقف لا يستطيع أن يتمم الخدمة بدون اشتراك الشعب معه في العبادة. لأن الخدمة اللّتورجيّة لا تقام من قبل الأسقف من أجل الشعب، بل تُقام من قبل الجماعة كلها، الأسقف والشعب، من أجل الجماعة كلها.**

إن كلمات عامي، علمانيين، علماني تأتي من الكلمة اليونانية *laos* التي تعني الشعب. "*Laikos*"، العلماني هو شخص ينتمي إلى الشعب، أي أنّه عضو في جماعة متكاملة ومنظمة. بكلام آخر، 'العلماني' ليست تعبيرًا سلبيًا، بل هيَ تعبير إيجابي وسامٍ. إنها تتضمن مُثل عليا من العضوية الكاملة والمسؤولة والعاملة مقارنة، مثلًا، بمكانة المرشح للعضوية. مع وقد جعل استخدام المسيحيّين لهذا التعبير أكثر إيجابية. فالكلمة تأتي من الترجمة اليونانية للعهد القديم حيث كلمة *Laos* تنطبق عادة على شعب الله، على اسرائيل، الشعب المختار والمُقدّس من الله نفسه كشعبه. مفهوم "شعب الله" رئيسي في الكتاب المُقدّس. فالكتاب المُقدّس يشهد أن الله قد اختار شعبًا واحدًا من بين العديد حتّى يكون أداته الخاصة في التاريخ، ويتمم قصده ويهيء، فوق كلّ شيء آخر، لمجيء المسيح مخلص العالم. لقد دخل الله مع هذا الشعب الواحد في "ميثاق"، في عهد أو اتفاق من الإنتماء المتبادل. فالعهد القديم، من ناحية ثانية، ليس سوى تحضير للعهد الجديد. وفي المسيح، إمتدت امتيازات "شعب الله" وإختياره إلى جميع الذين قبلوه وآمنوا به وهم على استعداد أن يقبلوه كإله ومخلص. هكذا، الكنيسة أو جماعة المؤمنين بالمسيح، أصبحت شعب الله الحقيقيّ (*Laos*) وكلّ مسيحيّ (*Laikos*) أصبح عضوًا في شعب الله.

---

[٣٨٧] مدينة الله ٢٠: ١٠.

العلماني إذن، هو الشخص الذي يشترك في الإختيار الإلهيّ ويحصل من الله على هبة خاصة وإمتياز العضوية. إنها عمل إيجابي وسامٍ مختلف جذريًا عن ما نجده معرّفًا في ال *Webster*. نستطيع أن نقول بحسب تعليمنا الأرثوذكسيّ أن كلّ مسيحيّ، أكان أسقفًا، كاهنًا، شماسًا أو مجرد عضو في الكنيسة هو علماني أولًا وقبل أي شيء آخر، لأن كلمة 'علماني' ليست تعبيرًا سلبيًا أو جزئيًا بل هيَ تعبير يشمل الكلّ مع مهمتهم المشتركة. قبل أن نكون أي شيء محدّد، نحن جميعنا علمانيون لأن الكنيسة إختارها المسيح نفسه وأسّسها من العلمانيين – الشعب، العائلة، الجماعة.

نحن نفكر في العبادة كنطاق للنشاط الإكليريكي على وجه التخصيص. فالكاهن يحتفل والعلمانيون يحضرون. واحدٌ فعّال والآخر غير فعّال. بهذا نحن نرتكب خطأ جديًا آخرًا. إن التعبير المسيحيّ للعبادة هو "اللِّتورجيّا" التي تعني بالتحديد عملًا متحدًا، مشتركًا، شاملًا الكل، فيه جميع الحاضرين مشاركون فعّالون. في الكنيسة الأرثوذكسيّة، كلّ الصّلوات مكتوبة بصيغة الجمع "نحن". نُقدم، نصلي، نشكر، نعبد، ندخل، نصعد، نتَقَبَّلْ. إن العلماني هو، بطريقة مباشرة جدًا، المحتفل مع الكاهن الذي يرفع صّلوات الكنيسة إلى الله ممثلًا جميع الشعب ومتكلمًا بالنيابة عنهم. كلمة "آمين" التي نحن معتادون عليها حتّى إننا بالحقيقة لا نوليها إهتمامًا هيَ مثال على هذا الإشتراك في الإحتفال. ولكن بالرغم من ذلك، إنها كلمة فاصلة. ليس هناك صّلاة أو تقدمة أو بركة تُعطى في الكنيسة من دون أن تُصَدَّق بالآمين التي تعني القبول والموافقة والإشتراك. أن أقول آمين لأي شيء يعني أنني أتبنّاه وأقبله... وأن "آمين" هيَ في الواقع كلمة العلمانيين في الكنيسة وتعبّر عن عملهم كشعب الله الذي يقبل التقدمة الإلهية ويصدّقها بموافقته بحرية وبفرح. ليس هناك بالحقيقة خدمة أو لِّتورجيّا من دون "آمين" الذين كُرِّسوا لخدمة الله كجماعة، ككنيسة.

وهكذا، إذا أخذنا بعين الإعتبار أي خدمة لِّتورجيّة، نرى أنها تتبع أسلوب الحوار والتعاون والإشتراك. التعاون هو بين المحتفِل (الكاهن) وجماعة المصلين. إنها في الواقع عمل مشترك ("لِّتورجيّا") يتطلب إشتراكًا كاملًا وضروريًا مسؤولًا من قِبَل كلّ فرد إذ من خلال هذا الإشتراك تُتمم الكنيسة، التي هيَ شعب الله، قصدها وغايتها.

من كهنوت يسوع إلى كهنوت الرعاة

"دفع إلى كلّ سلطان في السماء وعلى الأرض. فاذهبوا وتلمذوا جميع الامم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس. وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به. وها أنا معكم كلّ الايام إلى انقضاء الدهر" (مت ٢٨: ١٨-٢٠)

"وهو اعطى البعض أن يكونوا رسلا. والبعض أنبياء. والبعض مبشرين. والبعض رعاة ومعلمين. لأجل تكميل القديسين لعمل الخدمة لبنيان جسد المسيح" (اف ٤: ١١و١٢).

في سفر اعمال الرسل كرسوا شمامسة ووضعوا عليهم الأيادي (أع ٦: ٤-٦) وانتخب بولس وبرنابا قسوسًا في كلّ كنيسة ثمّ صليا بأصوام واستودعاهم للرب الذي كانوا قد آمنوا به (أع ١٤: ٢٣) وقال بولس الرسول لتلميذه تيموثاوس:

"وما سمعته منى بشهود كثيرين أودعه أناسا أمناء يكونون اكفاء أن يعلموا آخرين ايضا" (٢تى ٢: ٢)

"لا تهمل الموهبة التي فيك المعطاة لك بالبنوة مع وضع أيدى المشيخة" (١تى ٤: ١٤)

وقال لتيطس:

"من أجل هذا تركتك في كريت لكي تكمل الامور الناقصة وتقيم في كلّ مدينة قسوسا كما أوصيتك" (تى ١: ٥)

وبيَّن لهم المؤهلات الخاصة التي بموجبها ينتخبون الأساقفة والقسوس والشمامسة والاوصاف الخاصة التي تميز المدعوين إلى هذه الرتب والقوانين لمكافأة الذين يحسنون الخدمة (راجع ٢تى ٢: ٢، تى ١: ٥-٩، ١تى ٣: ١-١٠، ٥: ٩و١٧و٢٢، تى ١: ٥-١٦) وقال:

"ولا يأخذ أحد هذه الوظيفة بنفسه بل المدعو من الله كما هرون أيضا" (عب ٥: ٤)

"وكيف يسمعون بلا كارز. وكيف يكرزون ان لم يرسلوا" (رو١٠: ١٤و١٥)

"فوضع الله اناسا في الكنيسة أولًا رسلا ثانيًا أنبياء ثالثا معلمين ثمّ قوات وبعد ذلك مواهب شفاء أعوانا تدابير وأنواع ألسنة. العل الجميع رسل العل الجميع أنبياء. العل الجميع معلمون. العل الجميع أصحاب قوات الخ" (١كو١٢: ٢٨و٣٠)

وأمر الشعب قائلًا:

"أذكروا مرشديكم الذين كلموكم بكلمة الله. انظروا إلى نهاية سيرتهم فتمثلوا بإيمانهم... اطيعوا مرشديكم واخضعوا لأنهم يسهرون لأجل نفوسكم كأنهم سوف يعطون حسابا لكي يفعلوا ذلك بفرح لا انين لأن هذا غير نافع لكم" (عب ١٣: ٧و١٧)

"ثم نسألكم أيها الاخوة ان تعرفو االذين يتعبون بينكم ويدبرونكم في الرّبّ وينذرونكم. وأن تعتبرونهم كثيرا جدًّا في المحبة من أجل عملهم" (١تس ٥: ١٢و١٣).[٣٨٨]

الكهنوت عند الآباء

قال **القديس إكليمندس الرومانيّ** تلميذ بطرس الرسول:

"اذ قد اخذ الرسل معرفة كاملة بما سيكون بعدهم أقاموا الذين سبق ذكرهم (أي الأساقفة والشمامسة) وبالوقت نفسه حدّدوا أمر الخلافة حتّى كلما رقد واحد منهم يخلفه في الخدمة رجال آخرون مختبرون".[٣٨٩]

وقال **القديس أغناطيوس** تلميذ يوحنا الرسول "ان الأساقفة قد أقيموا في جميع أماكن الأرض بحسب مشيئة يسوع المسيح".[٣٩٠]

---

[٣٨٨] وقد سمي التوظف فيها بأسماء مختلفة في العهد الجديد فمنها قسيس وأسقف وشيخ وناظر وخادم وراع ووكيل سرائر الله (أع ١٤: ٢٣، ٢٠: ١٧و٢٨، ١كو ٤: ١، في ١: ١، ١تى ٥: ١و١٩، تى ١: ٥، يع ٥: ١٤، ١بط ٥: ١-٥).

[٣٨٩] رسالة ١: ٤٤.

[٣٩٠] رسالته إلى أفسّس.

وقال **القديس إيرينئوس:**

"أنه يمكنا أن نذكر الذين أقامهم الرسل أساقفة في الكنائس وخلفاءهم أيضًا بأسمائهم، إلى أيامنا الذين لم يعلموا شيئًا البتة ولم يروا شيئًا مما تصوره الهراطقة، لأنه إذ عرف الرسل الأسرّار المكتومة كانوا يظهرونها للكاملين وحدهم دون جميع الآخرين، فبحق أقوى إذًا قد باحوا بها وسلموها للرجال الذين ائتمنوهم على الكنائس نفسها. إذ كانوا يرغبون أن يكون خلفاؤهم المقامون في رتبهم الخاصة كاملين في التعليم وبلا لوم من كلّ الاوجه".[٣٩١]

وقال:

"يجب الخضوع للكهنة الذين أقيموا في الكنيسة متسلسلين بحسب الخلافة من الرسل، وأخذوا المواهب الحقيقيّة بمسرة الآب مع الخلافة الاسقفية. وأما الباقون الذين لم ينالوا الكهنوت بخلافة رسوليّة وهم يجتمعون خارج الكنيسة حيث اتفق، فيجب أن نحسبهم أناسا مشبوهين وهراطقة وأردياء وعصاة ومتعجرفين ومتكبرين ومرائين، وانهم لا يتعاطون ذلك الا محبّة في الربح والمجد الفارغ".[٣٩٢]

وقال **القديس كبريانوس:**

"نحن خلفاء الرسل ومدبرو كنيسة الله عينها" وقال أيضًا "ان سلطان حل الخطاة أعطى للرسل وللكنائس التي هم أسّسوها إذ أرسلوا من الله وللأساقفة الذين خلفوهم بحسب ترتيب النيابة".[٣٩٣]

وقال أيضًا:

"ان الشعب المتحد مع الكاهن والقطيع الخاضع لراعيه يشخص الكنيسة ولهذا يجب أن تعلموا أن الاسقف بالكنيسة والكنيسة بالأسقف، ومن لم يكن مشتركا مع الأسقف فليس في الكنيسة البتة".[٣٩٤]

---

[٣٩١] ضد الهرطقات ٣: ٣.

[٣٩٢] ضد الهرطقات ٤: ٢٦.

[٣٩٣] رسالة ٢٥.

وقال **القديس غريغوريوس النيزنزيّ**:

"إنّ في الجسد قسمين قسم يسوس ويرأس، وقسم يساس وينقاد. وهكذا في الكنائس أيضا. فإنّ الله قد رتب أن يكون هؤلاء المحتاجون إلى أولئك ملازمين واجباتهم التي عرفوها بالقول والمثال ويلبثوا رعية مرؤوسة، وأما الاخرون فلانهم أعلى رتبة بفضائلهم، ومقربون من الله أكثر منهم فقد رتب أن يكونوا رعاة ومعلمين لكمال الكنيسة. وان يحفظوا نحو أولئك التناسب الذي بين النفس والجسد، وبين العقل والروح، حتّى يكون كلا الامرين أعني نقص الرعية وفضل الرعاة شبيهين بالاعضاء في الجسد ومتحدين كواحد ومنضمين ومرتبطين برباط الروح، فيؤلفان جسما واحدا فقط كاملا ولائقا حق اللياقة بالمسيح رئيسنا".[395]

وقد كتب **القديس أوسيوس أسقف** قرطبة إلى الملك قسطنت ما نصه:

"لا تتداخل في الامور الكنسية ولا تأمرنا بها، بل أحرى بك أن تتعلمها منا، لأن الله سلمك الملك، وأما الكنيسة فقد استودعت لنا نحن. وكما أن من يختلس الملك منك يقاوم الله الذي رتب ذلك، هكذا خف من أن تجرم جرما كبيرا بأن تختلس لنفسك ما يخص الكنيسة، فانه مكتوب: اعطو ما لقيصر لقيصر وما لله لله".[396]

وقال **المطوّب أغسطينوس** عند كلامه عن الملاك الذي ظهر لكرنيليوس قائد المئة:

"كل هذه الاشياء (أي التعليم والتعميد) كان ممكنا أن تتم بواسطة الملاك. ولكن لو كان الله لا يريد أن يعلن كلمته للبشر بواسطة البشر أنفسهم لأضحى الطبع البشريّ زريًّا وساقطًا، هذا فضلًا عن أنّ المحبة تربط البشر بعضهم ببعض وتوجب عليهم أن يتعلموا بعضهم عن بعض".[397]

---

[394] رسالة ٦٩: ٨.

[395] خطاب ٣.

[396] ذكره **القديس أثناسيوس في** تاريخ الاريوسيين عدّد ٤٤.

[397] في مقدمة التعليم المسيحيّ عدّد ٦.

ويقول ردًا على تعاليم الدوناتيّين:

"فليفهمنا الدوناتيون لماذا رسم المعموديّة لا يمحى، ورسم الدرجة يمحى حسب اعتقادهم. فإنّ كان كلاهما سرين حقيقيّن كما هو مقرّر عند الجميع، فلماذا الواحد يبقى والآخر يمحى؟"[٣٩٨]

وقال **القديس باسيليوس:**

"أما الذين خرجوا عن الكنيسة فلن ينالوا بعد ذلك نعمة الروح القدس عليهم، لأن منح النعمة قد زال لانقطاع الخلافة لأن الذين خرجوا أولًا كانوا قد نالوا الشرطونيات (وضع اليد) من الآباء وبوضع أيديهم حصلوا على الموهبة الروحانية".[٣٩٩]

وقال **القديس يوحنا ذهبيّ الفم:**

"انظر كيف أن المؤلف لا يذكر شيئًا عبثا. لأنه لم يقل كيف شرطن بل قال قولا بسيطا أنّه شرطن بالصلاّة وهذه هيَ الشرطونية كلها، إذ توضع اليد على رأس الرجل والله يفعل كلّ شيء، ويده هيَ التي تمس رأس المشرطن اذا شرطن كما يجب، وانظر كيف كان بين السبعة (الشمامسة) واحد (استفانوس) مميزا ونال الأولية. فإنّ الشرطونية وان كانت عامة ولكن هذا نال نعمة أكثر، وقبل الآن لم يكن يفعل آيات بل بعد أن نؤدى به، لكي يتضح أن النعمة وحدها لا تكفى وأن الشرطونية ضرورية معها، فقد زادت عليهم نعمة الروح القدس وان كانوا قبل الآن مملوئين من الروح غير ان ذلك يشير إلى نعمة الحميم فقط".[٤٠٠]

درجات الكهنوت

بطريرك: أساسًا هو لقب رئيس الكنيسة الرسوليّة المستقلة. والآن اتسع إطلاقه فدعي به العديد من رؤساء الكنائس المستقلة، أما رؤساء الكنائس الأخرى فيدعون (رئيس الأساقفة) أو (متروبوليت).

---

[٣٩٨] رد على رسالة برمينيون.
[٣٩٩] رسالة قانونية أولى قانون ١.
[٤٠٠] عظة ١٤: ٣، ١٥: ١ على سفر الاعمال.

المتروبوليت، أو المطران أو رئيس الأساقفة: كان المتروبوليت في الأساس، أسقفًا لعاصمة المقاطعة، في حين كان يُمنح لقب (رئيس الأساقفة) كرتبة شرف للأساقفة البارزين جدًا. وليس من الضروري أن يكون مركزهم في عاصمة ما. على هذا النحو لا يزال الروس يستخدمون هذه الألقاب. أما اليونان والعرب، فإنهم يمنحون لقب متروبوليت لكل مطران أبرشية لأنه بالطبيعة يسكن المدينة الكبيرة. ويسمي اليونانيون رئيس أساقفة أولئك الذين كانوا يُدعون متروبوليت في السابق. لذا فإنّ رئيس الأساقفة عند اليونان أرفع من المتروبوليت. أما عند الروس، فالمتروبوليت هو الذي يحل مقامًا أرفع.

الأرشمندريت أو الربيته: في الأصل، راهب مكلف بالإدارة الروحية لعدة أديرة، أو رئيس دير ذي أهمّيّة خاصة. ويُستخدم اللقب اليوم كرتبة شرف لأحد الكهنة العازبين المميّزين.

هيجومينوس: عند اليونان، رئيس الدير. عند الروس، لقب شرف لكاهن راهب (ليس بالضرورة رئيس دير). والهيجومينوس الروسي أقل من الأرشمندريت.

رئيس كهنة أو القمص: لقب شرف يمنح للكهنة المتزوجين.

رئيس الشمامسة أو بروتوشماس أو أرشيدياكون: لقب شرف يُمنح للشمامسة. رئيس شمامسة لدى الرهبان، بروتوشماس للشمامسة الذين ليسوا رهبانًا. (رئيس الشمامسة في الغرب اليوم هو كاهن، لكنه في الكنيسة الأرثوذكسيّة، كما في الكنيسة الأولى، يبقى شماسًا).

نجد الامتياز الواضح لرتبة الأسقف عن رتبة القس، فإنّ الرسل الأطهار أعطوا الأساقفة سلطانًا وامتيازا خاصا عن القسوس، لأنهم منحوهم حق اقامة القسوس ووضع اليد عليهم، كما قال بولس الرسول لتلميذه تيطس "من أجل هذا تركتك في كريت لكي تكمل ترتيب الأمور الناقصة وتقيم في كلّ مدينة شيوخا (قسوسا) كما أوصيتكم" (تى ١: ٥) وأمروهم بعدم الاسراع في وضع اليد "لا تضع يدا على أحد بالعجلة ولا تشترك في خطايا الآخرين" (١تى ٥: ٢٢) كما أعطوهم حق محاكمتهم حسب قول الرسول لتلميذه تيموثاوس "لا تقبل شكاية على شيخ (قس) الا على شاهدين أو ثلاثة شهود. الذين يخطئون وبخهم أمام الجميع لكي يكون عند الباقين خوف" (١تى ٥: ١٩و٢٠) وأعلنوا حق مكافأتهم

"أما الشيوخ (القسوس) المدبرون حسنا فليحسبوا أهلا لكرامة مضاعفة ولا سيما الذين يتعبون في الكلمة والتعليم" (١تى ٥: ١٧).

أما تسمية القسوس أحيانًا بالأساقفة، أي رقباء ونظار ومحافظون على الشعب (لأن كلمة أسقف في اليونانية "أبيسكوبوس" معناها ناظر أو رقيب أو محافظ. وكلمة قس باليونانية "بريسفيتيروس" ومعناها شيخ) فذلك لا يلغى الامتياز الجوهرى بين الرتبتين، لأن الرسل سموا أنفسهم بتلك الأسماء فقد قال بطرس الرسول "أطلب إلى الشيوخ (القسوس) الذين بينكم أنا الشيخ (القس) رفيقهم" (١بط ٥: ١) وقال يوحنا الرسول "الشيخ إلى كيرية المختارة" (٢يو ١: ١، ٣يو ١: ١).

قال **القديس أبيفانيوس أسقف سلاميس:**

"إنّه لا يمكن أن يكون القس والأسقف متساويين، وقد علم الكتاب الإلهيّ ما هو الأسقف وما هو القس بقوله لتيموثاوس "لا تزجر شيخا" وفي محل آخر "لا تقبل شكوى على قس إلَّا بشهادة اثنين أو ثلاثة".[٤٠١]

القديس إكليمندس الرومانيّ:

"أنه يجب علينا أن نعمل كلّ ما أمرنا به سيدنا في أوقاته المعينة بالترتيب، وأن نتمم القرابين والخدم التي أمر أن تصير لا كيفما اتفق وبلا ترتيب، بل في أوقات وساعات معينة وقد حدّد أيضًا بمشيئته السامية أين وممن يريد أن تتمم، لكي يكون كلّ ما يصير بر مقبولًا لدى مشيئته حاصلًا على تعطفه. فالذين يقدّمون قرابينهم في أوقاتها المعينة هم مقبولون عنده ومغبوطون. فإنّهم إذ تبعوا شرائع الرّبّ لا يخطئون لأن "رئيس الكهنة" أعطيت له خدم خصوصية و"للكهنة" تعين مكان خصوصيّ و"اللاويين" (أي الشمامسة) لهم خدم خصوصية، وأما العامى فانما هو مرتبط بالاوامر المتعلقة بالعوام".[٤٠٢]

---

[٤٠١] ضد الهرطقات، ٣: ٥.

[٤٠٢] رسالة إلى أهل كورنثوس فقرة ٤٠.

وقد أوضح **القديس اغناطيوس** تلميذ يوحنا الرسول هذه المسألة بأكثر ايضاح حيث قال في رسالته إلى أهل أفسّس:

"أن الأساقفة قد تعينوا إلى أقاصي الأرض بحسب مشيئة يسوع المسيح".[٤٠٣]

وقال في رسالته إلى أهل أزمير:

"اتبعوا الأسقف كلكم كما يتبع يسوع المسيح أباه، واتبعوا الكهنة كالرسل، وأكرموا الشمامسة حسب وصية الله".[٤٠٤]

وقال في رسالته إلى أهل مغنيسيا:

"أتوسل اليكم أن تعملوا كلّ شيء بسلام الله وتحت رياسة الأسقف حيث مكان الله ذاته، والكهنة حيث مصاف الرسل، والشمامسة المحبوبين منى جدًّا الذين أؤتمنوا على خدمة يسوع المسيح".[٤٠٥]

قال **القديس إيرينئوس:**

"جميع المخالفين لتعليم الكنيسة قد ظهروا متأخرين كثيرا عن هؤلاء الأساقفة الذين أؤتمنوا من الرسل على الكنائس".[٤٠٦]

وقال العلامة ترتليانوس:

"قد تخصص حق التعميد بالكهنة الاعظمين (الأساقفة) ثمّ أعطى للكهنة والشمامسة فقط ولكن ليس من دون الأسقف".[٤٠٧]

وقال القديس أوريجانوس:

"يطلب منى أنا القس أكثر مما يطلب من الشماس ومن الشماس أكثر من العامى، ولكن الذي يضبط بيده السلطة الكنسية يطلب منه أكثر منا كلنا".[٤٠٨]

---

[٤٠٣] فقرة ٣.
[٤٠٤] فقرة ٨.
[٤٠٥] فقرة ٦.
[٤٠٦] ضد الهرطقات ٥: ٢٠.
[٤٠٧] في المعمودية فصل ١٧.

القوانين الرسوليّة وقوانين المجامع المسكونية والمكانية تبين هذه الحقيقة، إذ تذكر الواجبات التي على كلّ من أصحاب هذه الدرجات، الأساقفة والقسوس والشمامسة. فقد جاء في قانون ١٥ من قوانين الرسل

"كل قس أو شماس أو أحد المعدودين من الاكليروسيين عموما يترك محل سكناه وينتقل إلى ابروشية اخرى بقصد السكنى الدائمة بدون رأى اسقفه وأقام الصلّاة منفصلا عنه وبنى مذبحا آخر من دون أن يثبت على الأسقف شيئًا لا يوافق الإيمان والبر فليقطع إذ هو محب الرياسة".

وجاء في قانون ٢٩:

"لا يجوز للقسوس والشمامسة أن يفعلوا شيئًا البتة من غير رأى أسقفهم، لأنه هو المؤتمن على شعب الرّبّ وهو العتيد أن يحاسب عن أنفسهم".

وجاء في قانون ١٨ من قوانين المجمع المسكونيّ الأوّل:

"ليلبث الشمامسة ضمن حدودهم عالمين أنهم خدام للأسقف وأقل من القسوس".[٤٠٩]

قال **القديس إيرينئوس:**

"يمكننا أن نعد الأساقفة الذين حكموا في الكنائس من عصر الرسل وأن نحصى خلفاءهم أيضًا حتّى ايامنا هذه" وأوسابيوس المؤرخ الكنسيّ الشهير حفظ جداول قديمة عن سلسلة الخلافة لأساقفة كنيسة كورنثوس ورومية وأورشليم ويبين فهرس أساقفة الكنائس القديمة".[٤١٠]

قال **القديس إكليمندس السكندريّ:**

"أن درجات الأسقف والكهنة والشمامسة تشبه بحسب رأيي المجد الملائكيّ".[٤١١]

---

[٤٠٨] عظة ١١: ٣ على إرميا.

[٤٠٩] وقانون ٥٦ و٥٧ من قوانين مجمع اللاذقية يأمر القسوس بعدم تقدمهم على أسقفهم ووجوب انقيادهم له، وغير ذلك من القوانين.

[٤١٠] ضد الهرطقات، ٤: ٥: ٢٢.

[٤١١] المتفرقات ٦: ١٣.

لأن رتب الملائكة ثلاث وكلّ رتبة منها ثلاثة أصناف.. فالرتبة الأولى تشمل الكروبيم (خر١٠: ١٨) والسرافيم (أش ٦: ٢) والعروش (كو١: ١٦) والرتبة الثانية تشمل الرياسة والسادات والسلاطين (كو١: ١٦) والرتبة الثالثة تشمل القوات (١بط ٣: ٢٢) والملائكة ورؤساء الملائكة (رو٨: ٣٨، ١تس ٤: ١٦) وعلى هذا المثال رتبت الدرجات الكهنوتية الثلاث. فالأولى وهيَ الأسقفية تشمل وظائف البطريرك والمطران والأسقف: والثانية وهيَ القسيسية تشمل وظائف الخوريبيسكوبوس والأيغومانوس والقس والثالثة وظيفة الشماسية تشمل الأبودياكون (أي معين الشماس) والأغنسطس (القارىء) والابصلتس (المرتل).

خادم السرّ

خادم السرّ هو الأسقف وحده..

كانوا يقيمون الأساقفة والقسوس والشمامسة وأعطوا هذا السلطان لخلفائهم الأساقفة من بعدهم. فقد وضعوا اليد على أساقفة (٢تى ١: ٦) وعلى قسوس (أع ١٤: ٢٢و٢٣) وعلى شمامسة (أع ٦: ٥) وبولس الرسول قال لتيطس أسقف كريت "من أجل هذا تركتك في كريت لكي تكمل الامور الناقصة وتقيم في كلّ مدينة شيوخا (قسوسا) كما أوصيتك" (تى ١: ٥) وقال لتيموثاوس أسقف افسّس "لا تضع يدا على أحد بالعجلة ولا تشترك في خطايا الآخرين" (١تى ٥: ٢٢).

أما قول بولس الرسول ـ مع وضع ايدى المشيخة ـ فقد شرحها **القديس يوحنا ذهبيّ الفم** بقوله:

"أن الكلمة بريسفيتيريون (التى اصطلح على ترجمتها بالقسوس أو المشيخة) فإنّها تدل على جمعية رعاة الكنيسة الذين كان أحدهم بولس الرسول. لا على القسوس فقط فلم يقل عن القسوس بل عن الأساقفة. لأن القسوس لم يكونوا يشرطنون الأسقف".[٤١٢]

من القوانين الرسوليّة والمجمعية فإنّ قانون ١ من قوانين الرسل يقول:

"الأسقف يشرطن من أسقفين أو ثلاثة"

---

[٤١٢] عظة ١٣: ١ على ١تى.

وقانون ٢ منها يقول:

"القس والشماس وسائر الاكليروس يشرطنون من أسقف واحد"

وقانون ١٩ من قوانين المجمع الأوّل المسكونيّ المجتمع في نيقية حدّد أن يسام الاكليروس من أسقف الكنيسة. وقانون ٩ من قوانين مجمع انطاكية فوض للأسقف أن يشرطن قسوسا وشمامسة ويقضي كلّ الأعمال بتدقيق.

قال **القديس يوحنا ذهبيّ الفم:**

"ان الأساقفة يسمون عن القسوس بالشرطونية فقط وبها وحدها يظهر أنهم يمتازون عنهم".[٤١٣]

وقال **القديس ابيفانيوس:**

"أن درجة الأساقفة تمتاز بنوع خصوصيّ بأنهم يلدون آباء. لأن تكثير الآباء في كنيسة المسيح يختص بالأساقفة. وأما الرتبة الثانية (الكهنة) فلا يمكنها أن تلد آباء أو معلمين. وكيف يمكن أن يشرطن كاهن كاهنا آخر وليس له سلطة الشرطونية؟"[٤١٤]

وقال **المطوّب جيروم:**

"ماذا يعمل الأسقف ولا يعمله القس خلا الشرطونية".[٤١٥]

---

[٤١٣] على ٢تى مقالة ١٠: ١.
[٤١٤] هرطقة ٧٥: ٤.
[٤١٥] رسالة ٨٥.

لمزيد من القراءة

- الكنيسة الأرثوذكسيّة إيمان وعبادة، كاليستوس وير.
- موجز التاريخ الليتورجي لكنيسة الإسكندريّة من جزأين، الراهب أثناسيوس المقاريّ.
- اللاهوت المسيحيّ والإنسان المُعاصر، ج٣، المطران كيرلس بسترس.
- الإفخارستيا ومعانيها اللاهوتية، رودلف مرقس يني.
- من أجل حياة العالم، ألكسندر شيممن.
- الروح القدس بين الميلاد الجديد والتقديس المستمر، القمص تادرس يعقوب ملطي.

الفصل السابع:
الوحي في المفهوم الأرثوذكسي

آمنت الكنيسة الأولى بالكتاب المُقدّس، ومنذ وضَعت قانونًا يُحدّد الأسفار التي لها صفة رسوليّة ونبويّة، اعتبرت تلك الأسفار مُلزمة وقانونيّة، لأن أهم صفة تُميزها أنها موحى بها من الله (١تس ١: ٥؛ ١كو ٢: ٤؛ ٢بط ١: ٢١؛ ٢تي ٣: ١٦– ١٧). ولكن معرفتنا بإن الكتاب فقط موحى به من الله، لا يُساعدنا على فهم النص الكتابي بشكل سليم، فنحتاج أن نعرف: ما هو الوحي؟ وكيفية عمله في النبي؟ ومدى تأثيره على كتابة النص المُقدّس؟ ولن نتمكن من معرفة ذلك إلاَّ بالرجوع لما قاله كاتب النص، وما فهمته الكنيسة الأولى عن ماهيّة الوحي، متمثلة في الآباء المُعلمين الذين استلمنا منهم الإيمان والعقيدة.

نظريات عن الوحي

وحي الإلهام الطبيعيّ *Intuition Theory*

يتمسّك أصحاب هذا الرأي بأنّ الوحي موهبة خاصة من جانب الإنسان الطبيعيّ، **مثلها مثل أية قدرة فنيّة أو أدبيّة تلازِم صاحبها دائمًا**. مَن يتبنّى هذه النظرة لا يعتبر الكتاب وحيًا إلهيًّا بل إلهامًا طبيعيًّا، ومن ثمّ يتعامل مع أسفار الكتاب فقط كوثائق أدبيّة قديمة.[٤١٦] ووفقًا لهذا الفكر، فإنّ كتبة الأسفار عباقرة دينيّون، لا يختلف وحيهم عن وحي أي مفكر أو فيلسوف دنيوي. ومن هنا يمثّل الكتاب المُقدّس مجموعة من الكتب العظيمة التي تعكس الخبرة الدينية والروحية لقادة شعب الله.

وقد نادى البعض **مثل بولتمان *Rudolf Bultman* بأن كتبة الأسفار عبّروا عن لقاءاتهم واختباراتهم مع الله في إطار أدبيّ يختلط بأساطير وخيالات ومعجزات خرافية سادت عصورهم**، بحسب هذه الفكرة، لكي يصل القارئ إلي كلمة الله، لابد أن يجرّدها أولًا من تلك الأساطير *demythologize*.[٤١٧]

---

[416] *Klein, Dr. William W., Blomberg, Dr. Craig L., Introduction to Biblical Interpretation, p. 90*
[417] *Ibid, p. 48.*

١- تعني هذه النظرة بطريقة غير مباشرة أن **نبوة الكتاب بمشيئة إنسان** أو من تفسير خاص الأمر الذي يقرّر عكسه الرسولان بطرس وبولس (٢ بطرس ١:٢١؛ ٢ تيموثاوس ٣:١٦).

٢- يعارض هذه النظرية الكتاب المُقدّس نفسه، الذي **وبطول العهدين يسير على خط واحد مُتجّه ومُشير إلى المسيح المُخلِّص.**

٣- **تلغي** هذه النظرية تمامًا **عمل الله، بل ووجوده.**

الوحي الإملائي أو الآلي *Mechanical Dictation Inspiration*

بخلاف الرأي السابق، يؤمن أصحاب هذا الرأي أن الله أملى على كتَبَة الوحي كلّ لفظة دوّنوها، مما يعني أن كتَبَة الوحي لم يكن لديهم أي سلطان على أنفسهم أثناء عملية الكتابة، **بل كانوا مجرد أقلام كاتبة في يد الله.**

١- يسقط هذا الرأي أمام **التنوع الأدبي الهائل** في أساليب كتابة الأسفار! لإنّ هذه الفكرة تفترض ضرورة وجود أسلوب أدبيّ واحد لكتابة كلّ أسفار الكتاب.

٢- استخدام الكتبة **لثقافة ووثائق عصرهم**، فالكتاب مصبوغ بالعنصر البشريّ.. كما سنرى.

٣- **يجعل الإله محصورًا محدودًا في لغة واحدة**، بينما يجب أن تكون رسالته للبشريّة لأنه أب البشريّة كلها، وليس شعب أو عرق واحد منها.

الوحي في الفكر الأرثوذكسي

بداية، يلزمنا أن نعرف **إن الوحي في المسيحيّة ليس هو الدخول في اللامعقول وما فوق الطبيعة، فنحن لم نتبع أساطير ولا خرافات مُصنعة (٢بط ١: ١٦).** فهو لا يعني الدخول في حالة من شرود الذهن ولا يكون الكاتب في غير حالته الطبيعية الإنسانيّة التي يتعامل بها مع البشر عادةً.

"فالله بمسرته الخاصة، وباختياره، هو الذي اقترب من الإنسان بالكلمة كوسيلة يفهمها الإنسان ويستجيب لها بإمكانياته الطبيعية دون أن يقتحم شخصية الإنسان أو يضطرها للكتابة عن إنغلاب أو خوف".[٤١٨]

ولذلك يرى القديس **إيرينيئوس** أنّ الوحي ليس روحًا يأتي ويسكن في نبي ما فيُلهمه لإعلان حقيقة جديدة، **إنما هو من الروح الواحد الذي يسكن في جميع الذين يتمسكون بالحق الثابت عندهم بالتقليد، فإنه يسمو بهم إلى الكمال ويحفظهم من الخطأ**.[٤١٩]

يتفق اللاهوتيون الأرثوذكسيون واللوثريون أنه ليس هُناك أي تشابه أو قياس كياني بين الله والخليقة، علمًا بأن المخلوق يعتمد على الله. من أجل هذا كتب القديس غريغوريوس اللاهوتي:

"من المستحيل ان نعبّر عن الله ومن المستحيل بمُقدّار أكثر ان نتصوره".[٤٢٠]

لذا، فأولئك الذين اختبروا مجد الله، هذه الخبرة نفسها لا يمكن التعبير عنها بكلمات، وإدراكها بمفاهيم، **وإن كانوا قد أُلهِموا ان يستخدموا تعابير ومفاهيم من اللغة البشرية العادية لكي يقودوا آخرين إلى الخبرة عينها**.

هذا ما تدعوه المسيحيّة **بالاستنارة**، أي استعلان الأمور الإلهية الفائقة بأن يظهرها لنا الروح الذي يعمل فينا. غير إنّ الكاتب هو الذي يكتب، ويتّخذ الأسلوب الأدبي والكلمات والتعابير التي يراها مُناسبة لعصره وزمانه وثقافته وشعبه. فالوحي في المسيحيّة أشبه بمفهوم الاستنارة، **وهو ما يحدث عندما يعمل الروح القدس في النفس، حيث يُضيء الذهن، وينيره طاردًا ظلمة الجهل، ومُفسِحًا الطريق للمعرفة الإلهية، فيتحرك الإنسان –إن جاز لنا القول– بذهن إلهيّ أو بحسب تعبير القديس بولس "بفكر المسيح" (١كو٢: ١٦)، فيُدرك إرادة الله من نحوه، ويُفكر ويتحرك ويعمل بحسب الله. لذلك أسماه إشعياء النبي**

---

[٤١٨] الأب متى المسكين، كلمة الله شهادة وخدمة وحياة، ص ٤٠.

[419] *Biblical Theology of st.iren. p. 49.*

والوحي عنده بهذا المفهوم هو وحي الكنيسة في شمولها، وليس فقط وحيّ محصور داخل كتاب. أي إن الكنيسة هيَ أيضًا تتحرك وتتخذ قرارات موحى بها من أجل أعضاء جسد المسيح الواحد.

[420] *Ovatio Theologica 2,4*

بروح الحكمة والفهم والمشورة والقوة والمعرفة (أش ١١: ١)، وهو نفس الروح الذي وعد الرّبّ به كلّ المؤمنين في يوئيل النبي (٢: ٢٨، ٢٩)، ولهذا يكتب ق. أنبا انطونيوس:

"أطلب إليكم أن تتركوا مشيئتكم الحسية وتلزموا الهدوء بكل نوع، لكيما تسكن فيكم القوات العلوية بمؤازرة الروح القدس، وتعينكم على العمل بإرادة الثالوث الأقدس".[٤٢١]

وعن دور هذه الاستنارة الإلهية، وعملها في كتبة الكِتَاب المُقدّس، يقول ق. كيرلس عمود الدين:

إنّ اتفاق الحق، والتعلم من الله هو ما يميز عقل الإنجيليين القديسين، لأنهم بالقوة الفائقة التي نالوها ينظروها -مثل الذين يقفون على رأس الجبل أو مكان مراقبة عالٍ يشاهدون منه كلّ الاتجاهات، فيقدمون ما ينفع السامعين- ويقنعونهم بغيرة بكل ما يمكن أن يكون لفائدة المتعطشين للحق الكامن في التعاليم الإلهية **ولأنهم قد حدّدوا لأنفسهم هدفًا صالحًا فأنهم يفتشون عن الخطة المختفية**[٤٢٢] **في الأسفار الإلهية"**.[٤٢٣]

والروح القدس يعمل دون أن يشعر أحد بذلك، ولذلك قال عنه يسوع:

اَلرِّيحُ تَهُبُّ حَيْثُ تَشَاءُ، وَتَسْمَعُ صَوْتَهَا، لكِنَّكَ لاَ تَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ تَأْتِي وَلاَ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ (يو ٣: ٨).

ويقول ق.أكليمندس السكندري:

"العقل النبوي والروح الرسوليّ المُعلم نطق في السر".[٤٢٤]

وهكذا، فهو -أي الروح- **يعمل في الكاتب المُلهم مُخفيًا ذاته، وتاركًا للكاتب مُطلق الحرية في استخدام لغته وثقافته وتعبيراته وأسلوبه**، ويكون دوره محصورًا فقط في أن يُثبت القصد المرجو من الرسالة الجوهرية الموحى بها، بحيث لا يحيد عنه الكاتب ويوصله بأقصي درجة ممكنة ليكون واضحًا.

وهكذا يكتب ق.أغسطينوس:

---

[٤٢١] الرسالة ٨: ٣.

[٤٢٢] يقصد النبوات والأمثلة التي تُشير إلى شخص المسيح الرّبّ في العهد القديم، والتي استشهدوا بها.

[٤٢٣] شرح إنجيل يوحنا ج١ ص ٣٩.

[424] *Storm, 1: 9*

"الروح القُدس ترك كلّ مؤرخ في حرية ليبني روايته بطريقته الخاصة، هذا بطريقة وذاك بطريقة مُختلفة[425]"، فيوحنا الرسول تقبّل الوحي لذلك تكلم ولكن ليس (وحيًا إلهيًا) كليًا بل بما يستطيع الإنسان أن ينطقه[426]".

ويشرح ذلك ق. أثناسيوس الرسوليّ قائلًا:

"إنّ إشارات كثيرة إلى المخلّص قد اعطت لكلّ سفر في الكتاب المُقدّس **ميزةً خاصةً به**، وأنها كلها **تُعتبر كسيمفونيّة واحدة متناسقة للروح القدس**. إنّ موسى النبي يكتب نشيدًا، وإشعياء النبي يرتل، وحبقوق النبي يصلّي بنشيد، وبنفس الكيفية نجد في كلّ سفر نبوات وشرائع وأمور تاريخيّة. إنّ الروح القدس هو نفسه الذي يُهيمن على الكلّ، و**كلّ سفر يخدم ويُتمّم النعمة المعطاة له بحسب ما هو مقسّم كنصيب من الروح لكلّ سفر سواء كان ذلك نبوة أو تشريع (وصايا) أو تسجيل تاريخيّ أو النعمة المميّزة لسفر المزامير، حيث إن الروح الواحد عينه تخصه جميع هذه العطايا المختلفة... إذًا، فكثيرًا ما نجد أن كلّ سفر، في اعتماده على الروح، يخدم الكلمة بحسب الاحتياج...**

إذن، فنعمة الروح مشتركة في جميع الأسفار، وهي موجودة في كلّ سفر على حدة، ولكنها هيَ نفس النعمة فيها كلها كما يتطلبه الاحتياج ومشيئة الروح تمامًا. وتوزيع عطايا الروح لا يُظهر أكثر من هذا الاحتياج أو أقل منه، ولكن المهم هو أن كلّ سفر يحقّق ويكمّل رسالته الخاصة به على أكمل وجه[427]".

الكتاب ليس في حرفه بل في فهمه

هكذا تعامل الآباء مع نص الكتاب المُقدّس فقد كانوا **عادة ما يتلونه من الذاكرة**، فيشير المطوَّب جيروم عدة مرات إلى أن **مسيحيّ القرون الأولى**، بما فيهم الرسل والبشيرين، في اقتباسهم للعهد القديم،

[425] *De Cons. Evang II, 51.*
[426] *Tract, in joan. Ev. 1, 1.*

[427] الرساله إلى مارسلينوس، الفقرات ٩، ١٠.

لم يحتسبوا حرف الكتابات المُقدّسة بنفس المُعتقد الذي كان منذ البداية يُميز الموقف اليهودي تجاه تقديسه لحرف النص، لقد فهم الآباء **أن الحرف له قيمة فقط من خلال معناه**، وأن الكتاب إنما كُتِبَ للإنسان، وليس الإنسان للكتاب. هذه الطريقة في رؤية الكُتب المُقدّسة ظاهرة بوضوح في اقتباسات العهد الجديد في كتابات الكُتاب الكنسيين الأوائل، فهم ليسوا فقط يقتبسون من الذاكرة بشكل تقريبي، **بل أنهم يستخدمون غالبًا الإشارات الضمنية بدلًا من الإقتباسات الدقيقة**. ويبدو واضحًا أن ما نظروه في النص كان معنى أعمق ولا يُمكن أن يتأثر بأي شكل من التغيرات النصية.[٤٢٨]

إذًا، خلف الكتاب المُقدّس المكتوب، تقبع الحقيقة الديناميكية الدينية الشفوية لتقاليد الشعبين اليهودي والمسيحيّ. فقد حُفظت هذه التقاليد الشفوية وطُوِّرت في العبادة والتعليم والعادات. حفظها شعب الله حية وهي عززت هويته موجهةً معتقداته وعاداته. في آخر الأمر، كان الكُتَّاب مُلتزمين بالكتابة عبر عمليات مُعقدة. استمرت الكتابة العبرية لقرون والعهد الجديد لعشرات السنوات.[٤٢٩] ونؤكد إنّ كلمة النبي التي تصل إلى البشر بتعابير مختلفة مُقدّسة بسبب الموهبة التي أعطاها الله للنبيّ أو الرسول. فإن كتبَ النبي بيده كلامَ الرّبّ (ار ٢٩) أو أملاه على كاتبه (ار٣٦: ٤) أو أودعه ذاكرة تلاميذه (اش٨: ١٦)، فهذا العمل الكتابي هو امتداد لعمل الروح القدس الذي يرافق كلمة الله منذ ظهورها على النبي حتى كتابتها وتدوينها.[٤٣٠]

فالهدف الاسمى في النص الكتابي ليس حرفه، بل القصد المُختبئ بستر الحرف. فيقول القديس **يوحنا ذهبي الفم** في بداية تفسيره لسفر المزامير:

"كما أن البناء الذي بلا أساس يكون مُختلًا ولا يؤمَنَ له، كذلك الكتاب المُقدّس يصير بلا منفعة إطلاقًا، إذا فشل الفرد في استقصاء القصد منه".[٤٣١]

ويقول **أثناسيوس** الرسوليّ عن أولئك الذين يخترعون لانفسهم مقاصد بعيدة عن قصد الكاتب:

---

[428] *L. Vaganay & C-B amphoux, An Introduction to The New Testament Textual Criticism, p. 92.*
[٤٢٩] العهد الجديد نظرة أرثذوكسية، الاب تيودور ستيليانوبولوس، ص ٢٣.
[٤٣٠] الخوري بولس الفغالي، المدخل إلى الكتاب المُقدّس، ج١ ص ٣٤

[431] *P. G. 55, 35*

"هم يضلون كثيرًا إذ هم لا يدركون هدف الكتاب الإلهي".[٤٣٢]

لذلك، فالجهل بالقصد يشوه ملامح المسيح الكلمة الذاتي في عقول البعض، بل يشوه المضمون الخلاصي لكلمة الله ككل.[٤٣٣] ذلك لأن الكتاب المُقدّس كالأيقونة، فالأيقونة في المفهوم الأرثوذكسيّ هيَ نافذة تراها العين لتنتقل منها إلى حقيقة أسمى، وهي اللقاء الشخصي مع صاحب الأيقونة، هكذا الكتاب ايضًا، هو نافذة كلامية على حقيقة متعالية تسمو عن الحرف الذي كتبت به كسمو الأصل عن الصورة.

هذا يظهر من خلال أحد الألفاظ التي تُعبر عن الوحي في اللغة اليونانية، وهو الإعلان، وفي اليونانية ἀποκάλυψις [ابوكلايبسيس- والتي تحولت في العربية إلى أبوغلامسيس]. وهي تعني كشف شيء ما مُخبأ،[٤٣٤] فالله أراد أن يكشف عن نفسه ويتواصل مع البشرية. وآباء الكنيسة قد علَّموا، والبحث الحديث أكد، أن على القُرّاء أن ينتبهوا لهدف الكتاب الشامل أو نهايته، حتى تظهر أجزائه عبر الكل، ويظهر الكلّ عبر الأجزاء.[٤٣٥]

إنَّ الكتاب المُقدّس في النظرة الأرثوذكسيّة **هو سجل الإعلان أكثر مما هو الإعلان المُباشر ذاته. القراءة عن الخلق في سفر التكوين ليست مثل الحضور عند الخلق**. النبي إشعياء رأى بنفسه الرّبّ على العرش في المجد، لكن ما يرد في (إشعياء ٦) هو قصة هذا الإعلان وليس الإعلان المُرهب عينه. **بالتأكيد، سجل الإعلان** مُلهَم ومُقدّس وقانونيّ، ولكن مع هذا، هو يبقى سجلًا كتبه كُتّاب هم بشر محدّدون وبلغات بشرية مُحدّدة[٤٣٦]، هذا بحسب ما كتبه الأب تيودور.

---

[٤٣٢] الرسائل عن الروح القدس، ٢: ٧.

[٤٣٣] الأب سيرافيم البراموسي، مدخل لفهم كلمة الله، ص ٢٤١.

[٤٣٤] القاموس الموسوعي للعهد الجديد، فيرلين د.فيربروج. ص ٧٣ #٦٣٦.

[٤٣٥] العهد الجديد نظرة أرثذوكسية، مرجع سابق، ص ٣٨.

[٤٣٦] المرجع السابق، ص ٤٢.

وعلى ذلك، **فلا يوجد في المفهوم الأرثوذكسيّ للوحي ما يُسمى بالعصمة ذلك المُصطلح الذي يدعي القائلين به إنه هُناك كتابًا بلا خطأ، وبذلك يصبح للكتاب صفة هيَ خاصة بالله وحده! وتبني نظرية العصمة هذه هو ما يجعل أصحابها ينزلقون في نوع من عبادة الكتاب.**

أمّا التقليد الأرثوذكسيّ فهو يستخدم تعبيرًا آخر للتعبير عن مكانة الكتاب المُقدّس داخل الكنيسة وهو (كفاية الكتاب) وهو تعبير كثيرًا ما استخدمه ق.أثناسيوس الرسوليّ.[٤٣٧] فالكتاب المُقدّس كافي في ذاته لتعليم الحق لإنه كُتِب بواسطة أشخاص ممتلئين من روح الله، وجماعة اختبرت الإيمان في داخلها.[٤٣٨] **لكنه ليس الحق نفسه، فالحق هو المسيح فقط، والكتاب دوره أن يُشير ويوجه إلى هذا الحق.**

ففي الأرثوذكسيّة لا نتحدّث عن كفاية الكتاب الذاتية وكأنه بذاته يحتوي كلّ ما أعطى الله للكنيسة، أو كأنه ممكن أخذه وحده دون قوة التفسير والتعليم التي يعطيها الروح القدس للكنيسة وفيها. الإعلان هو خبرة روحية داخلية لأعضاء الكنيسة.

يمكننا تشبيه هذا الامتزاج بين العنصرين الإلهيّ والبشري بالفنان الذي يعزف علي عدة آلات موسيقية فنسمع أصواتًا مختلفة ولو أن العازف واحد، ومع عظمة العازف فإنه سيتحرك في حدود قدرات الآلة التي بين يديه.

ماذا عن النبوات؟

مفهوم الوحي الحادث عن استنارة الروح القدس، والذي نتحدث عنه الآن، يشمل حتى الرؤى والنبوات، التي لم تكن حرفيّة، ولم يُنقل المكتوب ما كان في الصورة التي استعلنت للنبي تفصيليًّا، بل نُقِل فقط الهدف من النبوة أو الرؤية كما فهمها. وهذا ما يعلن عنه إرميا إذ يقول:

"اَلنَّبِيُّ الَّذِي مَعَهُ حُلْمٌ فَلْيَقُصَّ حُلْمًا، **وَالَّذِي مَعَهُ كَلِمَتِي فَلْيَتَكَلَّمْ بِكَلِمَتِي بِالْحَقِّ**. مَا لِلتِّبْنِ مَعَ الْحِنْطَةِ، يَقُولُ الرَّبُّ؟" (أر ٢٣: ٢٨)، وَمَدَّ الرَّبّ يَدَهُ وَلَمَسَ فَمِي، وَقَالَ الرَّبّ لِي: «هَا **قَدْ**

---

[٤٣٧] أنظر حياة انطونيوس، ١٦. حيث جاء على لسان انبا انطونيوس: " الاسفار المُقدّسة كافية للتعلم" . رسالة إلى الوثنيين، ١: ٣. وفيها يقول اثناسيوس: "أن الكتب المُقدّسة الموحي بها كافية لتعليم الحق، ويوجد أيضًا مؤلفات أخري لمُعلمينا المغبوطين وضعت لهذه الغاية".

[٤٣٨] ولذلك فكفاية الكتاب لتعلم الحق تحدث فقط عندما يُقرأ داخل جماعة الإيمان التي نشأ بواسطتها ولإجلها.

جَعَلْتُ كَلاَمِي فِي فَمِكَ. ١٠اُنْظُرْ! قَدْ وَكَّلْتُكَ هذَا الْيَوْمَ عَلَى الشُّعُوبِ وَعَلَى الْمَمَالِكِ، لِتَقْلَعَ وَتَهْدِمَ وَتُهْلِكَ وَتَنْقُضَ وَتَبْنِيَ وَتَغْرِسَ (أر ١: ٩- ١٠).

فالنبي يقول: "تكلم بكلمتي"، وليس "يقص كلمتي أو يروي أو يكرّر كلمتي"، بل يتكلم بها، وكأنه يتكلم بما يوافق كلمة الله االتي سمعها منه. ولذلك يقول الأب رافائيل البراموسي:

هذه الرؤى –في الواقع– **خاطبت عقل وروح النبي أكثر من أذنيه**، لإن الصور وشرحها رآها بالروح ومن خلالها وصل اليه هدف وقصد الله.[٤٣٩]

فالأنبياء والرسل والقديسون، الذين اختبروا مجد الله، شهدوا له في الكتاب المُقدّس ليعلنوا حقيقة الله وسُبل الشركة معه. حول هؤلاء أنفسهم كتب يوحنا:

اَلَّذِي كَانَ مِنَ الْبَدْءِ، الَّذِي سَمِعْنَاهُ، الَّذِي رَأَيْنَاهُ بِعُيُونِنَا، الَّذِي شَاهَدْنَاهُ، وَلَمَسَتْهُ أَيْدِينَا، مِنْ جِهَةِ كَلِمَةِ الْحَيَاةِ. ٢فَإِنَّ الْحَيَاةَ أُظْهِرَتْ، وَقَدْ رَأَيْنَا وَنَشْهَدُ وَنُخْبِرُكُمْ بِالْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَ الآبِ وَأُظْهِرَتْ لَنَا. **٣الَّذِي رَأَيْنَاهُ وَسَمِعْنَاهُ نُخْبِرُكُمْ بِهِ**، لِكَيْ يَكُونَ لَكُمْ أَيْضًا شَرِكَةٌ مَعَنَا. وَأَمَّا شَرِكَتُنَا نَحْنُ فَهِيَ مَعَ الآبِ وَمَعَ ابْنِهِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ. ٤وَنَكْتُبُ إِلَيْكُمْ هذَا لِكَيْ يَكُونَ فَرَحُكُمْ كَامِلًا (١يو ١: ١- ٤).

فالوحي إذًا هو شهادة هؤلاء الأنبياء، والرسل، والجماعة المُستنيرة والمُلهمة بالروح القدس، شهادة عن خبرتهم مع الله، أو إعلان عن إختبارهم للإيمان.

الوجه البشري للوحي الإلهي

مهما كانت الطريقة التي نفهم بها الوحي الإلهي، فعلينا ألاَّ نغفل عاملًا أساسيًا، وهو أن الكتاب ينقل إلينا كلمة الله في لغة بشرية. فالله كلم الإنسان بالفعل، وهذا يفترض من يسمع هذه الكلمة، ويعيها، وينقلها للجماعة، **واللسان البشري لا يفقد خصائصه الطبيعية عندما يصير عربة للإعلان الإلهي**، فهو **يحتاج إلى اللجوء للتشبيهات، والاستعارة والأسلوب القصصي، وكل الطرق المتاحة لكي يوصل جوهر**

[٤٣٩] المسيح في رؤي ونبوات زكريا، ص ١٥.

الرسالة الإلهية. فإذا ما أردنا ان تكون كلمة الله مدوية، فلساننا يجب أن يبقى لسانًا بشريًا. واللغة الإنسانيّة لا تخون الإعلان الإلهي، ولا تُقلل من شأنه أو تُقيد قوة كلمة الله. **ومادام الإنسان مخلوقًا على صورة الله ومثاله فهو قادر أن يُعبر عن كلمة الله بكلماته البشرية بشكلٍ واضح وصحيح**. فعندما ينفخ الروح في نظام اللغة البشرية يقدر الإنسان أن ينطق بكلام الله وأن يتحدث عن العُلى، أي يكون اللاهوت ممكنًا.

فالكتاب هو -بمعنى من المعاني- **كلمة الله، والاستجابة الإنسانيّة بآنٍ واحد**، أي كلمة الله المُعبر عنها من خلال استجابة الإنسان الإيمانيّة. ولذلك **فالعرض الكتابي متأثر دائمًا بالظروف التي يتكون فيها**.[٤٤٠]

ويكتب القديس **إيرنيئوس** عن الوجهين البشري والإلهي للكتاب المُقدّس هكذا:

"اللغه لغة إنسان مُلهم، ولكن الذي يصيغها ويصورها هو الله الكلمة".[٤٤١]

الكاتب الذي قد وضع الروح في قلبه أن يوصل رسالة لشعب الله سيبحث عن الوثائق ويسأل الشهود، ويقوم بالمجهود الضروري لأجل إيصال رسالته.[٤٤٢] ولذلك فسيأخذ من الوثائق التاريخية المتاحة له ويوؤلها على أساس الرسالة التي يُريدها.

ويقول د/ نورمان جيسلر:

"لكي يكون الكتاب المُقدّس مفهومًا، كان عليه أن يتعامل مع لغة الأنبياء والرسل، ويستخدم الخلفية الثقافية للأرقام، الصور، والرموز، وكل العناصر الأخرى التي ترتبط بشكل عام بالاتصال اللغوي، **ولكن أي نظرية جامدة للعصمة تفرض المصطلحات العلمية أو التقنية الحديثة على النص الكتابي لا يمكن تقّبلها**".[٤٤٣]

---

[٤٤٠] بتصرف عن: الاب جورج فلوروفسكي، الكتاب المُقدّس والكنيسة والتقليد، ص ٣١، ٣٢.
[٤٤١] الروح القدس الرّبّ المحيي . الاب متي المسكين . ج٢ ص ٤٦٨ . *st . iren , APOL. 1, 36 & II, 10*
[٤٤٢] راجع (يش ١٠: ١٣) و(٢صم ١: ١٨) و(لو ١).
[443] *General Introduction To The Bible, p. 57*

ويشدّد د/ موريس تاوضروس على هذا المفهوم قائلًا:

"لا يتم الوحي بطريقه الية التي بحسبها فإن من يكون واقعًا تحت تأثير الوحي الإلهيّ يتحول إلى أداة سلبية لا فاعلية لها، إلى **الدرجة التي ننظر فيها إلى الكُتَّاب المُقدّسين كأن عملهم لا يتجاوز مجرد التوقيع**، وهم يكتبون ما يُملي عليهم أو يُلَقّن لهم من الروح القدس – حسب هذه النظرية – إلى الأسلوب والكلمات بل بالنسبة للبعض يمتد حتى إلى علامات الترقيم. إنّ الوحي قد **ترك للكتبة أن يستعملوا المعارف الثقافية التي اكتسبوها. ثمّ إن الوحي لا يعفي الكتبة من بذل الجهد للتعرف على بعض المعلومات والمعارف التي يتضمنها الكتاب المُقدّس في أجزاء أُخرى منه. فمثلًا في (٢مل ١٢ : ١٩)، أُشير إلى مصادر لابد ان يكون الكاتب على معرفة بها**".[٤٤٤]

فبلا شك إن عقيدة الوحي لا تستبعد استخدام السجلات الإنسانيّة كمصدر لإظهار الحقيقة الإلهية. ومثل هذا الاستخدام الذي ذُكِر في الكتاب الكتاب المُقدّس، نجد مثلًا:

كاتب إنجيل لوقا، يقول إنه بحث في سجلات مكتوبة على أيامه (لو ١:١-٤)، وكاتب سفر يشوع استخدم سفر ياشر في حادثة ثبات الشمس في مكانها (يش ١٣:١٠). وبولس الرسول استعار من شعر وثني (أع ١٧:٢٨) وهو يخاطب جموع الأثينيين في أريوس باغوس. ويهوذا استعار أقوالًا غير قانونيّة عندما تكلم عن أخنوخ حيث أقتبس من سفر ليس من ضمن الأسفار النبوية (يهوذا ١٤:١).

وهُناك **ملاحظة هامة** لا يجب أن نغفلها هُنا، وهي إنّ استخدام المصادر غير الكتابية، لا يجب أن يُنظر إليه كشيء غير متلائم مع الوحي –ويجب أن نتذكر أن كلّ الحق هو حق الله، فالله الذي أمر بأن "يشرق نور من ظلمة" (٢كو ٦:٤)، قادر أن يجعل النبي الوثني ينطق بكلام الحق (عدّد ١٧:٢٤). ورئيس كهنة متشدّد يتنبأ (يو ١١:٥٠)، وحتى قصة حمار عنيد (عدّد ٢٢:٢٨) جميعهم يمكن أن يستخدمهم الله.[٤٤٥]

[٤٤٤] علم اللاهوت العقيدي ج١ ص ٨١.

[٤٤٥] جوش ماكدويل، برهان جديد يتطلب قرار ص ٣١٣، ٣١٤.

هكذا، نحن نُشدّد، في الكتاب المُقدّس، على دور الله ودور الإنسان معًا، **ولا نخاف على الإنسان من الله ولا على الله من الإنسان، لأنّ يسوع المسيح الوسيط بيننا وبين الله هو إله وإنسان**. إنّ المسيح هو الإله الذي لم يَخَفْ أن يخلي ذاته ويتّخذ صورة عبد ويصير شبيهًا بالبشر (فل٢: ٦) في كلّ شيء ما عدا الخطيئة (عب٤: ١٥؛ رو٣: ٨)، وهو الإنسان الذي بقي متحدًا بالله. هو في الآب والآب فيه (يو١٧: ٢١).

وهكذا، فكلام الله الذي نقرأه هو **على شبه الكلمة المتجسّد، فيه وجه إلهيّ ووجه بشري. الله يوحي إلى البشر، والبشر يتلقّون هذا الوحي بأجسامهم الضعيفة وحياتهم الواهية وحريتهم المجروحة بالخطيئة وعقلهم المعرّض للخطأ. غير أنّ هذا الوحي يبقى كلام الله مهما انتابه من ضعف لدى البشر**، كما أنّ جسد المسيح الذي يتناوله المؤمنون في القدّاس يبقى هو عينه، أتناوله البار أو الخاطئ، التقي أو الشقي."[٤٤٦]

ومما يدل على أن الوحي لا يلغي شخصية الكاتب، ولا يُفقدها حريتها وعملها الخاص، وإن الكاتب يكتب بحسب رؤيته لصياغة الفكر الإلهيّ وبحسب شخصيته وبيئته، **عدم إلتزام الكاتب بالحرفية** فيما يكتب. فمثلًا في قصة عماد المسيح يذكر القديس متي أن صوتًا من السماء قال: **هذا هو ابني الحبيب الذي به سرّرت** (مت ٣: ١٧)، بينما بحسب رواية لوقا فإن هذا الصوت قد قال: أنت **ابني الحبيب الذي به سرّرت** (لو ٣: ٢٢). كذلك يختلف الأمر بين البشائر الاربعة حين يذكرون النص الذي كتب وعلق على صليب السيد المسيح، فبينما يقول متي: **[هذا هو يسوع ملك اليهود]**، يقول مرقس: **[ملك اليهود]**، ويكتب لوقا: **[هذا هو ملك اليهود]**، ويختم يوحنا: **[يسوع الناصري ملك اليهود]**. وحدث نفس الأمر أيضًا في **الصلّاة الربانية** وفي نصوص أُخرى كثيرة في الكتاب المُقدّس بعهديه.

فالوحي إذًا يقوم على شراكة بين الله والإنسان وهو ما يُعمق مفهوم الحرية المسيحيّة. يكتب القديس ثيوفيلوس الأنطاكي:

"لكن رجال الله الذين **حملوا بداخلهم الروح القدس**، وأصبحوا أنبياء، أصبحوا حكماء ومُلهمين من الله، **أصبحوا بحسب فكر الله وروحانيين ومستقيمين**. ولذلك صاروا مُستحقين لتلك المكافأة، أن يصبحوا **وسيلة الله** [للتواصل مع البشر]"[٤٤٧].

---

[٤٤٦] الخوري بولس الفغالي، المدخل إلى الكتاب المُقدّس، ج١ ص ٣٨، ٣٩.

[447] *Theophilus to Autolycus.* CHAP. IX *In The Ante-Nicene Fathers Vol. II : A.D. 325 (97)*

هذا هو أساس رسالة جميع الرسل والأنبياء للبشرية أن يصلوا بهم إلى معرفة الله ويشيرون إلى طريق الشركة معه ومع البشرية في وحدانية على صورة الله لكي تتحقق مشيئته الأسمى لأجلنا، أن نصير جميعًا واحد كما أن الثالوث القدوس هو واحد (يو ١٧: ٢٢- ٢٣)، هذا الطريق الذي أوّل خطوة فيه هو أن أحبّ للآخر كما أحبّ لنفسي وأن أعامله بحسب ما أُريد أن يعاملني. هذه هيَ فحوى كلّ رسالة الإنجيل، وكل تعاليم الرسل والأنبياء الموحى إليهم بالروح الإلهي، ولذلك جاء في ايوب:

"لكِنَّ اللهَ يَتكَلَّمُ مَرَّةً، وَبِاثْنَتَيْنِ لاَ يُلاَحِظُ الإنسان. ١٥فِي حُلْمٍ فِي رُؤْيَا اللَّيْلِ، عِنْدَ سُقُوطِ سَبَاتٍ عَلَى النَّاسِ، فِي النُّعَاسِ عَلَى الْمَضْجَعِ. ١٦حِينَئِذٍ يَكْشِفُ آذَانَ النَّاسِ وَيَخْتِمُ عَلَى تَأْدِيبِهِمْ، ١٧لِيُحَوِّلَ الإنسان عَنْ عَمَلِهِ، وَيَكْتُمَ الْكِبْرِيَاءَ عَنِ الرَّجُلِ، ١٨لِيَمْنَعَ نَفْسَهُ عَنِ الْحُفْرَةِ وَحَيَاتَهُ مِنَ الزَّوَالِ بِحَرْبَةِ الْمَوْتِ" (اي ٣٣: ١٤- ١٧)،

وسفر الحكمة يعلن نفس الأمر أيضًا:

إنّ في كلّ شيء روحك الذي لا فساد فيه.فبه توبخ الخطاة شيئًا فشيئًا وفيما يخطأون به تذكرهم وتنذرهم لكي يقلعوا عن الشر ويؤمنوا بك أيها الرّبّ (حكمة ١٢: ١- ٢).

الكتاب أم الشخص؟

انتقل الوحي من شخص أو بضعة أشخاص إلى جماعة عن طريق الخبرة والكلام قبل أن يدوّن في كتاب. فغالبية نصوص العهدين لم تبدأ كنص مكتوب، بل هيَ عظات أُلقيت بشكلٍ طبيعي على الشعب وسُجِلت فيما بعد مثل عظات موسي على مدى الأسفار الخمسة وعظة يشوع في نهاية السفر المُسمي بأسمه وعظات الانبياء وتعاليم المسيح وعظة بطرس ثمّ إسطفانوس من سفر الاعمال... وغيرها. وروح الرّبّ رافق الكاتب يوم عبّر عنه الأنبياء، ويوم ردّدته الجماعة، ويوم دوّنه الكتّاب الملهمون. وهكذا وصل كلام الله إلى الكنيسة التي تتمتعّ هيَ أيضًا بأنوار الروح القدس".[٤٤٨]

[٤٤٨] الخوري بولس الفغالي، المدخل إلى الكتاب المُقدّس، ج١ ص ٤١.

ففي أيام المسيحيّين الأوائل لم تكن الأناجيل المصدر الأوحد للمعرفة، لأنها كانت غير مدونة بعد. لكن الكنيسة –آن ذاك– عاشت وفق روح الإنجيل، بل إن الإنجيل نفسه برز إلى الوجود في الكنيسة عن طريق سرّ الشكر والاجتماعات الليتورجية. **فمن مسيح سرّ الشكر تعرَّف المسيحيّون إلى مسيح الأناجيل. وهكذا صارت صورته حية عندهم،**[449] **فكنيسة المسيح أقدم من العهد الجديد**. وعن ذلك يكتب الأب شنودة ماهر:[450]

"كان هدف الرسل أن يُبشروا بالمسيح وأن يقدموه حيًا في حياتهم، ولم يكن هدفهم أن يكتبوا، بدليل أن الكثيرين منهم وهم أعمدة الكنيسة لم يكتبوا شيئًا على الإطلاق. ولم يكن بعدهم عن الكتابة عجزًا منهم، ولكنهم لم يكتبوا لأنهم كانوا يعرفون طريق الكرازة الأساسيّ، إنه التقليد، تسليم الإيمان الحي مُباشرة إلى النفوس. فليس التبشير هو تسجيل الإيمان بورق وحبر بقدر ما هو إدخال الإيمان حيًا إلى القلوب. فالإثنا عشر رسولًا لم يكتب أحد منهم إنجيلًا إلا إثنان فقط هما معلمنا متى ومعلمنا يوحنا. أما معلمنا يعقوب الرسول فلم يكتب سوى رسالة واحدة قصيرة من الممكن قراءتها أو كتابتها فيما لا يزيد عن ساعة من الزمان، ففى أي شيء قضى كلّ سني الكرازة؟! كذلك معلمنا يهوذا الرسول لم يكتب سوى رسالة واحدة قصيرة لا تستغرق في كتابتها أو قراءتها أكثر من نصف ساعة، ففى أي شيء قضى كلّ أيام حياته وكرازته؟! كذلك أيضًا معلمنا بطرس الرسول لم يترك سوى رسالتين قصيرتين، يُمكن كتابتهما وقراءتهما فيما لا يزيد عن الساعتين، ففى أي شيء قضى كلّ سنى خدمته وكرازته؟! أين ما كتبه اندراوس وتوما وفيلبس ويعقوب الكبير وسمعان القانوى وباقى الإثنا عشر والسبعين رسولًا؟! واضح جدًّا أنه لم تكن الكتابة هدفًا اساسيًا للرسل، وإنما الذين كتبوا منهم، كتبوا بعد فترات طويلة عندما طرأت اسباب دعتهم إلى ذلك".

[449] الأب جورج فلوروفسكي، الكتاب المُقدّس والكنيسة والتقليد، ص ٥٩.
[450] بحث في التقليد المُقدّس ، القس شنودة ماهر ، الطبعة الخامسة – القاهرة – ٢٠٠٠ ، ص ١٩ – ٢١.

يوسابيوس القيصري، ومنذ القرن الخامس الميلادي، نجده يروي نفس ما قاله الأب شنودة ماهر عن البداية الكرازية للكنيسة، قائلًا:[451]

"فإن أولئك الرجال العظماء اللاهوتيين حقًّا، أقصد رسل المسيح، تطهّرت حياتهم وتزينوا بكل فضيلة في نفوسهم ولكنهم لم يكونوا فصيحى اللسان، ولقد كانوا واثقين كلّ الثقة من السلطان الإلهيّ الصانع العجائب الذي منحه المخلِّص، ولكنهم لم يعرفوا -ولم يحاولوا أن يعرفوا- كيف يذيعون تعاليم معلمهم بلغة فصحى بل استخدموا فقط إعلانات روح الله العامل معهم، وسلطان المسيح الصانع العجائب الذي كان يظهر فيهم، وبذلك أذاعوا معرفة ملكوت السماوات في كلّ العالم **غير مُفكرين كثيرًا في تأليف الكتب**".

يرتبط الوحي بشخص المسيح وعمله. **أكد المسيح في أكثر من مرة أنه محور كُتُب العهد القديم،** فأسفار العهد القديم مكتوبة عنه **وتَشْهَدُ له**. لقد **فتح المسيح ذهن تلاميذه** وخاصة الرسل ليفهموا الكتب (لوقا ٢٤: ٤٤ – ٤٥؛ يوحنا ٥: ٣٩). وقد حدّد المسيح أقسام هذه الأسفار في حواره مع **تلميذي عمواس** عندما بدأ مِنْ مُوسَى وَمِنْ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ يُفَسِّرُ لَهُمَا الأُمُورَ الْمُخْتَصَّةَ بِهِ فِي جَمِيعِ الْكُتُبِ (لوقا ٢٤:٢٧). كما أكد المسيح لرُسله الأطهار بعد القيامة أَنَّهُ لاَ بُدَّ أَنْ يَتِمَّ جَمِيعُ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ عنه فِي نَامُوسِ مُوسَى وَالأَنْبِيَاءِ وَالْمَزَامِيرِ (لوقا ٢٤:٤٤).

لذلك، فالعقيدة **المسيحيّة ليست مؤسّسة على كتاب، بل على شخص المسيح،** فإن كان هُناك عهدٌ قديم وعهدٌ جديد **فالمسيح هو العهد ذاته،** فإشعياء يتنبأ عن المسيا قائلًا: "**أجعلك عهدًا للشعب**" (أش ٤٢: ٦)، ويقول القديس بولس إن الله تواصل مع الإنسان بأساليب وطرق كثيرة ولكن **في ملء الزمان كلّمنا في الابن الذي هو استعلان الله للعالم** (عب١). ويعلق القديس يوستينوس:

"إذا كان الله قد تنبأ بأنه سيقطع عهدًا جديدًا ليكون نورًا للأمم، ونحن نرى ونثق أنه باسم يسوع المسيح المصلوب أتى أناس إلى الله، تاركين ورائهم الوثنية والممارسات الخاطئة، وحفظوا الإيمان، وساروا في التقوى حتى الموت، فيستطيع كلّ أحد أن يرى بوضوح من هذه الأعمال

[451] تاريخ الكنيسة ٣ : ٢٤ :٣.

ومن المعجزات القوية أن المسيح هو بالحقيقة الناموس الجديد والعهد الجديد ورجاء هؤلاء الذين من كلّ أمة ينتظرون بركات الله". [٤٥٢]

ويؤكد ذلك في موضع آخر فيكتب:

"فكيف تتحدثون عن عدم الوضوح في حين أن الحقائق تتحدث عن نفسها؟ وقد ذكر المسيح أيضًا.. إن الناس سيعترفون بإن العهد الجديد الذي وعد به الله منذ القديم صار أمرًا واقعًا، أي أن المسيح ذاته هو ذلك العهد الجديد". [٤٥٣]

ونفس الأمر نجده عند القديس إغناطيوس الأنطاكي، القائل:

"أمّا أنا فوثائقي هيَ يسوع المسيح، وثائقي المخطوطة صليبه وموته وقيامته، والإيمان الذي منه". [٤٥٤]

فالمسيحيّة حذرة أشد الحذر من الوقوع في عبادة الحرف وتشدّد على دور الإنسان في تدوين الوحي الذي وصل إلينا بعبارات بشرية وكلمات الناس اليومية. نقول إنّ الله هو واضع الكتاب المُقدّس. ونقول أيضًا إنّ الإنسان هو واضع الكتاب المُقدّس. لا شكّ في أنّ مبادرة الوحي ترجع إلى الله، ولكنّ الإنسان هو الذي يكتب فنكتشف شخصيته وطباعه من خلال ما يكتب. إنّ الله يؤثّر في الكاتب المُلهم، يؤثّر في إرادته فيدفعه إلى الكتابة، فالروح القدس يعمل فينا دافع إيانا على أن نُخرِج مما أعطانا إياه من كنوز، ويؤثّر الله ايضًا في عقل الكاتب فيعطيه فهم الأمور الإلهية والقدرة على إيصالها إلى البشر بطريقة تساعدهم على فهمها بقدر ما يستطيع الإنسان أن يفهم أمور السماء.

فالوحي ليس كتاب بل هو إعلان من شخص الرسول أو النبي المُستنير بالروح القدس **يعلن فيه عن رسالة تختص بالله والإنسان**، سواء من جهة تدبير الخلاص، أو تعبير عن علاقة الله مع الإنسان وتعاملاته في حياة البشرية. وهكذا بدأ العهد الجديد **كـكرازة للرسل عن شخص المسيح والخلاص الذي قدَّمه لنا.** ولكن "يأتي يوم لا يبقى فيه الوحي إعلانًا وكرازة فحسب، بل يصبح كلامًا مكتوبًا في كتاب.

---

[٤٥٢] الحوار مع تريفون، فصل ١١.

[٤٥٣] الحوار مع تريفون، فصل ٥١.

[٤٥٤] الرسالة إلى فلادلفيا ٨: ٢.

الوحي مازال مستمرًا

لذا نجد الكنائس البروتستانتية التي بشكل ما تعبد الكتاب المُقدّس، تُفرّق دائمًا بين الوحي المُنزل في الكتاب المُقدّس، وبين ما يسمونه الإعلان، وهو ما يُعلن لرجال الله القديسيين، ويشمل موهبة التعليم التي تكلم عنها بولس الرسول في رسائله.

هدف الوحي

وعلى ما سبق، يُمكننا أن نقول إنَّ الوحي المسيحيّ هو رسالة يكتبها كاتب مُستنير ومُلهم بالروح يقصد منها عدة أشياء، فعلى سبيل المثال:

١- تكون هذه الرسالة بقصد إيصال تدبير الخلاص، وهو ما يخص مجئ المسيا، وعمله الخلاصي، واحتياج الإنسان له للتخلص من عبودية الموت وتسيّد الخطية، وضعف طرق البشر الذاتية للخلاص من هذه العبودية.

٢- وفي أحيان أخرى، كانت تعبر الرسالة عن علاقة الله بالإنسان وتساؤلات الإنسان نحو الله مثل: لماذا الله مُحتجب؟ لماذا الشر والألم؟ لماذا الأوبئة والكوارث الطبيعية؟ كما تتحدث عن عناية الله بالبشرية وعن أبوة الله، وغفرانه، ورحمته، الحق والخطأ الأخلاقيين، الملكوت والجحيم، وكل هذا يحدث من خلال منظار لاهوتي وديني.

٣- وفي مواضع أخري تتحدث الرسالة عن تدخلات الله في التاريخ، أو بمعنى آخر روحنة التاريخ، أو تدوين التاريخ الديني، ففي هذه الحالة تُقَدم الرسالة النبوية في قالب تاريخي حيث يسرد الكاتب تاريخ شعبه المُقدّم له الرسالة، ويقص علينا تدخلات الله في هذا التاريخ، وتعاملاته معه. وهُنا لا يهتم الكاتب بسرد الحدث التاريخي، بقدر ما يهتم بروحنته والتركيز على دور الله فيه. ففي الفكر اليهودي الله يعلن عن ذاته لا كما هو في ذاته بل في الظلال والرموز، يكشف عن مقاصده خلال التاريخ. فالكتاب المُقدّس ليس كتاب كتبه فرد بل كُتِبَ وسط جماعة ولأجلها، فشعب الكتاب المُقدّس اعتبر أن الله حاضر دومًا في تاريخه، وفاعل فيه، وهو يكشف عن نفسه للبشر من خلال أفعاله. لقد اكتشف العبرانيون في

أحداث حياتهم علامات عن حضور الله وعمله من أجل تحرير شعبه وخلاصه. وهكذا فهموا أن مخطط الله بالنسبة إلى البشر هو مخطّط فداء وعهد صداقة. وهكذا تكوّن إيمان شعب الله. إيمان تقبّلوه كعطية وسط خبرة حياة جماعية وفردية مع إله يسيطر على الكون والتاريخ.[٤٥٥]

خاتمة لابد منها

ليس هذا إختزالًا لقدر الكتاب في الكنيسة، بل لازال الكتاب المُقدّس هو المرشد الآمين لكل المؤمنين، بل والمرشد الأصدق والأهم، فهو الكتاب الوحيد الذي كُتِب بيد رسل المسيح، وأجمعت عليه كلّ الكنيسة في كلّ العالم منذ أن كُتِبَّ مرورًا بكل الآباء الأولين والمجامع المسكونية وإلى يومنا هذا. فالمطوّب أغسطينوس يقول عن الكتاب المُقدّس إنه: "سلطة الديانة".[٤٥٦] ويشترك مع القديس إيرينيئوس في أن الكلمة المكتوبة هيَ "قاعدة الحق وقانونه".[٤٥٧] ومن يستوعبها جيدًا، "يستوعب الإيمان نفسه"[٤٥٨]، ويقول المُعلم أوريجينوس:

"إذا تبصَّر إنسان في أقوال النبوات بكل الشوق والتوقير اللائق بها، فمن المؤكد أن تتلامس روحه وأحاسيسه مع روح الله من خلال إطلاعه وتدقيقه فيها. وسوف يُدرك أن الكلمات التي قرأها ليست من مُجرد نُطق بشري ولكنها لغة الله. وهكذا سوف يؤمن بكل يقين أن هذه الكُتب لم تصنعها مهارة إنسان أو أي ذكاء بشري أو فطنة أرضية، إنما هيَ ذات طابع إلهي".[٤٥٩]

ولكن بالحري يجب للتعريفات السابقة عن معنى الوحي والكتاب المُقدّس أن تقودنا إلى نظرة أشمل وأعمق للنص الكتابي والذي هو رسالة إلهية ذات قصد ومعنى، وأن تحولنا من الإلتصاق بالحرف وعبادته، إلى الإنطلاق بالروح نحو الله الغير مُدرك والغير محوي من شئ، والمُستعلن في وجه يسوع.

---

[٤٥٥] الخوري بولس الفغالي، تعرف إلى العهد القديم مع الاباء والانبياء.

[456] *De civit. Die x viii, 38.*
[457] *Sermo 30, 2.*
[458] *De doctrina Christ. I, 41.*
[459] *ANF. Vol IV, p. 345.*

لمزيد من القراءة

- الكتاب المُقدّس والكنيسة والتقليد، الأب جورج فلوروفسكي.
- مدخل لفهم كلمة الله، الأب سيرافيم البراموسي.
- الآباء والكتاب المُقدّس، د جورج عوض.
- قراءة الكتاب المُقدّس مع آباء الكنيسة، فرانسيس يونج، وكريستوفر هال.

- *Donald G. Bloesch,* Holy Scripture : Revelation, Inspiration & Interpretation *(Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1994).*
- *I. Howard Marshall,* Biblical Inspiration *(Milton Keynes, UK: Paternoster, 1982).*

الفصل الثامن:

الروحانيّة الشرقيّة

الصلاّة

الصلَّاة في الإيمان المسيحيّ ليست عملًا نُقدّمه إلى الله لإرضائه، ولا طقسًا فُرِض علينا نقوم به إبتغاء للهبات المُعطاة لنا خلاله أو طمعًا في الحياة الأبديّة والنجاة من الدينونة.

إنما الصلَّاة هيَ حركة شوق داخليّة في الإنسان للتلاقي مع وجه الأبديّة، لقاء مع شخص الله، فيه التعبير عن الحب والشكر وكل ما نشعر به كأنّنا نتحدث إلى أقرب قريب، الله محبوب النفس:

"لأَنَّهُ أَيُّ شَعْبٍ هُوَ عَظِيمٌ لهُ آلِهَةٌ قَرِيبَةٌ مِنْهُ كَالرَّبِّ إِلهِنَا فِي كلّ أَدْعِيَتِنَا إِلَيْهِ؟" (تث ٤ : ٧). "لاَ تَقُلْ فِي قَلْبِكَ مَنْ يَصْعَدُ إِلى السَّمَاءِ؟» أَيْ لِيُحْدِرَ الْمَسِيحَ،٧أَوْ «مَنْ يَهْبِطُ إِلى الْهَاوِيَةِ؟» أَيْ لِيُصْعِدَ الْمَسِيحَ مِنَ الأَمْوَاتِ" (رو ١٠ : ٦-٧).

فالله قريب منّا بل في داخلنا يسكن القدوس ذاته: "أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ هَيْكَلُ اللهِ وَرُوحُ اللهِ يَسْكُنُ فِيكُمْ؟.. لأَنَّ هَيْكَلَ اللهِ مُقدّس الَّذِي أَنْتُمْ هُوَ" (١كو ٣: ١٦، ١٧). ويعلّق على ذلك القديس يوحنا ذهبي الفم قائلًا:

"البشر هم هياكل المسيح. فكما تُصنع بيوت الملوك بالذهب والأحجار الكريمة والمرمر، هكذا الصلَّاة تصنع هياكل المسيح. يقول الرسول بولس: "ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم". وأي مدح تُمدح به الصلَّاة أعظم من أنّها تصنع هياكل لله؟ هذا الذي لا تسعه السموات يأتي ويسكن في النفس بالصلّاة. "السموات كرسيَّ والأرض موطئ قدميَّ. أين البيت الذي تبنون لِيّ، هكذا قال الرّبّ وأين مكان راحتي؟ " (إش٦٦:١)."[٤٦٠]

[٤٦٠] الصلّاة، ترجمة د/سعيد حكيم، ص ١٤، ١٥

وأيضًا المطوَّب جيروم يقول:

"فكروا في النفس القديسة كيف أنّها أقدس من أنّ تُوصف. إنّها تضم المسيح الذي ليست السماء متسعة لتحويه!... يتحرك فيها! فبالتأكيد هيَ بيت متسع، فيه يسير. قيل: "أنتم هيكل الله، والروح القدس يسكن فيكم" (راجع ١ كو ٣: ١٦). لنُعِدَّ هيكلنا حتّى يأتي المسيح، ويجد مسكنه فينا، وتصير نفوسنا صهيون، وتكون برجًا يُقام في الأعالي، فتكون دومًا إلى فوق وليس إلى أسفل".[٤٦١]

والقديس باسيليوس الكبير أيضًا يقول:

"الصلَّاة أيضًا بعد القراءة تنعش النفس وتثيرها بهمَّةٍ نحو حبّ الله. الصلَّاة صالحة، إذ تطبع فكرة واضحة عن الله في النفس، وبتذكُّر سكنى الله يقيم الله فيها. بهذا نصير هيكل الله، بتذكُّرنا الدائم الذي لا تفسده الاهتمامات الأرضيَّة".[٤٦٢]

لذلك فكثيرًا ما أكد الآباء أنّ الصلَّاة الحقيقيّة هيَ استجماع العقل والقلب والدخول بهما في عمق الذات، وهكذا قال أيضًا القديس أنطونيوس إنّنا بمعرفتنا لأنفسنا نعرف الله وما أخذنا منه[٤٦٣]. فيقول: "لإنّ من عرف نفسه عرف الله ومن عرف الله يستحق أنّ يعبده بالحق".[٤٦٤]

و الصلَّاة هيَ التأمل في الجمال، فعندما سأل القديس يوحنا الصليبي إحدى المعترفات قائلًا: "مما تتكون صلاتك؟" فأجابته، قائلة: "التأمل في جمال الله، وفي التهليل والفرح لأن له مثل هذا الجمال".[٤٦٥]

---

[461] *On Ps. Hom. 46.*
[462] *Ep. 2: 4.*
[٤٦٣] لإنّه إذا اقترب إنسان من النعمة فإنّ يسوع سيقول له " سوف لا أدعوكم عبيدًا، بل أدعوكم أصدقائى وإخوتى لأن كلّ الأشياء التي سمعتها من أبى أخبرتكم بها" (يو١٥:١٥) فإنّ كلّ الذين اقتربوا من النعمة وتعلّموا من الروح القدس قد عرفوا أنفسهم حسب جوهرهم العقليّ. وفي معرفتهم لأنفسهم صرخوا قائلين: "لإنّنا لم نأخذ روح العبوديّة للخوف ولكن روح التبني الذي به نصرخ يا أبا الآب" (رو٨:١٥) حتّى نعرف ماذا أعطانا الله، "إذا كنّا أبناء فإننا ورثة أيضًا، ورثة الله، ووارثون مع القديسين" (رو٨:١٧). (الرسالة الرابعة)
[٤٦٤] الرسالة الرابعة

[465] *E. Underhill، Worship، 5.*

هذه هيَ طبيعة العبادة. أنّ نصلّي وأن نعبد هو أن نشعر بالجمال الروحانيّ للملكوت السماويّ؛ وأن نعبّر عن ذلك الجمال بواسطة الكلمات كما بالشعر والموسيقى، ومن خلال الفن والأعمال الرمزيّة، ومن خلال كلّ حياتنا؛ وبهذه الطريقة فإنّنا ننشر الجمال الإلهيّ في العالم حولنا، وهكذا نحوِّل الخليقة الساقطة ونجعلها تتجلّى[٤٦٦].

ويصفها مارإسحق بأنّها تليق بالكمال، وهي استقامة الضمير، ووعظ الأنواع الحسنة، والحرّيّة إلى الأمور المرتفعة، وهذيذ الروح وتذكار السمائيّات والهمّ بالخفيّات[٤٦٧].

و يقول أيضًا:

"الصلّاة هيَ عمل مرتفع متعال على جميع الفضائل، وفضيلة أشرف من كلّ الأعمال. وليس منها (الأعمال) أو بها تقتنى الصلاة، بل أنّ الصلّاة تتولد عند الإنسان من أمور أخرى، والذي لم يقتن واجباتها لا تُصدِّق أنّ له صلاة. فالصلّاة هيَ ذكر الله الدائم الذي يكون في قلوب خائفيه، أعني بذكر الله شخوص النظر الفاضل الذي يكون في قلب الإنسان. فهذا العمل هو الذي يكمل لنا الصلاة، إذا كان منّا بإفراز"[٤٦٨].

ويقول المطوّب أغسطينوس:

"الصلّاة هيَ بلوغ العقل المملوء حبًّا إلى الله، أنّها تشغل الذهن والقلب، الفكر والرغبة، المعرفة والحبّ. الحياة الكاملة للمسيحيّ الصالح هيَ رغبة مُقدّسة"[٤٦٩].

ويقول الاب ثيوفان الناسك:

"الصلّاة هيَ وسيلة الأخذ، وهي اليد التي نستلم بها كلّ البركات الموهوبة لنا بغنى من حبّ الله وصلاحه كما من مصدر لا ينفذ"[٤٧٠].

---

[٤٦٦] الأب كاليستوس وير، العبادة الأرثوذكسيّة، ص ١٩

[٤٦٧] الميمر ١: ٣٩

[٤٦٨] الميمر ٢: ١٤

[469] *Tr. on 1 John 4:6.*

[٤٧٠] المحاربات الروحيّه ٣: ٤٦

فالصلّاة ليست مجرّد كلمات نردّدها أو خُطب رنانة، بل الصلّاة هيَ تعبير إرداي عن شوق اللقاء مع الله والدخول في حالة الأبديّة والاتحاد به، وبهذا فليس المهمّ فيها حجم الكلمات وبلاغتها وعدّدها، بل المهم أن تكون بسيطة صادرة بنقاء من داخل القلب.

فيقول القديس باسيليوس:

"الصلّاة هيَ سؤال ما هو صالح، ويقدمها الأتقياء إلى الله. ولكننا لا نحصر هذه "الصلّاة" فقط في حدود ما نذكره بالكلمات.. فلا ينبغي أنّ نعبّر عن صلاتنا بواسطة مقاطع الكلام فقط، بل ينبغي أنّ يُعبّر عنها بالموقف الأخلاقى والروحى لنفسنا، وبالأعمال الفاضلة التي تمتد خلال حياتنا كلها.. هذه هيَ الطريقة التي تصلى بها بلا انقطاع ـ ليس بأن تقدم الصلّاة بالكلام، بل بأن توحد نفسك بالله خلال كلّ مسيرتك في الحياة، حتّى تصير حياتك صّلاة واحدة متواصلة وبلا توقف"[٤٧١].

و يقول أيضًا:

"لا يحتاج الله إلى خُطب رنّانة، ولا إلى كلمات فصيحة، إذ يعرف ما هو مفيد لنا. وهكذا يمكننا أنّ نحدّد الصلّاة بأنها عمل يتم في ضمير الإنسان وفي داخله، وهي عمل يمتد إلى كلّ الأعمال التي تنسج حياة الإنسان"[٤٧٢].

ويكتب المطوّب أغسطينوس:

"لقد نهانا ربّنا عن كثرة الكلام، حتّى لا تقدَّم له كلمات كثيرة كما لو كنَّا نعلمه بكلامنا. لذلك لا تحتاجون في الصلّاة إلى الكلام، بل إلى التقوى. "لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أنّ تسألوه" (مت ٦: ٨)، ولئلاَّ يشك أحد فيقول: أنّ كان الله يعلم ما نحتاج إليه فما الداعي إلى الصلّاة سواء كانت بكلمات كثيرة أو قليلة؟! نعم إنه يعلم كلّ ما نحتاج إليه، ولكنَّه يريدكم

[471] *Homily on the Martyr Julitta 3-4 (P.G. 31: 244A، 244D).*

[٤٧٢] عظة ٥.

أنّ تصلّوا حتّى يهبكم حسب اشتياقكم، فلا تستخفّوا بعطاياه، ناظرين إلى أنه قد وضع فينا هذه الصلّاة لتكون أساسًا ونموذجًا لاشتياقاتنا، فلا نطلب شيئًا غير ما ورد فيها".

ويقول القديس يوحنا ذهبي الفم:

"بداية نقول أنّ الصلّاة هيَ حقيقة أساسية، بحيث إنّ كلّ من يصلي فهو يتحدث مع الله. فأنت تتحدث مع الله على الرغم من أنك إنسان فانٍ، ولا يستطيع أحد أنّ ينكر ذلك.

لكن أنّ يتقدم أحد إلى هذه الكرامة بالكلام فقط، فهذا أمر غير مقبول لأن هذه الكرامة تسمو عظمة الملائكة. هذا الأمر يدركه الملائكة أنفسهم. يظهر الملائكة في نصوص الأنبياء وهم يقدمون تسابيحهم وصلواتهم إلى السيد الرّبّ بخوف ورعدة، مغطين وجوههم وأرجلهم بورعٍ ومخافة وهم يطيرون بغير أنّ يبقوا في سكون.

هكذا يعلموننا أنّ ننسى طبيعتنا الإنسانيّة الفانية وقت الصلّاة، وننحصر في الغيرة المُقدّسة ومخافة الله، غير مهتمين بالأمور الحاضرة"[٤٧٣].

والصلّاة أيضًا أهمّ ما يميزها أنها ذبيحة كما اسماها الرسول بولس:"فَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ بِرَأْفَةِ الله أَنْ تُقَدِّمُوا أَجْسَادَكُمْ ذَبِيحَةً حَيَّةً مُقدّسة مَرْضِيَّةً عِنْدَ الله عِبَادَتَكُمُ الْعَقْلِيَّةَ.. رو ١٢: ١". ففي الصلّاة أقدم ذاتي ذبيحة لله –ليس ذبيحة بأن أتلاشى أنا وأكون بلا قيمة- بل بالحمد والشكر والتسبيح والتمجيد الذي يُقدم بفهم وذهن حاضر وإحساس كيانيّ وتذوق لكل كلمة تخرج من الفم موجهة إلى الله هيَ بالنسبة إليه كذبيحة مُقدّمة له يستأنس بها الله ويتلذذ ويقبلها ويُنميها. فالذبائح الدموية لا ترضي الله ولا هيَ حسب مشيئته بل فقط وضعها الله من أجل أنّ يتذكره الشعب دائمًا وأيضًا يتذكرون انهم في حاجة إلى الخلاص من الخطيه، وليعرفوا أنّ هذه الذبائح والافعال البشرية لا تنفع الإنسان شيئًا وإننا نحتاج إلى تدخل إلهيّ في حياتنا بل إلى اعماق النفس، وهذا ما أعلنه الوحي بطول الكتاب المُقدّس..

+ "ذابح الحمد يمجدني" (مز ٥٠: ٢٣)

---

[٤٧٣] الصلّاة، ترجمة د/ سعيد حكيم، ص ٨، ٩

+"أسبح اسم الله بتسبيح، وأعظمه بحمدٍ، فيُستطاب عند الرّبّ أكثر من ثور بقر ذي قرون وأظلاف" (مز ٦٩: ٣٠-٣١)

+"لأَنْ لَيْسَ لَنَا هُنَا مَدِينَةٌ بَاقِيَةٌ، لَكِنَّنَا نَطْلُبُ الْعَتِيدَةَ. ١٥فَلْنُقَدِّمْ بِهِ فِي كلّ حِينٍ للهِّ ذَبِيحَةَ التَّسْبِيحِ، أَيْ ثَمَرَ شِفَاهٍ مُعْتَرِفَةٍ باسمهِ" (عب ١٣: ١٤– ١٥)

والصلَّاة أيضًا هيَ سكيب للنفس أمام الله، في الصلَّاة آاتي وأُسكب نفسي في يدي الله، حالة من الاشتياق للدخول في شركة فيه، والإحساس بإنسداد كلّ الطرق وضعفها وطلبه وحده. أعتقد هذا ما كان يشعر به المُرنم حين قال:

"بِصَوْتِي إلى الرّبّ أَصْرُخُ. بِصَوْتِي إلى الرّبّ أَتَضَرَّعُ. ٢أَسْكُبُ أَمَامَهُ شَكْوَايَ. بِضِيقِي قُدَّامَهُ أُخْبِرُ. ٣عِنْدَ مَا أَعْيَتْ روحيّ فِيَّ.. مز ١٤٢: ١– ٣".

وما أختبرته أيضًا حنه أم صموئيل:

"إِنِّي امْرَأَةٌ حَزِينَةُ الرُّوحِ وَلَمْ أَشْرَبْ خَمْرًا وَلاَ مُسْكِرًا، بَلْ أَسْكُبُ نَفْسِي أمام الرَّبِّ.. ١صم ١: ١٥".

فنحن نأتي إلى الله مُحملين بأثقال كثيرة من خطايا وضيقات وتجارب يمر بها الأحبّاء وضعفات الجسد، وآاتي لأسكب ذاتي بكل ما أحمل أمام الله على مذبح الصلَّاة طالبًا أخذ القوة التي غلبت العالم والتي ترفعني بدورها فوق ضيق العالم، لا إلَّا أدخل في الضيق، بل أن أملك القوة الإلهيّة على تحمُّل الضيق بصبر وثقة ورجاء وإرادة على الخروج منه.

يسوع في تجسده جمع البشرية كلها في ذاته فأعطاها ما له: سُكني الروح، الكهنوت، الملوكية، وقبلهم جميعًا البنوة لله. فبالمسيح صرنا كهنة لله نقدم لا ذبائح حيوانية وقتية بالية، بل نقدم قلوبنا التي يريدها الله (أم ٢٣: ٢٦)، وذبائح الحمد والتسبيح (مز ٥٠: ٢٣، عب ١٣: ١٥)، ونسكب لا دماء تيوس وعجول، بل سكيب النفس أمامه –ككاهن العهد القديم– حاملين خطيتنا وخطايا الشعب امامه معلنين توجهنا نحوه تاركين عار الخطيه، وهو بدوره قد غفرها لنا من قبل في ذبيحة الابن الوحيد الذي حمل خطايانا ومات عوضًا عنا. ولهذا يقول ذهبي الفم:

"حين يقول "في السماوات" لا يقول ذلك وكأنه يغلق على الله هناك، بل ليرفع من يُصلّي من مستوى الأرض إلى فوق، ليثبته في الأعالي وفي المساكن الفوقانية. وحتى يعلمنا أكثر من ذلك، ليجعل صلاتنا عامة نيابة عن إخوتنا أيضًا. لأنه لم يقل: "أبي الذي في السماوات" بل "أبانا" رافعًا توسلاته نيابة عن الجميع، غير مهتم بطلباته هو فقط، بل بخير جاره في كلّ مكان"[٤٧٤].

فالله لا يبدأ أنّ يعطينا الغفران كهبة خارجة عنه لاجل اننا نتقدم له بالتوبة، بل الله قد غفر لنا خطايانا منذ الازل في دم الابن الوحيد (عب ٩: ١٤)، بل أنّ كلّ نص كتابي عن التوبة يتحدث على أسبقية غفران الله للخاطئ:

+ قَدْ مَحَوْتُ كَغَيْمٍ ذُنُوبَكَ وَكَسَحَابَةٍ خَطَايَاكَ. ارْجِعْ إِلَيَّ لأَنِّي فَدَيْتُكَ.. اش ٤٤: ٢٢

+ أَيْ أَنَّ اللهَ كَانَ فِي الْمَسِيحِ مُصَالِحًا الْعَالَمَ لِنَفْسِهِ، غَيْرَ حَاسِبٍ لَهُمْ خَطَايَاهُمْ، وَوَاضِعًا فِينَا كَلِمَةَ الْمُصَالَحَةِ.. ٢كو ٥: ١٩

+ وفي مثل الابن الضال يقول الكتاب: وَإِذْ كَانَ لَمْ يَزَلْ بَعِيدًا رَآهُ أَبُوهُ، فَتَحَنَّنَ وَرَكَضَ وَوَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَقَبَّلَهُ.. لو ١٥: ٢٠

وهكذا هنا نرى الله غافر الذنب مُقدمًا على حساب الابن الوحيد ومُعطينا الغفران كهبة مجانية لاجل مراحمه لا لاجل برنا، ونحن فقط بتوبتنا ندخل في بر الله ونقبل غفرانه، أو نظل مبتعدين عنه رافضين لمغفرته وتبقي خطيتنا معنا للهلاك.. فيقول القديس كبريانوس[٤٧٥]:

"فعلينا أنّ نسأل ونتضرَّع، نحن الذين تقدَّسنا في المعموديَّة، أنّ نُكَمِّل فيها ابتدأناه من حياة القداسة، ونحن نطلب من أجل هذا يوميًا، لأنَّنا في حاجة لتقديس يومي، حتّى نغتسل من خطايانا بالتقديس المستمر نحن الذين نخطئ يوميًا. والرسول يخبرنا بماهيَّة ذلك التقديس الذي نناله بلطف اللهَّ عندما يقول "لا زناة ولا عبدة أوثان ولا فاسقون ولا مأبونون ولا مضاجعو ذكور ولا سارقون ولا طمَّاعون ولا سكِّيرون ولا شتَّامون ولا خاطفون يرثون

[٤٧٤] صلاة ربنا يسوع المسيح على الجبل، ص ٨٥

[٤٧٥] الصلاة الربانية، ١٢

ملكوت اللهَّ وهكذا كان أناس منكم لكن اغتسلتم بل تقدَّستم بل تبرّرتم باسم الرّبّ يسوع وبروح إلهنا" (١كو٦: ٩-١١) فهو يقول إنّنا نُقدَّس باسم الرّبّ يسوع وبروح إلهنا. نحن نصلِّي أنّ يثبت هذا التقديس فينا، فإذ حذَّر الرّبّ الديَّان الرجل الذي شفاه وأقامه من مرضه إلَّا يخطئ أيضًا لئلاَّ يكون له أشرّ"[٤٧٦].

و يقول القديس مارإسحق:

"الصلَّاة هيَ أمر موضوع بين النفسانية والروحانية، كشيء متوسط ضابط للسيرتين ومحركًا إياهما. فبها يكمل عمل التوبة الذي هو ندم النفس والحزن، وبها أيضًا تتحرك النفس بحركات تفوق سائر الحركات الجسدانية والنفسانية، وهذا هو ما يسميه الآباء «التدبير الروحاني»، والدخول إليه يُعطى إنعامًا من الله وليس من حركة أو استعداد أو إرادة. فالذي يتهاون في الصلَّاة ويظن أنّ له بابًا آخر للتوبة هو مخدوع من الشياطين"[٤٧٧].

و يقول أيضًا:

"الذي يتهاون بالصلَّاة ويقول إنّ له بابًا آخر للتوبة فهو مسكن للشياطين. والذي لا يداوم قراءة الكتب فهو يسير في التيه؛ لأنه إذا أخطأ لا يحس"[٤٧٨].

يقول المطوّب أغسطينوس:

"إذ كان يحثّهم على الصلَّاة أنهى حديثه بقوله: "وأما هذا الجنس فلا يخرج إلَّا بالصلَّاة والصوم". أنّ كان يليق بالإنسان أنّ يُصلّي ليُخرج الشيطان من آخر، فكم بالأولى يليق به أنّ يُصلّي ليخرج منه طمعه وسكره وترفهه ونجاسته! كم من الأمور قاطنة في الإنسان لو بقيت فيه لا يُقبل في ملكوت السماوات"[٤٧٩]!

---

[٤٧٦] (يو ٥: ١٤) المقصود هنا هو مريض بركة بيت حسدا، الذي كان مفلوجًا منذ ثمانٍ وثلاثين عامًا فشفاه المسيح وأقامه من مرضه.

[٤٧٧] الميمر ٢: ١٥

[٤٧٨] الميمر ٢: ٤٢

[479] *Ser. on N. T. 30:3.*

ويقول القديس إغناطيوس الانطاكي:

"بالصلّاة من أجل الآخرين: صلّوا بلا انقطاع من أجل الآخرين فإنّه يُرجى فيهم التوبة ليبلغوا إلى الله"[٤٨٠].

هكذا بالصلّاة تلتصق النفس بالله، فتحمل نعمة لتقديس الجسد وخضوعه لعمل الله، فالصلّاة لازمة لحفظ الإنسان من الخطية. وفي خطاب أرسله المطوّب أغسطينوس مع بعض أصدقائه معالجًا هرطقة بيلاجيوس كتب:

"بالرغم من حرّيّة الإرادة التي تُستخدم في الامتناع عن الخطية، أي عدم ارتكاب خطية، إلّا إنّ قوتها ليست فعّالة ما لم تنل عونًا يسندها من ضعفها. لذلك فإنّ الصلّاة الربانية نفسها هيَ أكثر الشهادات وضوحًا عن النعمة (حيث نطلب: "لا تدخلنا في تجربة")"[٤٨١].

للصّلاة الفردية ميّزة ذات قيمة، هيَ أنها تسطيع أنّ تقاوم الخطيئة مقاومة فعّالة مثمرة. ذلك أنه كثيرًا ما يحصل أنّ الخاطئ الذي مازال غائصًا في حمأة الخطيئة يمارس الصّلوات الطقسية، متسترًا، بها محتميًا وراء جدار إحساسه بأن الصلّاة الطقسية ليست صلاته هو. وبالعكس فإنه من المؤكد أنّ الاعتياد على الخطيئة لا يمكن أنّ يأتلف زمنًا طويلًا مع ممارسة الصلّاة الفردية وخصوصًا إذا جرت في كلّ يوم. ذلك لأن الإنسان في هذه الحالة لا مفر أمامه من أحد أمرين. الأمر الأوّل أنّ الخاطئ الذي لا يريد أنّ ينفصل عن خطيئته يجد نفسه في حال مزعجة بتفرسه في كلّ يوم بوجه ربه محتكًا به احتكاكًا ذاتيًا تغلب عليه الدالة والألفة. ففي هذه الحالة يفضل الانفصال وقطع هذا الوصال فيترك الصلّاة الفردية ويهجرها لأن ممارستها تصبح عبئًا ثقيلًا عليه. والأمر الثاني هو أنّ الألم الكاوي الذي يرافق اتصال الخاطئ بقداسة الله المحرقة في الصلّاة الفردية يحمل هذا الخاطئ على الهرب من خطيئته والفرار بعيدًا عنها. وفي الحالين فإنّ الصلّاة الفردية تكون مهمتها التأثير تأثيرًا حادًا جدًّا فيقذف الخاطئ الخطيئة ويلفظها لفظ النواة وكذلك يختفي من الميدان واحد من الاثنين. وبالعكس فإنه من السهل على الخاطئ أنّ يشترك في صّلاة الجماعة لا بل أنّ يرافقها عمليًا في الكنيسة ذلك لأن النفس الخاطئة اعتادت أنّ تقف موقفًا غامضًا ذا أثر مخدَّر في

---

[480] *Ephes. 10:1.*
[481] *Letter 177:4.*

الظاهر وهو موقف واضح - غامض خطر. أمّا الصلاّة الفردية فإنها تأتي لتلقي على هذا الموقف الغامض نورًا وهاجًا بحيث لا تستطيع النفس الإفلات من أشعة الله الساطعة الكاشفة"[٤٨٢].

إن كان الله يعلم إحتياجتنا، فلماذا نُصلي؟

الصلاّة من الأصل ليست مجرد طلبات، فبحسب ق.ثيوفان: أنّ تعبد أو أنّ تصلي هو أنّ تقف أمام الله. يمكنك أنّ تلاحظ هنا اتساع التعريف الذي يعطيه القديس ثيوفان للعبادة. أنّ تصلي لا يعني بالضرورة أنّ تطلب شيئًا من الله، ولا حتّى أنّ تستعمل الكلمات في الصلاّة، لأنه كثيرًا ما يكون الانتظار البسيط لله في سكون هو أعمق جميع الصّلوات وأكثرها قوة. ولكن سواء كنا نعبد ونُصلّي بواسطة الكلمات، أو بواسطة أعمال رمزية وسرائرية، أو كنا نُصلّي في صمت، فإنّ موقفنا الأساسي هو هو نفسه: نحن واقفون أمام الله"[٤٨٣].

و يقول القديس إفراهاط:

"الآن أعرض لكم ظروف الصلاّة المختلفة: الطلبة والشكر والتسبيح.

في الطلبة يسأل الشخص الرحمة لأجل خطايانا، وفي الشكر تقدِّم الشكر لأبيك السماوي. وفي صّلاة التسبيح نسبِّح الله لأجل أعماله.

عندما تكون في الضيق قدِّم طلبة لله.

عندما يعطيك الله عطايا صالحة فلتشكر العاطي.

عندما يتهلَّل ذهنك قدِّم لله التسبيح.

لذلك قدِّم هذه الصّلوات بتمييز إلى الله. انظر إلى داود عندما كان يقول دائمًا: "في منتصف الليل أقوم لأحمدك على أحكام برك" (مز ١١٩: ٦٢). وفي مزمور آخر يقول داود: "هلِّلويا سبِّحوا الرّبّ من السماوات سبِّحوه في الأعالي" (مز ١٤٨: ١). وفي مزمور آخر: "أبارك

---

[٤٨٢] عن مقال الصلاّة الفردية للأب ليف جيليه.

[٤٨٣] العبادة الأرثوذكسيّة، الاب كاليستوس وير، ص ٧

الرّبّ في كلّ حين. دائمًا تسبحته في فمي" (مزمور ٣٤: ١)، لذلك لا تستعمل نوعًا واحدًا من الصلّاة، ولكن استخدم كلّ الأنواع في أوقات متفرِّقة"[٤٨٤].

فالصلَّاة ليست مجرد طلبات أو ماكينة صرافة أذهب عند الحاجة مُحملًا بطلب وفواتير تحتاج تسديدها فاستخدمها لدفع الفواتير فقط. هذا مفهوم مشوُّه عن معنى الصلّاة، الصلَّاة كما قلنا هيَ تعبير عن علاقة وشوق في صميم كيان الإنسان تجاه الأبديّة، هيَ لقاء مع وجه الله، هيَ الدخول في يسوع بالروح القدس متجهًا نحو عرش الآب، وهي سكيب لكل أحمال النفس أمام الله كشخص.

فوضع الصلَّاة في مُجرد طلبات هو نتاج قصور فهم عن معني الصلَّاة الحقيقيّ كلقاء وشركة مع الله ومع كلّ شخص.

أما أنّ كان السؤال لماذا أطلب في وقت الصلَّاة أنّ كان الله يعرف كلّ شئ؟

فهذا أمر صحيح، نعم الله يعرف كلّ شيء وانا لست في حاجة أنّ اطلب منه شيء في الصلّاة، ومع ذلك; فالطلب تعبير كياني عن إحتياج الإنسان لإمور مادية ونفسية وروحيّة، والله عالم بطبيعتنا وقادر أنّ يرثي لضعفاتنا ويستمع لإحتياجنا. وبالطلب أنا لست فقط أُخطر الله بما أُريد، بل أنا اتعهد امامه أنّ هذا ما أريد وإني أمتلك إرادة كاملة من عمق كياني أنّ افعل ما يجب فعله للحصول على هذا الطلب، وقت أنّ تُتاح لي الفرصة.

فالطلبة ليست مجرد كلمات بسيطه تُنطق بدون فهم، بل هيَ تعهد أمام الله أني أُريد أنّ يساعدني الله على تحقيق هذا الأمر واني سأبذل ما بوسعي لتحقيقه. فقد قال أحد الآباء: أنّ الله لا يُخلصنا رغمًا عنا ولا يُخلصنا بدوننا. نعم، فإلهنا ليس إله التواكل والقدرية.. بل إله الشركة الذي يريد قلب الإنسان ومحبته لا استعبادة وإمتهانه.

[484] *Demonstrations، 4:17 (On Prayer).*

يقول القديس باسيليوس:

"كثيرًا ما يسأل البعض لماذا نصلِّي؟ هل يجهل الله ما نحتاج إليه؟ أنه بلا شك يعرف ويعطينا بفيض كلّ الزمنيَّات حتّى قبل أنّ نسألها، لكن يجب علينا أولًا أنّ نطلب الصالحات وملكوت السماوات، عندئذ ننال ما نرغب لنسأل بإيمانٍ وصبرٍ، نسأل ما هو صالح لنا، ولا نعوق الصلَّاة بعصيان ضميرنا"[485].

ويقول المطوّب أغسطينوس: لقد نهانا ربَّنا عن كثرة الكلام، حتّى لا تُقدَّم له كلمات كثيرة كما لو كنَّا نعلمه بكلامنا. لذلك لا تحتاجون في الصلَّاة إلى الكلام بل إلى التقوى. "لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أنّ تسألوه" (مت ٦: ٨)، ولئلاَّ يشك أحد فيقول: أنّ كان الله يعلم ما نحتاج إليه، فما الداعي إلى الصلَّاة سواء كانت بكلمات كثيرة أو قليلة؟! نعم أنَّه يعلم كلّ ما نحتاج إليه، ولكنَّه يريدكم أنّ تصلُّوا حتّى يهبكم حسب اشتياقكم فلا تستخفُّوا بعطاياه، ناظرين إلى أنَّه قد وضع فينا هذه الصلَّاة لتكون أساسًا ونموذجًا لإشتياقاتنا، فلا نطلب شيئًا غير ما ورد فيها""[486].

و يقول القديس مارإسحق:

"لأننا هناك نقبل حقيقة كلّ شيء عن الله، ليس عن طبيعته بل عن ترتيب عظمته ومجده الإلهيّ وحبه لنا، حيث ترتفع كلّ الحُجُب والأنواع وكل أشكال السياسة والتدبير من أمام العقل، ويتبين لنا أنه ليس لأجل طلباتنا يعطي مواهبه، ولا إنعامه بكيلٍ ومقدار، بل إنما جعل طلبتنا واسطة وزِىّ كلامٍ يوصل العقل إلى الطياشة في أزليته ومعرفة اهتمامه بنا""[487].

فالشخص الذي يريد الاستفادة بأشعة الشمس والهواء، لابد أنّ يفتح النافذة. ومن الحماقة أنّ يجلس خلف الستائر المُسدلة ويقول: لا يوجد نور ولا توجد نسمة هواء! هذه الصورة تظهر لك بوضوح كيف تعمل الصلّاة. فإنّ قوة الله، أي نعمته، هيَ قريبة دومًا من كلّ إنسان وفى كلّ

---

[485] *Const. Mon. 1.*

[٤٨٦] الصلّاة الربانيه للمستعدين للعماد، ترجمة الاب تادرس يعقوب، ص ١٢

[٤٨٧] الميمر ١: ٤٦

مكان، ولكن لا يستطيع الإنسان أنّ يحصل على نصيبه منها بدون أنّ يرغب فيها ويسعى إليها[٤٨٨]. وبدون الصلّاة لا يمكنك أبدًا أنّ تجد ما تسعى إليه. فالصلّاة هيَ البداية وهيَ أساس كلّ مسعى نحو الله. والومضة الأولى للنور تبعثها الصلّاة، فالصلّاة تعطيك التلميحات الأولى لما أنت تسعى إليه، كما أنها توقظ الرغبة في التقدم وتدعمها[٤٨٩].

التألُّه

إنّ غاية الحياة المسيحيّة وفقًا للاهوت الأرثوذكسيّ هيَ التألُّه، أو التمسحُن، أي أن نصير مُسحاء على مثال المسيح،[٤٩٠] فالمسيح لم يكن مثلنا الأعلى والأسمى من الجانب الأخلاقي والأدبي فقط، بل هو الكمال المطلوب أن يكون عليه كلّ إنسان، الإنسان المتحد اتحاد حقيقي بالله، ليس فقط متعبدًا لله، أو مجاهدًا في سبيل اقتناء جائزة من العلي، بل أن نصير هيكلًا لله،[٤٩١] ويكون الله بذاته ساكنًا في داخلنا، مستريحًا فينا.[٤٩٢] فغاية الخلاص في المفهوم الأرثوذكسيّ له معنى إيجابيّ أهم بكثير من معناه السلبيّ، أي أن نتحد بالله، هذا هو مسعى كلّ اللاهوت والخلاص. يكفي أنّ نقتبس أقوال القديس أثناسيوس: "فهو أصبح إنسانًا حتّى يؤلّهنا في ذاته" (إلى أدلفيوس ٤)، "لقد تأنس حتّى نتألّه نحن" (تجسد الكلمة ٥٤). هكذا يلخّص القديس أثناسيوس فكرة القديس إيرينيؤس الشهيرة: "هو بمحبته العظيمة صار مثلنا حتّى يرفعنا إلى ما هو عليه".[٤٩٣]

---

[٤٨٨] طريق النساك، ص ٥٨

[٤٨٩] المرجع السابق، ٥٩

[٤٩٠] غلا٤: ١٩.

[٤٩١] يخبرنا إنجيل يوحنا عن جسد الرّبّ الذي هو مثال الهيكل (يو٢: ٢١)، ثمّ يخبرنا القديس بولس، أنّنا على مثال المسيح، أجسادنا هياكل لله (١كو٣: ١٦؛ ٦: ١٩؛ ٢كو٦: ١٦؛ أف٢: ٢١).

[٤٩٢] حز٣٧: ٥، ٦، ١٤؛ مت١٠: ٢٠؛ يو١٤: ١٧؛ رو٨: ٩- ١١؛ ١كو٣: ١٦؛ ١كو٦: ١٩؛ ٢كو١٣: ٥؛ ١يو٤: ٤.

[٤٩٣] تجسّد لنتألّه نحن، كلمات كثيرًا ما اجترّها وكرّرها آباء الكنيسة الواحد تلو الآخر، فنجد إيرينيئوس يذكرها (*Adversus Haereses 10, 5–9 (PG 37, 465)*)، ثمّ الرسوليّ أثناسيوس يكتبها (*De Incarnatione 54 (PG 25, 192B; Contra Arianos I.9, I.38, I.39, I.42 (PG 26, 29B, 92B, 92C, 93A, 100A)*)، ثمّ غريغوريوس النيسي في عظته اللاهوتيّة الأشهر (*Gregory of Nyssa, Oratio Catechetica Magna 25 (PG 45, 65D)*). ويعتقد العالم الآبائي برستيج أنّ الآباء كانوا يقصدون أنّ التجسُّد وضع إمكانيّة داخل طبيعتنا البشريّة، كما لو كان هُناك تحوُّلًا أنطولوجيًّا داخل الإنسانيّة ، وضع فيها إمكانيّة أن تتحد بالله اتحاد حقيقيّ (*G.L. Prestige, God in Patristic Thought (London: SPCK, 1969), p. 74*).

فالخلاص لا يعني غفران الخطايا فقط، بل يعني أيضًا – وبدرجة أكبر – التجديد وإعادة إصلاح صورة الله فينا، ورفع البشريّة الساقطة بواسطة السيد المسيح إلى حياة الله ذاتها. المسيح يغفر لنا ويحرّرنا من الخطيئة والموت حتّى يمكننا أن نتقدّم نحو تحقيق الإمكانية التي فينا، وهيَ أن نصير مثل الله في المسيح وأن نشترك في حياته. السيد المسيح جاء ليخلّصنا من الخطيئة لكي نشارك في حياة الله. وبكلمات أخرى، نحن خلصنا من نتاج الخطيئة لهدف التألّه.

التألُّه هو اشتراك في حياة الله من خلال الإيمان والصلاة والأسرار الكنسيّة. التألُّه هو الإمكانية الغنية التي وضعها الله في كلّ إنسان مُعمّد. التألُّه هو اسم مسيرة الخلاص التي تبدأ بالمعموديّة حيث نتحد بالمسيح ونتغيّر نحو شبهه. التألُّه هو تغيير وتجلي أسلوب حياتنا، من حيث إهتمامنا بالقريب والمشاركة المتبادلة والمحبّة، وتوظيف أنفسنا وأملاكنا والخيرات الأرضيّة لخدمة الله. يكتب الأب جورج فلورفسكي ما يلي:

"معنى التألُّه هو الشركة الحميميّة للبشر مع الله الحي لا أكثر. أن تكون مع الله معناه أن تسكن فيه وأن تشترك في كماله".

ويجب الإشارة إلى أنّ التأله كان نقطة ارتكاز للآباء في دفاعاتهم عن إلوهيّة الروح القدس، فالروح القدس إله لإنّه يؤلّهنا بسكناه فينا، هكذا يكتب القديس كيرلس السكندريّ:

"إن كان الروح يستطيع أنّ يُؤله وأنّ يهب المخلوقات رتبة أسمى من الخليقة فهو أسمى من حيث الطبيعة، والكرامة، فإذا كان يستطيع أنّ يؤله النفس، فكيف يمكن أنّ يكون مخلوقًا وليس إلهًا، طالما أنه يؤله؟

لأنه كما انه بسكنى الله داخلنا، نصبح شركاء الطبيعة الإلهيّة، وليس شركاء الطبيعة المخلوقة، هكذا فإذا سكن داخلنا مخلوق، فلن نكون بعد شركاء الطبيعة الإلهيّة، بل شركاء الطبيعة المخلوقة. إذًا فالروح هو إله، طالما أنّ الله يسكن فينا بالحقيقة من خلاله".[٤٩٤]

---

[٤٩٤] إلوهيّة الروح القدس. القديس كيرلس السكندري. ص ٨.

"بالحقيقة يقول المطوب يوحنا البشير: " وبهذا نعرف أنه يثبت فينا من الروح الذي أعطانا". والكامل في الحكمة بولس يقول: " أما تعلمون أنكم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم ". إذًا كيف يكون الروح مخلوقًا طالما صرنا بواسطته شركاء مع الآب والابن؟ لأنه لم يكن ممكنًا بواسطة مخلوق، أو واحد من الملائكة القديسين، أنّ نصير شركاء الطبيعة الإلهيّة. وهكذا فإن الله يوجد داخلنا عن طريق الروح الذي هو إله".[٤٩٥]

"ولأن الروح القدس هو الله.. لذلك نحسب نحن مستحقين أنّ نشترك في المسيح بواسطة الإيمان، **فإننا نصير شركاء الطبيعة الإلهيّة** ويُقال عنا أنّنا مولودين من الله، ولذلك نُدعى آلهة، ونحن نرتفع إلى المجد الذي فوق طبيعتنا ليس فقط بما نناله كنعمة، بل إذ لنا الآن الله نفسه أيضًا ساكنًا فينا ومقيمًا داخلنا، بحسب ما قيل بالنبي: "سأسكن فيهم وأسير بينهم" (٢كو٦:١٦، لا٢٦:١٢)"[٤٩٦].

"يقول المسيح أنّ الأصغر في ملكوت السموات أعظم من يوحنا نفسه، أي الُمعمّد حديثًا... والُمعمّد حديثًا أعظم (من يوحنا) في هذا فقط، أنّ المعمدان كان مولودًا من امرأة (من مواليد النساء)، بينما الُمعمّد حديثًا "مولود من الله" (بالروح القدس)، وقد أصبح شريكًا للطبيعة الإلهيّة (٢بط١:٤) إذ قد سكن فيه الروح القدس ويُدعى بالفعل هيكلًا لله"[٤٩٧].

النقطة الأساسيّة التي تجعل التألُّه عقيدة، هو أنّ تجسُّد المسيح أعطانا دالة لدى الروح القدس، بأن يعود ويسكن فينا بشخصه كما في القديم، أي أنّ سُكنى الروح القدس فينا هي سُكنى الأقنوم ذاته.[٤٩٨] يقارن القديس كيرلس في شرح يوحنا١:١٣ بين التبني الذي أُعطيّ لإسرائيل رمزيًا في القديم فيقول إنهم:

[٤٩٥] المرجع السابق ص ١٩.

[٤٩٦] شرح يوحنا١:١٣، الجزء الأول، ص ١٢٧،١٢٨.

[٤٩٧] شرح يوحنا٨:٣٧، الجزء الرابع، ص ١٠٢.

[٤٩٨] لسنا في حاجة أن نوضِّح بأنّ سُكنى الروح القدس فينا أقنوميًّا يختلف عن اتحاده الخاص جدًّا في المسيح يسوع.

"لم ينالوا البنوة بالحق، بل أخذوها رمزيًا، أما الذين يبلغون إلى البنوة لله بإيمانهم بالمسيح، فهؤلاء هم أبناء حقًا، فهم يعتمدون للثالوث القدوس غير المخلوق، وليس للمخلوق موسى، ووسيطهم هو الكلمة نفسه الذي اتحد بالجسد وهو في نفس الوقت متحد بالآب (من جهة إلوهيته). وهذا يجعلنا نرتفع من العبودية إلى البنوة، وباشتراكنا مع الذي هو "ابن" بالحقيقة، فإننا نُدعى ونرتفع إلى الامتياز الخاص بالابن بحسب طبيعته. لذلك فنحن الذين نلنا الولادة الجديدة بواسطة الروح بالإيمان (بالمسيح)، نُدعى أبناء ونكون (حقًا) مولودين من الله"[٤٩٩].

"حينما يحل ويسكن فينا كلمة الله بواسطة الروح نحن نرتقى إلى كرامة التبني، **لأننا حينئذٍ نقتني الابن نفسه،** الذي تغيرنا إلى شكله أيضًا بواسطة شركة روحه الخاص. وحينما نرتقي إلى **مستوى الدالة المكافئة لدالة الابن،** نجسر أنّ نقول يا أبّا الآب "[٥٠٠].

ويُكرّرها مرة أُخرى في تفسيره على إنجيل القديس يوحنا، إذ يكتب:

"لقد كان في الآباء استنارة غنية جدًّا بالروح القدس، جعلتهم قادرين على التنبؤ بالمستقبل ومعرفة المخفيات. ولكن في المؤمنين بالمسيح ليس فقط توجد الاستنارة بالروح القدس، بل هو الروح القدس بذاته – الذي نحن لا نخاف من أنّ نؤكد على أنه يسكن ويمكث فينا".[٥٠١]

ومن قبله نادى بذات التعليم القديس غريغوريوس النيزنزيّ قائلًا:

" أنّ الروح القدس لم يحل هُنا (يتكلم عن يوم الخمسين وحلول الروح القدس على التلاميذ حسب وعد الآب) كمجرد قوة كما كان فيما سبق، وإنما يُمكن أنّ يُقال إنه بجوهره صار يُشاركنا ويُعايشنا. فقد كان لائقًا بعد أنّ عاش الابن في وسطنا جسديًا، أنّ يظهر لنا الروح أيضًا في هيئة جسمية... وقد جاء في هيئة ألسنة بسبب اتصاله بالكلمة (اللوغوس)، وهذه الألسنة كانت نارية بسبب قدرته على التطهير... أو بسبب جوهره الناري، لأن "إلهنا نار

---

[٤٩٩] شرح يوحنا١:١٣، الجزء الأول، ص ١٢٦،١٢٧.

[500] *PG 75, 369B*.

[501] *Sur saint Jean، VII، 39، P.G. 73،737، A-B.*

آكلة" (عبرانيين ١٢: ٢٩)، تأكل التواني... والألسنة كانت "منقسمة" بسبب تنوع المواهب، وكانت "جالسة[٥٠٢] على كلّ واحد" (أعمال ٢: ٣)، إشارة إلى أنّ الروح يملك ويستريح في قديسيه (إشعياء ٥٧: ١٥)، وقد حدث ذلك في "عُلية" (أعمال ١: ١٣)، إشارة إلى العتيدين أن يقبلوه يجب عليهم أنّ يرتفعوا ويتساموا عن الأرضيّات، وهكذا يسوع أيضًا في عُلية قد منح شركة أسراره للذين تكمَّلوا بالخيرات الفائق".[٥٠٣]

فالروح القدس يسكن بنفسه وبشخصه أي بأقنومه في النفس، ويعمل فيها مباشرة بجوهره وليس كما يقول الروم الأرثوذكس من خلال وسيط أو قوة *ἐνέργεια* (إنيرجيا)، إنه يعمل بحضوره الشخصيّ البسيط أي بذاته، وحضوره هذا يكفي لتجديد النفس، وبعمله في النفس يطهر الجسد أيضًا ويقول القديس كيرلس الكبير:

"بسبب أنّ نفسنا يجب أنّ تغتني بحضور الله، فلا يكفي أنّ يكون الذي نناله "روحًا" غريبًا عن اللاهوت ومختلفًا عنه جوهريًا، إنه يجب أنّ يكون هو روحه الخاص".[٥٠٤]

---

[٥٠٢] مستقرة، والكلمة في اليونانيّ = *ἐκάθιεν* جلست للاستقرار.

[٥٠٣] عظة عن يوم الخمسين للقديس غريغوريوس النزينزي الناطق بالإلهيّات الثيولوغوس ٤١: ١١و١٢.

[504] *Dialogue VII sur la trinite، P.G 75، 1093 A.*

لمزيد من القراءة

- عظات القديس مقاريوس الكبير، ترجمة د نصحي عبد الشهيد.
- الروحانيّة الأرثوذكسيّة، د نصحي عبد الشهيد.
- طريق النُسَّاك، تيتو كوليادندر.
- لقاء يومي مع إلهي، القمص تادرس يعقوب ملطي.
- ميامر مار إسحق السريانيّ، دير السريان.
- ميامر مار إشعياء الإسقيطي، أبناء البابا كيرلس.
- التألُّه عند الآباء الشرقيّين، نورمان راسل.

الفصل التاسع:

الاسخاتولوجي

نتحدّث أخيرًا عن المجيء الثاني للرب، وهو شهوة قلب كلّ مؤمن، **نحن لا نزحف مذعورين من أمام وجه الرب، بل نحبّه**، والمحبّة تدفعنا نحو الاشتياق إليه، لذا نكرّر كلّ يوم في **قانون الإيمان**:

"وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي".

وفي **القُدّاس الإلهيّ**، نكرّر بصياغة أخر العبارات الواردة في (مر١٤: ٢٥؛ ١كو١١: ٢٦)، قائلين:

"لأنّ في كلّ مرة تأكلون من هذا الخبز وتشربون من هذه الكأس تبشرون بموتي وتعترفون بقيامتي وتذكرونني إلى أن أجيء".

وكأنّ المؤمنين بتناولهم من جسد الرّبّ ودمه تشتعل فيهم نار الاشتياق والرجاء والانتظار للمجيء الثاني للمسيح.

الاسخاتولوجي

كلمة يونانيّة تعني "ما سيأتي". وقد استخدِمت في العهد الجديد بمعنى **الأخير** (أولون يكونون آخرين. مت١٩: ٣٠)، وبمعنى **الدونية** (المتكأ الأخير. لو ١٤: ١٠؛ أخر الكلّ مر٩: ٣٥)، كما جاءت بمعنى جغرافيّ في حديث المسيح عن الذهاب إلى **أقصى** الأرض (أع١: ٨)، وتُترجم أيضًا بمعنى **الأيام الأخيرة** (يو٦: ٣٩؛ ١١: ٢٣؛ ١٢: ٤٨؛ ٢تي٣: ١؛ ٢بط٣: ٣).

لكن، في المفهوم الأرثوذكسيّ **لا نتحدث عن ماضي وحاضر ومستقبل** بعد مجيء المسيح، فملكوت الله حاضر منذ أن تجسد المسيح في العالم وجلب الأمور الأخيرة إلينا، فالعهد الجديد **يتحدث عن مجيء المسيح على أنّه اسخاتولوجي**، أو الذي حدث في أخر الأيام (عب١: ١، ٢؛ ١بط١: ١٨، ٢٠؛ ١كو١٠: ١١). بالرغم من أن أواخر الأيام أو يوم القيامة لم يأتي بعد، لكنّنا نحيا الآن في **الزمن الليتورجيّ**، هذا الذي يظهر في طقس القداس حين يتحرك الكاهن عكس عقارب الساعة إشارة إلى أننا الآن فوق الزمان.

فتجسُّد المسيح أحضر لنا الحياة الملكوتيّة هُنا والآن، فليس ملكوت الله بعد انتهاء الزمان، بل يجب تحقيقه أولًا هُنا على الأرض.

لذا نجد الكثير من الآباء في حديثهم عن دينونة الأبرار والأشرار في اليوم الأخير يتحدثون عن **تغيُّر أو تجلي ما بداخلنا**، حيث يُشبهه أنبا مقار بغليان يحدث داخلنا ويُستعلن أو يفيض في اليوم الأخير، من حقق الحياة الملكوتية على الأرض يتجلى فيه النور الإلهيّ، ومن سار بعيدًا عن الله يبقى في الظلمة الخارجية، أي خارج النور.

الاتضاع أمام السرّ

ونحن نتحدث عن التعليم الاسخاتولوجي يجب علينا **ألَّا نتأمل كثيرًا أو نجتهد كثيرًا لنفحص ما لم يحدث ولم يجسر حتّى كتبة الكتاب المُقدّس أن يشرحوه** بتفاصيل، لذا نجد السيد المسيح يقول في أكثر من موضع:

"ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي جعلها الآب في سلطانه" (مت٢٤: ٣٦؛ مر١٣: ٢٣؛ أع١: ٦، ٧).

ويكتب القديس إيرنيئوس:

"إنه أكثر أمانًا وأقل خطرًا أن ننتظر تحقيق النبوّة، من أن نُخمِّن أو نستنبط أو نستخرج".[٥٠٠]

بعض علامات المجيء الثاني

١- **انتشار بشارة** الإنجيل في المسكونة شهادة على الجميع (مت٢٤: ١٤).

٢- **ضعف الإيمان** وفتور الروح والمحبة:

- لكثرة الإثم تبرد محبّة الكثيرين (مت٢٤: ١٢).

---

[٥٠٠] Ad Her., V 30. 3.

- في الأيام الأخيرة ستأتي أزمنة صعبة، لأن الناس يكونون محبين لأنفسهم، محبين للمال، متعظمين، مستكبرين، مجدفين، غير طائعين لوالديهم، غير شاكرين، دنسين، بلا حنو، بلا رضى، ثالبين، عديمي النزاهة، شرسين، غير محبين للصلاح، خائنين، مُقتحمين، متصلفين، محبين للذات دون محبّة الله، لهم صورة التقوى ولكنهم منكرون قوتها (٢تي٣: ١ – ٥).
- متى جاء ابن الإنسان لعله يجد الإيمان على الأرض (لو١٨: ٨).

٣- **أحداث واضطرابات عنيفة:**

- مجاعات وزلازل (مت٢٤: ٧، ٨)
- كثوف الشمس والقمر بشكل دائم (مت٢٤: ٢٧- ٢٩).
- ثورات وحروب ومجاعات وأوبئة.
- تسليم المؤمنين للضيق واضطهادهم بشكل عنيف.

٤- **ضد المسيح،** والذي سنتحدث عنه ببعض التفصيل.

ضد المسيح

بنجد أولى أوصافه في حديث السيد المسيح وهو يشرح لتلاميذه علامات مجيئه:

"أنا قد أتيت باسم أبى ولستم تقبلونني إن أتى آخر باسم نفسه فذلك تقبلونه" (يو٥: ٤٣).

وفي حديث القديس بولس بالروح القدس يتكلم عن هذا الشخص المحدّد والمعين والذي يدعوه بإنسان الخطية الأثيم والمخادع وابن الهلاك والمقاوم والمرتفع على كلّ ما يدعى إله، يقول:

"ثم نسألكم أيها الاخوة من **جهة مجيء ربنا يسوع المسيح واجتماعنا إليه،** أن لا تتزعزعوا سريعا عن ذهنكم ولا ترتاعوا لا بروح ولا بكلمة ولا برسالة كأنها منا أي أن **يوم المسيح قد حضر.** لا يخدعنكم أحد على طريقة ما **لأنه لا يأتي أن لم يأت الارتداد أولا ويستعلن** إنسان **الخطية ابن الهلاك المقاوم والمرتفع على كلّ ما يدعى إلها أو معبودا حتى انه يجلس في هيكل الله كإله مظهرا نفسه انه اله.** أما تذكرون أني وأنا بعد عندكم كنت أقول لكم هذا. والآن تعلمون ما يحجز **حتى يستعلن في وقته، لان سرّ الإثم الآن يعمل** فقط إلي أن يرفع من الوسط الذي

يحجز الآن **وحينئذ سيستعلن الأثيم الذي الرّبّ يبيده بنفخة فمه ويبطله بظهور مجيئه، الذي مجيئه بعمل الشيطان بكل قوة وبآيات وعجائب كاذبة وبكل خديعة الإثم في الهالكين** لأنهم لم يقبلوا محبّة الحق حتى يخلصوا" (٢تس١: ٢-١٠).

والقديس يوحنّا الحبيب يوضّح لنا أهمّ علامة يُمكن أن نعرف ضد المسيح من خلالها:

"أيها الأولاد إنها الساعة الأخيرة. وكما سمعتم أن ضد المسيح يأتي **قد صار الآن أضداد للمسيح كثيرون**. من هنا نعلم إنها الساعة الأخيرة. منا خرجوا لكنهم لم يكونوا منا لأنهم لو كانوا منا لبقوا معنا... **من هو الكذاب إلا الذي ينكر أن يسوع هو المسيح. هذا هو ضد المسيح الذي ينكر الآب والابن**" (١يو١٨: ٢٢،٢).

"**وكل روح لا يعترف بيسوع** (المسيح انه جاء في الجسد) فليس من الله. وهذا هو روح ضد المسيح الذي سمعتم انه يأتي والآني هو في العالم " (١يو٤: ٣).

"ثم وقفت على رمل البحر فرأيت وحشا طالعا من البحر له سبعة رؤوس وعشرة قرون وعلى قرونه عشرة تيجان وعلى رؤوسه اسم تجديف. والوحش الذي رايته كان شبه نمر وقوائمه كقوائم دب وفمه كفم أسد وأعطاه التنين قدرته وعرشه وسلطانا عظيما. ورأيت واحدا من رؤوسه كأنه مذبوح للموت وجرحه المميت قد شفي وتعجبت كلّ الأرض وراء الوحش. وسجدوا للتنين الذي أعطى السلطان للوحش وسجدوا للوحش قائلين من هو مثل الوحش من يستطيع أن يحاربه، وأعطى فما يتكلم بعظائم وتجاديف وأعطى سلطانا أن يفعل اثنين وأربعين شهرا، ففتح فمه بالتجديف على الله ليجدف على اسمه وعلى مسكنه وعلى الساكنين في السماء. وأعطي أن يصنع حربا مع القديسين ويغلبهم وأعطى سلطانا على كلّ قبيلة ولسان وأمة، فسيسجد له جميع الساكنين على الأرض الذين ليست أسماؤهم مكتوبة منذ تأسيس العالم في سفر حياة الخروف الذي ذبح...". (رؤ١٣: ١- ١٦)

أما سفر دانيال (ص ٧) فيصف ضد المسيح الخارج من فروع الإمبراطورية الرومانية العشرة بقوله:

"بعد هذا كنت أرى في رؤى الليل وإذا بحيوان رابع هائل وقوي وشديد جدًّا وله أسنان من حديد كبيرة أكل وسحق وداس الباقي برجليه وكان مخالفا لكل الحيوانات الذين قبله وله عشرة قرون. كنت متأملا بالقرون وإذا بقرن آخر صغير طلع بينها وقلعت ثلاثة من القرون الأولى من قدامه **وإذا بعيون كعيون الإنسان في هذا القرن وفم متكلم بعظائم**... كنت انظر حينئذ من اجل صوت **الكلمات العظيمة التي تكلم بها القرن كنت** أرى إلي أن قتل الحيوان وهلك جسمه ودفع لوقيد النار... **هذا القرن له عيون وفم متكلم بعظائم ومنظره اشد من رفقائه. وكنت انظر وإذا هذا القرن يحارب القديسين فغلبهم، حتى جاء القديم الأيام وأعطى الدين لقديسي العلي** وبلغ الوقت فامتلك القديسون المملكة... **ويتكلم بكلام ضد العلي ويبلي قديسي العلي ويظن انه يغير الأوقات والسنة ويسلمون ليده إلي زمان وأزمنة ونصف زمان.** فيجلس الدين وينزعون عنه سلطانه ليفنوا ويبيدوا إلي المنتهى" (دا٨: ٧-٢١،١١-٢٥).

ويصف سفر دانيال (ص ٨) ما فعلة الملك السوري أنتيوخس ابيفانس (١٧٥ - ١٦٤ ق م) القرن الصغير (حرفيا قرن من الصغر) الخارج من أحد أفرع الإمبراطورية اليونانية الأربعة والذي دنس الهيكل ووضع فيه رجسة الخراب وأبطل المحرقة الدائمة مدة ثلاث سنين ونصف، وأقام العبادة الوثنية ووضع تمثال للوثن جوبيتر في قدس الأقداس ومنعهم من حفظ السبت والاحتفال بأعيادهم مدة ثلاث سنين ونصف وقتل منهم الآلاف وسبى الآلاف وصار نموذجا مصغرا لضد المسيح، ووصفه علماء الكتاب المُقدّس بضد المسيح العهد القديم:

"وتعظم حتى إلي جند السماوات وطرح بعضا من الجند والنجوم إلي الأرض وداسهم. وحتى إلي رئيس الجند تعظم وبه أبطلت المحرقة الدائمة وهدم مسكن مُقدّسه، وجعل جند على المحرقة الدائمة بالمعصية فطرح الحق على الأرض وفعل ونجح... وفي أخر مملكتهم عند تمام المعاصي يقوم ملك جافي الوجه وفاهم الحيل، وتعظم قوته ولكن ليس بقوته يهلك عجبا وينجح ويفعل ويبيد العظماء وشعب القديسين. وبحذاقته ينجح أيضا المكر في يده ويتعظم

بقلبه وفي الاطمئنان يهلك كثيرين ويقوم على رئيس الرؤساء وبلا يد ينكسر" (دا١٠: ٨-١٢،٢٣-٢٥).

ويعود دانيال النبي للحديث ثانية عن ضد المسيح الآتي في آخر الأيام ويذكر نفس الصفات التي ذكرها عنه القديس بولس فيقول:

"ويفعل الملك كإرادته ويرتفع ويتعظم على كلّ اله ويتكلم بأمور عجيبة على اله الآلهة وينجح إلي إتمام الغضب لان المقضي به يجرى. ولا يبالي بآلهة آبائه ولا بشهوة النساء وبكل اله لا يبالي لأنه يتعظم على الكل" (دا١١: ٣٦، ٣٧).

صفات ضد المسيح

ويُمكننا إجمال صفات ضد المسيح كما يلي:

(١) **يخرج القرن من أحد ممالك الإمبراطورية الرومانية العشرة**، ويمثل الوحش الإمبراطورية الرومانية ذاتها (د ٧١: ٨،٢٤؛ رؤ ١٣: ٢).

(٢) **سيحكم مدة رمزيّة عبارة عن ثلاث سنوات ونصف**، مذكورة في سفر دانيال بـ"زمان وزمانين ونصف"، وفي رؤيا بـ"اثنين والأربعين شهرا"، (دا٧: ٢٥؛ ٨: ١٤؛ رؤ ١٣: ٥).

(٣) **سيغلب القديسين** ويذلهم لفترة (دا ٧: ٢١؛ رؤ ١٣: ١٠).

(٤) **سيبلي قديسي العلي** (دا ٧: ١٥؛ رؤ ١٢: ١٣؛١٣: ١٢).

(٥) **سيجدف على الله** العلي ويتكلم بكلام ضده (دا ٧: ٢٥؛ ٨: ٢٥؛ رؤ ١٣: ٥؛ ٢ تس ٢: ٤)٠

(٦) **سيهزم ويباد في المجيء الثاني** للسيد المسيح (دا ٧: ١١؛ رؤ١٩: ٢٠).

(٧) **غزا كثيرا** (دا ٨: ٩؛ رؤ ١٣: ٤).

(٨) سوف **يمجد ذاته** (دا ٨: ١١؛ ٢ تس ٢: ٤ رؤ ١٣: ٥).

(٩) سيكون **سيدا للخديعة** (دا ٧: ٢٥؛ ٢ تس ٢: ١٠).

(١٠) **سيدنس الهيكل** (دا ٨: ١١؛ متي ٢٤: ١٥).

(١١) سيقدم **برنامج سلام** كاذب (دا ٨: ٢٥؛ ١تس ٥: ٢،٣).

(١٢) **سيأخذ قوته من الشيطان** (دا ٨: ٢٤؛ رؤ ١٣: ٢).

(١٣) **سيدمره الله تماما** (دا ٨: ٢٥؛ ٢تس ٢: ٧؛ رؤ: ١٩: ١٩، ٢٠).

(١٤) **سيكره أولاد الله** (دا ٨: ٢٥؛ رؤ ١٢: ١٣).

جميع هذه الصفات قد انطبقت على الكثيرين، لذا، فإنّ أغلب الظن أنّ القديس يوحنا لم يكن يتحدث عن شخص واحد ضد المسيح، بل أشخاص عديدون، كما فسّر ذلك هو نفسه في رسالته الثانية:

"**لأنه قد دخل إلى العالم مضلون كثيرون** لا يعترفون بيسوع المسيح آتيا في الجسد. هذا المضل والضد للمسيح" (٢يو٧: ١).

وقد بنى هنا على تعليم الرّبّ نفسه لما قال:

"فإنّ **كثيرين** سيأتون باسمي قائلين أنا هو المسيح ويضلون كثيرين" (مت٥: ٢٤؛مر٦: ١٣؛ لو٨: ٢١).

"لأنه سيقوم **مسحاء كذبه وأنبياء كذبه** ويعطون آيات كثيرة وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضا" (مت٢٤: ٢٤؛مر ٢٢: ١٣).

والقديس يوحنّا هُنا لم يكن يختلق شيئًا جديدًا، بل كانت **كلّ تعاليم الكنيسة الأولى تُعطى في سرّيّة بالغة،** حتّى ما يختص بالإفخارستيّا، ومن أروع ما وصلنا عن استخدام لغة الرموز والإشارات السرية للتعبير عن سرّ الإفخارستيا، **النقوش التي وُجدت باسم كاتبها "أبيركيوس *Abercius*"،** وهو أسقف لمدينة "هيرابوليس" في نهاية القرن الثاني الميلادي. ومن أعجب الصدف أن وُجدت كتابة أخرى مذكور تاريخها سنة ٢١٦م لصاحبها إسكندر من "هيرابوليس" ذَكَرَ فيها «أبيركيوس» والنقش الذي تركه باسمه. لذلك فإن تاريخ نقوش أبيركيوس صارت معتمدة للغاية.

هذه النقوش وُجدت في إقليم "فريجيا" بآسيا الصغرى، وهي الآن في "اللاتران" بالفاتيكان، وهي من ٢٢ بيتًا يصف فيها أبيركيوس حياته وأعماله، وقد **كتبها وعمره ٧٢ سنة** وتوفيَّ قبل نهاية القرن الثاني. وأعظم ما سجله هو رحلته إلى روما، والكلام كلّه رموز، والأسلوب سرِّي تصوفي *Mystical* للغاية. فهو يكتب كل شيء عن أسرار الحياة المسيحية **بشرط أن أي قارىء مهما بلغ من الحذق لا يمكنه أن يفهم أن كاتبها رجل مسيحي،** وحتى العلماء شكُّوا في بادىء الأمر، ولكن حينما كُشف السرّ عن الكلمات

ظهرت واضحة وهي تعبِّر عمَّا كانت عليه الكنيسة من حذر وحذق شديدين في إخفاء حياتها وأسرارها. وننقل هنا بعض سطورها:

"بالاسم أنا أبيركيوس، تلميذ للراعي الصالح! ... لقد علَّمني التقوى بكتاباته! ... أرسلني إلى روما لأطَّلع على المملكة وأرى الملكة بلباسها الموشَّى بالذهب، ... ذهبت في كل النواحي، ورأيت الشعب الذي عليه الختم العظيم، وكان بولس معي رفيقًا يقودني بالإيمان أينما سرت، ووُضع أمامي طعامٌ «سمكة» من الينبوع، عظيمة، وطاهرة، كانت قد اصطادتها عذراء بلا دنس وأعطتها للأصدقاء ليأكلوا منها على الدوام!! مع خمر حلو، وكأس ممزوج، مع خبز. أنا أبيركيوس الواقف الآن أمرت أن تُنقش هذه الكلمات، وفي الحق أنا في طريقي لأكمِّل اثنين وسبعين سنة. فمَن يفهم هذا ويؤمن بالذي كتبت، عليه أن يصلِّي من أجل أبيركيوس!!"[٥٠٦]

ويُعتبر هذا الحجر الذي حمل هذه النقوش أقدم أثر في العالم يتحدَّث عن الإفخارستيا هكذا:

الراعي الصالح هو **المسيح**، الملكة الموشاة بالذهب هيَ **الكنيسة**، الشعب ذو الختم العظيم هم **المؤمنون** المعمَّدون. وأينما سار وجد كنيسة وتناول فيها من الأسرّار من الخبز والكأس الممزوج، **فالسمكة** هيَ المسيح (إخثوس *Ιχθυσ*)،[٥٠٧] والعذراء الطاهرة التي اصطادتها هيَ **العذراء** التي حبلت بالكلمة، أمَّا بولس رفيق السفر فهو **الرسائل** التي كان يتعزَّى بها.

وهيبوليتس يقول صراحةً في كتابه "التقليد الرسوليّ" (سنة ٢١٥م) في الفصل ٢٣ عن المعمودية والإفخارستيا بهذا القول القاطع:

"إنّه لن يبوح بهذا الكلام إلاَّ للمؤمنين".[٥٠٨]

---

[506] *J. Quasten, I, p. 172.*

[٥٠٧] كلمة يونانية تعني سمكة وحروفها هيَ في الوقت نفسه تكوِّن الحروف اليونانية الأُولى من مجموعة كلمات تعني: يسوع المسيح ابن الله المخلِّص.

[508] *Hippolytus, Ap. Tr., 23. 14.*

تفسير الرقم ٦٦٦

أما في سفر الرؤيا فقد أخذ الوحش، الذي هو أداة الشيطان وعميله وضد المسيح، أسوأ ما في صفات الإمبراطوريات السابقة للإمبراطورية الرومانية؛ شراسة النمر ولونه وافتراسه، وفم الدب وشراهته وميله لسفك الدماء، وقوة وتصلب الأسد وتكبره. ومع ذلك فله كلّ ضعف الإنسان حيث أن رقمه هو **"٦٦٦"**، يقول القديس يوحنا وهو في الروح:

"ويجعل الجميع الصغار والكبار والأغنياء والفقراء والأحرار والعبيد تصنع لهم سمة على يدهم اليمنى أو على جبهتهم وأن لا يقدر أحد أن يشتري أو يبيع ألا من له السمة أو اسم الوحش أو عدّد اسمه. هنا الحكمة من له فهم فليحسب عدّد الوحش فانه عدّد إنسان وعدّده ست مئة وستة وستون" (رؤ ١٣: ١٧-١٨).

وقد درس العلماء رقم "٦٦٦"، **عدّد الوحش** الذي يقول الروح القدس إنه **"عدّد إنسان"** على أساسين:

الأوّل: هو **حساب القيمة العدّدية لكل حرف في أي اسم**، لأن اللغات العبرية واليونانية والرومانية ليس بها أرقام وإنما تستخدم حروف تمثل هذه الأرقام حيث يمثل حرف *A* في اليونانية والرومانية رقم (١) وحرف *B* رقم (٢) وهكذا، وعلى سبيل المثال: تكوّن حروف كلمة *Nero* في اللاتينية واليونانية (٦٦٦)، ومن ثمّ فقد قيل أن المقصود بالوحش هو الإمبراطور الروماني "نيرون"، خاصة أن كلمة *Neron Caesar* في العبرية هيَ *Qsrnron* نيرون قيصر ويكوّن أجمالي عدّد حروفها:

(١٠٠+٦٠+٢٠٠+٥٠+٢٠٠+٦+٥٠=٦٦٦).

ولكن هذا العدّد ينطبق على أسماء كثيرة مثل نابليون وكروmويل ومارتن لوثر وبعض باباوات الفاتيكان!!

الأساس الثاني: **هو دراسة العدّد (٦٦٦) من جهة المعنى الرمزي لكل رقم** حيث يمثل رقم (٦) الإنسان في نقصه، كما يقول الروح "**فإنه عدّد إنسان**"، كما يمثل الديانة الزائفة بالمقابلة مع رقم (٧) الذي يمثل الكمال، وتكرار رقم (٦)؛ (٦٦٦)، يعني النقص الإنساني المركب للوحش، المسيح الكذاب، ضد

المسيح، وضعفه وعجزه بالمقابلة مع كمال المسيح المطلق الذي كان مجربًا "في كلّ شيء مثلنا بلا خطية" (عب٤: ١٥)، وسلطانه المطلق على الكون وقدرته على كلّ شيء.

المُلك الألفي

"وَرَأَيْتُ مَلاَكًا نَازِلًا مِنَ السَّمَاءِ مَعَهُ مِفْتَاحُ الْهَاوِيَةِ، وَسِلْسِلَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَى يَدِهِ. فَقَبَضَ عَلَى التِّنِّينِ، الْحَيَّةِ الْقَدِيمَةِ، الَّذِي هُوَ إِبْلِيسُ وَالشَّيْطَانُ، وَقَيَّدَهُ أَلْفَ سَنَةٍ،وَطَرَحَهُ فِي الْهَاوِيَةِ وَأَغْلَقَ عَلَيْهِ، وَخَتَمَ عَلَيْهِ لِكَيْ لاَ يُضِلَّ الأُمَمَ فِي مَا بَعْدُ حَتَّى تَتِمَّ الأَلْفُ السَّنَةِ. وَبَعْدَ ذلِكَ لاَبُدَّ أَنْ يُحَلَّ زَمَانًا يَسِيرًا. وَرَأَيْتُ عُرُوشًا فَجَلَسُوا عَلَيْهَا، وَأُعْطُوا حُكْمًا. وَرَأَيْتُ نُفُوسَ الَّذِينَ قُتِلُوا مِنْ أَجْلِ شَهَادَةِ يَسُوعَ وَمِنْ أَجْلِ كَلِمَةِ اللهِ. وَالَّذِينَ لَمْ يَسْجُدُوا لِلْوَحْشِ وَلاَ لِصُورَتِهِ، وَلَمْ يَقْبَلُوا السِّمَةَ عَلَى جِبَاهِهِمْ وَعَلَى أَيْدِيهِمْ، فَعَاشُوا وَمَلَكُوا مَعَ الْمَسِيحِ أَلْفَ سَنَةٍ. وَأَمَّا بَقِيَّةُ الأموات فَلَمْ تَعِشْ حَتَّى تَتِمَّ الأَلْفُ السَّنَةِ. هذِهِ هِيَ الْقِيَامَةُ الأُولَى. مُبَارَكٌ وَمُقدّس مَنْ لَهُ نَصِيبٌ فِي الْقِيَامَةِ الأُولَى. هؤُلاَءِ لَيْسَ لِلْمَوْتِ الثَّانِي سُلْطَانٌ عَلَيْهِمْ، بَلْ سَيَكُونُونَ كَهَنَةً للهِ وَالْمَسِيحِ، وَسَيَمْلِكُونَ مَعَهُ أَلْفَ سَنَةٍ. ثمّ مَتَى تَمَّتِ الأَلْفُ السَّنَةِ يُحَلُّ الشَّيْطَانُ مِنْ سِجْنِهِ، وَيَخْرُجُ لِيُضِلَّ الأُمَمَ الَّذِينَ فِي أَرْبَعِ زَوَايَا الأَرْضِ".

(رؤ٢١)

المُلك الألفي في كتب الأبوكريفا

ورد الحديث عن المُلك الألفي بالأساس في كتابات تُعرف باسم أبوكريفا العهد القديم، وهي مجموعة كتابات كُتِبت ما قبل مجيء المسيح بحواليّ ٤٠٠ سنة وحتّى القرن الأوّل، وهي الفترة التي كُتِبت فيها الأسفار القانونيّة الثانية أيضًا، ومن هذه الأسفار الأبوكريفية التي تحدث عن المُلك الألفي: إسدارس، باروخ، أخنوخ الأوّل.

ويتحدث كتاب **رؤيا اسدراس** (عزدراس ٢٦: ٧ – ٢٨) عن الملكوت، الذي يرى **أنه سيمتد ٤٠٠ سنة** في العالم كالآتي:

"سيأتي الوقت عندما تُرى العلامات التي أنبأت بها، وستظهر المدينة المخفية الآن (أورشليم السمائية)، والمختومة ستكون مرئية، وسيرى كلّ الذين خلصوا من الشرور (أي الذين تمّ جمعهم من الشتات) أعمالي العجيبة التي سبق أن أنبأت بها، **وسيظهر ابني المسيا مع رفقائه، ويجلب ٤٠٠ سنة من السلام لكل الأحياء...**".

ويقول كتاب **رؤيا باروخ** المترجم عن السريانية والذي يرجع لما بين سنة ١٠٠ إلى سنة ٥٠ ق. م:

"بعد العلامات التي ظهرت والتي أخبرتك بها عندما تثور الأمم وتتآمر الشعوب **ويأتي زمن المسيا**، يدعو كلّ قبائل الأرض ويعفو عن بعضهم ويقدم البعض للذبح. فكل أمة لم تعرف إسرائيل ولم تطأ قدامها نسل يعقوب يعفي عنها، **ولابد،لكي تكون هناك فرصة للبعض من كلّ أمة أن يدينوا لإسرائيل.** أما أولئك الذين سادوا علي إسرائيل وعرفوه، سيدينون جميعهم للسيف. ويحدث انه، إذ **يخضع (المسيا) كلّ ما في العالم، ويجلس علي عرش ملكه في سلام إلى الأبد، يحدث أن الفرح يبدو والراحة تظهر. وينزل الشفاء كالندى، وتختفي الأمراض، ولا يكون هناك قلق ولا تعب ولا مراثي من إنسان، وتنتشر السعادة في كلّ الأرض. ولن يموت إنسان قبل وقته... وتأتي وحوش البرية من الأحراش وتخدم الناس. ويلعب الرضيع علي سرب الصل ويمد الفطيم يده علي جحر الأفعوان فتخرج الأفاعي من جحورها وتقدم له كلّ ولاء وخضوع تام. وتزول أتعاب الحبل عن النساء وتنقطع آلام الولادة عندهن وتتبارك ثمرة البطن. ويكون في تلك الأيام، أن الحاصدين لا يعيون وأن البناءين لا يكلّون ولا يشقون. إذ أنّ الأعمال، من ذاتها، تتمّ بسرعة ونجاح. والقائمون بها يعملون في قسط وافر من الهدوء والارتياح. ويتمتع الناس بأعمار مديدة، وحياة سديدة، خالية من كلّ مرض وشقاء ومن كلّ تعب وعناء ومن شر الحروب والأوبئة.**

وما أبهى تلك الوليمة الفاخرة التي يتصورونها عندما يكمل كلّ شيء في تلك الفصول، حيث يبدأ استعلان المسيا. ويخرج بهيموث من مكانه ويصعد لوياثان من البحر. هذان الوحشان الهائلان اللذان خلقا في اليوم الخامس وأبقيا إلى تلك الساعة. ليكونا طعامًا لكل من بقي في ذلك الزمان. والأرض أيضا تخرج ثمرها آلافا مضاعفة وسيكون على كلّ كرمة ألف غصن. وفي كلّ غصن ألف عنقود. وفي كلّ عنقود ألف عنبة. وكلّ عنبة تنتج ألف كر من الخمر فيفرح الجياع بل يرون عجائب كلّ يوم. فإن الرياح ستخرج من قبل الله في كلّ صباح محملة بالأثمار ذات الروائح العطرية الذكية. وفي آخر النهار تمتلئ السحب بقطرات الندي البلورية الصحية. وفي ذات الوقت يحدث أن خزائن المن تنزل من السماء فيأكل منها في تلك السنين أولئك الذين انتهى إليهم ملء الزمان. وإذ تصير هذه كلها ويكمل زمن مجيء المسيا، يحدث انه يعود في مجد". [٥٠٩]

كما جاء في كتاب **أخنوخ الأوّل** الذي كتب فيما بين سنة ١٥٠ وسنة ١٠٠ ق. م:

"ويزرعون بفرح إلى الأبد وحينئذ **ينجو الأبرار ويعيشون حتى يلدوا آلافا من الأولاد ويكملون كلّ أيام شبابهم وسبوتهم في سلام.** حينئذ تفلح الأرض بالبر. وتغرس كلها بالأشجار وتمتلئ بالبركة. وتغرس بها كلّ شجرة شهية. ويغرسون فيها كروما. والكرمة التي يغرسونها فيها تنتج عصيرا فائضا. **وكلّ مكيال من البذور التي تزرع فيها يحمل ألفا. وكلّ مكيال من الزيتون ينتج عشر معاصر من الزيت. وتطهر الأرض من كلّ خطأ ومن كلّ أثم ومن كلّ دنس ومن كلّ ما جاء ليغير طهارة الأرض، أزلهم من الأرض. وكلّ أبناء البشر سيكونون أبرار، وكلّ الأمم تخدمني وتباركني، والكل يعبدني.."**. [٥١٠]

---

[509] *The Syriac Apocalypse of Paruch-The Apocryphal OT. P884,5*
[510] *1Enoch , Apoc. P.196,197.*

تفسير بعض الآباء الخاطيء عن المُلك الألفي

بعض آباء ما قبل نيقية ساروا خلف التفسير الحرفيّ لسفر الرؤية عن المُلك الألفي، ومنهم: بابياس، يوستينوس، إيرينئوس.

بابياس [٦٠- ١٣٠م] أسقف هيرابوليس بآسيا الصغرى، الذي استفاض في التصويرات الماديّة بصورة تكشف عن خطورة المجاراة للتقاليد اليهودية. فقد قال:

"ستأتي أيام فيها تنمو كروم العنب، وكلّ كرم يحمل عشرة آلاف فرع، وكلّ فرع يحمل عشرة آلاف غصن، وكلّ غصن يحوى عشرة آلاف عنقود، وكلّ عنقود يحمل عشرة آلاف حبة عنب، وكلّ حبة عنب حينما تعصر تملأ خمسة وعشرون مكيالًا من الخمر". [٥١١]

كما يقرّر المؤرخ الأسقف **"يوسابيوس القيصري"** أبو التاريخ الكنسيّ الذي عاب على بابياس بساطته وقصوره الفكري، بقوله:

"ويبدو أنه كان محدود الإدراك جدًّا كما يتبين من أبحاثه، ومن ضمن أقواله أنه ستكون فترة ألف سنة بعد قيامة الأموات، وأن ملكوت المسيح سوف يؤسّس على نفس هذه الأرض بكيفية مادية. وأظن أن بابياس وصل إلى هذه الآراء بسبب قصور فهمه للكتابات الرسوليّة، غير مدرك أن أقوالهم كانت مجازية روحية. وإليه يرجع السبب في أن كثيرين من آباء الكنيسة من بعده اعتنقوا نفس الآراء مستندين في ذلك على أقدمية الزمن الذي عاش فيه، مثل: "إيرينئوس" وغيره ممن نادوا بمثل آرائه التي هيَ محض افتراء". [٥١٢]

511 *Iren. V. 33-35.*

٥١٢ تاريخ الكنيسة، يوسابيوس، ٣: ٣٩.

يوستينوس الشهيد [١٠٠- ١٦٥] في كتابه الحوار مع أحد فلاسفة اليهود المدعو "تريفو" عدل ما تقبله عن باباس في هذا الإتجاه ليتناسب مع روحانياته، فقال:

"إن الرّبّ يسوع سيعود إلى أورشليم ويعيش مع تلاميذه "يأكل ويشرب"، وأن المسيحيّين سيجتمعون هناك ويعيشون مع المسيح والأنبياء والبطاركة في سعادة كاملة ألف سنة".[513]

ويحاول يوستين أن يستشهد بإشعياء ٦٥:١٧ـ٢٥، وبسفر الرؤيا ٢٠:٤ـ٦، وميخا ٤:١ـ٧؛ وذلك لشدة انطباقها على نفس هذه التعاليم لو أُخذت كما هيَ بأوصافها المادية. وهذا ما سوف نعود إلى تفنيده في فصل آخر.

ولكنه يعود ويقرّر بنفسه أن هذا التعليم لايُعتبر جزءًا جوهريًا من الإيمان المسيحيّ، ويعترف **أن كثيرين من المسيحيّين المعتبرين لا يأخذون بهذا التعليم ولايقرونه.**

ويأتي **إيرينيئوس** [١٣٠- ٢٠٠] وينادي بنفس التعليم مستشهدًا بأقوال باباس وبنفس تصوراته. وهو الذي **ربط الملك الألفيّ بفكرة السبعة آلاف السنة عمر العالم، حيث جعل الألف السابعة والأخيرة للعالم هيَ ملكوت المسيح** الأرضيّ مع الأبرار.[514]

وتبعه في هذا الربط بين الفكرتين كلّ من "**كومودیانوس**" في منتصف القرن الثالث الميلاديّ،[515] وتبعه " **فيكتورينوس**" في أواخر القرن الثالث الذي كتب أقدم تفسير لسفر الرؤيا،[516] ومعاصره "**لاكتنانيوس**".[517] وهؤلاء جميعًا كانوا يقولون بإن الملك الألفي يبدأ بعد مجئ السيد المسيح، أي أنهم كانوا جميعًا من "سابقي الألف السنة".

ومن الآباء المعروفين أيضًا الذين قبلوا التفسير الحرفي للملك الألفيّ **ميلتو أسقف ساردس** [تنيح نحو ١٩٠م]، **وهيبوليتس الرمانيّ** [يُدعى بالقبطيّة أبوليدوس ١٧٠- ٢٣٦م].

[513] *Justin, Dial. con. Tryph. 5.*

[514] انظر ضد الهرطقات ٥: ٣٣- ٣٥.

[515] *Instr., II, 35, 8ff.*

[516] *PL. 5, 303.*

[517] *Inst. VII, 24.*

تفسير الآباء ضد المُلك الألفي

وأوّل من انتبه إلى هذه التعاليم ومنافاتها لروحانية الإيمان المسيحيّ وحقيقة الملكوت الإلهيّ والحياة الأبدية هم **علماء مدرسة الإسكندريّة** فكتب **أوريجانوس** كتاب المبادئ ضد التفسير الحرفي لسفر الرؤيا مقدمًا تفسيرًا رمزيًا للأصحاحين العشرين والحادي والعشرين.[٥١٨]

وجاء بعده البابا "**ديونيسيوس**" السكندريّ [٢٤٨- ٢٦٥م] أحد تلاميذ مدرسة الإسكندريّة الذي أصدر كتاب "**المواعيد الإلهية**" لدحض فكرة الملك الألفي الحرفي التي ذاعت **بين مسيحيّي الفيوم على أيدي الأسقف "نيبوس"** واستطاع أن يقنعهم بالعدول عن اعتقادهم بالملك الألفي وانتشل الفكر المسيحيّ في مصر من هذه البدعة التي كادت تُفقد المسيحيّين الأقباط بساطة الإيمان الروحي ونقاء التعلُّق بالحياة الأبدية في ملكوت إلهيّ يتناسب مع الإيمان السليم والحياة بحسب الروح. ووصف الحدث كالتالي:

"وجلست معهم من الصباح إلى المساء ثلاثة أيام متوالية، جاهدت لتصحيح ما كُتب في كتاب نيبوس (الأسقف المتوفي)، واغتبطت بمثابرة وإخلاص الإخوة ودماثة خلقهم إذ كنَّا نبحث... أخيرًا، اعترف منشئ وباعث هذا التعليم – ويُدعى كوراسيون – على مسمع من كل الإخوة الحاضرين وشهد لنا بأنه لن يتمسك بعد بهذا الرأي أو يناقشه أو يذكره أو يعلِّم به، إذ اقتنع اقتناعًا كافيًا بفساده، وأبدى بعض الإخوة الآخرين سرورهم بالمؤتمر وبروح الصفاء والوفاق التي أظهرها الجميع".[٥١٩]

وقبل أن ينتهي القرن الرابع كانت هذه التعاليم في طريقها إلى الزوال من كافة كنائس مصر وبلاد المشرق.

[٥١٨] المبادئ ٢: ١١: ٢- ٣.

[٥١٩] تاريخ الكنيسة ليوسابيوس القيصري، ٧: ٢٤.

وبالمثل فعل المطوَّب جيروم الذي أعاد تفسير هذين الإصحاحين من سفر الرؤيا،[520] مفندًا فكرة الملك الألفي الحرفي الذي صاغه تفسير فيكتورينوس الحرفي.

وبظهور القديس "**أغسطينوس**" [٣٤٥-٤٣٠ م] دخلت هذه التعاليم مرحلتها الأخيرة في العالم الغربي. إذ تزعَّم بعمقه الروحيّ تفنيدها بحجة لا تُقاوم، حيث **اعتبرها هرطقة،** حاسبًا كلّ من ينادي بالملكوت الألفيّ يحاول أن يلغي حقيقة الملكوت الحاضر الذي أسّسه المسيح فعلًا على الأرض وفى قلوبنا في نفس الوقت، **معتبرًا أن الكنيسة في الحاضر هيَ ملكوت المسيح على الأرض وهيَ أورشليم المنظورة، وقد أعدت مائدتها فعلًا وهيأت خمرها وكلّ مشتهيات النفوس الطاهرة، وأن المسيح يحكم الآن مع قديسيه،** وأننا نجوز الآن قيامتنا الأولى غير المنظورة، وأن الموت الثاني (الجسديّ) لن يكون له سلطانًا علينا لأننا غلبنا الموت الأوّل (الخطيئة).[٥٢١]

وبهذا يكون المطوّب أغسطينوس قد انتشل الإيمان المسيحيّ من لوثة الأبوكريفا اليهودية المزيفة ومن محاولة إسقاط السمو الروحيّ المسيحيّ إلى الأرض.

بعض الآيات عن تقييد الشيطان قد تمّ

وقد تمّ فعلًا تقييد الشيطان رئيس هذا العالم بإدانته ودرحه خارجًا عند إرتفاع الرّبّ يسوع المسيح على الصليب. فقد شهد الرّبّ نفسه عن ذلك قائلًا:

"اَلآنَ دَيْنُونَةُ هذَا الْعَالَمِ. **الآن يُطْرَحُ رَئِيسُ هذَا الْعَالَمِ خَارِجًا.** ٣٢وَأَنَا إِنِ ارْتَفَعْتُ عَنِ الأرض أَجْذِبُ إِلَيَّ الْجَمِيعَ. ٣٣ قَالَ هذَا مُشِيرًا إِلَى أَيَّةِ مِيتَةٍ كان مُزْمِعٌ أَنْ يَمُوتَ"(يو١٢: ٣١ – ٣٣).

قارن هذا مع شواهد أخرى كثيرة تؤكد أن الشيطان صار مقيدًا:

"لاَ أَتَكَلَّمُ أَيْضًا مَعَكُمْ كَثِيرًا **لأَنَّ رَئِيسَ هذَا الْعَالَمِ يَأْتِي وَلَيْسَ لَهُ فِيَّ شَيْءٌ**" (يو ١٤: ٣٠).

" وَأَمَّا عَلَى دَيْنُونَةٍ **فَلأَنَّ رَئِيسَ هذَا الْعَالَمِ قَدْ دِينَ**" (يو ١٦: ١١).

---

[520] *PL. 24, 627ff.*

[٥٢١] مدينة الله ٢٠: ٦- ١٤.

"١٨فقالَ لهُمْ: {**رَأَيْتُ رلشَّيْطَانَ سَاقِطًا مِثْلَ الْبَرْقِ مِنَ السَّمَاءِ**. ١٩ها أنَا أُعْطِيكُمْ سُلْطَانًا لِتَدُوسُوا الْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبَ وكلّ قُوَّةِ الْعَدُوِ وَلاَ يَضُرُّكُمْ شَيْءٌ. وَلَكِنْ لاَ تَفْرَحُوا بِهذَا أَنَّ الأَرْوَاحَ تَخْضَعُ لَكُمْ بَلِ افْرَحُوا بِالْحَرِيِّ أَنَّ أَسْمَاءَكُمْ كُتِبَتْ فِي السَّمَاوَاتِ}" (لو ١٠: ١٨-٢٠).

"لأَنَّهُ إِنْ كَانَ اللهُ لَمْ يُشْفِقْ عَلَى مَلاَئِكَةٍ قَدْ أَخْطَأُوا، **بَلْ فِي سَلاَسِلِ الظَّلاَمِ طَرَحَهُمْ فِي جَهَنَّمَ، وَسَلَّمَهُمْ مَحْرُوسِينَ لِلْقَضَاءِ**" (٢بط ٢: ٤).

"وَالْمَلاَئِكَةُ الَّذِينَ لَمْ يَحْفَظُوا رِيَاسَتهُمْ، بَلْ تَرَكُوا مَسْكَنَهُمْ **حَفِظَهُمْ إِلَى دَيْنُونَةِ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ بِقُيُودٍ أَبَدِيَّةٍ تَحْتَ الظَّلاَمِ**" (يهوذا ٦).

"وَحَدَثَتْ حَرْبٌ فِي السَّمَاءِ: مِيخَائِيلُ وَمَلاَئِكَتُهُ حَارَبُوا التِّنِّينَ. وَحَارَبَ التِّنِّينُ وَمَلاَئِكَتُهُ ٨وَلَمْ يَقْوُوا، فَلَمْ يُوجَدْ مَكَانُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي السَّمَاءِ. **٩فَطُرِحَ التِّنِّينُ الْعَظِيمُ، الْحَيَّةُ الْقَدِيمَةُ الْمَدْعُوُّ إِبْلِيسَ وَالشَّيْطَانَ، الَّذِي يُضِلُّ الْعَالَمَ كلّه - طُرِحَ إِلَى الأَرْضِ، وَطُرِحَتْ مَعَهُ مَلاَئِكَتُهُ.** ١٠وَسَمِعْتُ صَوْتًا عَظِيمًا قَائِلًا فِي السَّمَاءِ: {الآنَ صَارَ خَلاَصُ إِلَهِنَا وَقُدْرَتُهُ وَمُلْكُهُ وَسُلْطَانُ مَسِيحِهِ، **لأَنَّهُ قَدْ طُرِحَ الْمُشْتَكِي عَلَى إِخْوَتِنَا الَّذِي كَانَ يَشْتَكِي عَلَيْهِمْ أَمَامَ إِلَهِنَا نَهَارًا وَلَيْلًا.** ١١وَهُمْ غَلَبُوهُ بِدَمِ الْحَمَلِ وَبِكَلِمَةِ شَهَادَتِهِمْ، وَلَمْ يُحِبُّوا حَيَاتَهُمْ حَتَّى الْمَوْتِ. ١٢مِنْ أَجْلِ هَذَا افْرَحِي أَيَّتُهَا السَّمَاوَاتُ وَالسَّاكِنُونَ فِيهَا. وَيْلٌ لِسَاكِنِي الأرض وَالْبَحْرِ، **لأَنَّ إِبْلِيسَ نَزَلَ إِلَيْكُمْ وَبِهِ غَضَبٌ عَظِيمٌ، عَالِمًا أَنَّ لَهُ زَمَانًا قَلِيلًا**}". (رؤ ١٢: ٧- ١٢).

لكن تقييد الشيطان لايعني إبادته أو إلغاء عمله:

"٣وَلَكِنْ إِنْ كَانَ إِنْجِيلُنَا مَكْتُومًا، فَإِنَّمَا هُوَ مَكْتُومٌ فِي الْهَالِكِينَ، ٤الَّذِينَ فِيهِمْ إِلَهُ هَذَا الدَّهْرِ قَدْ أَعْمَى أَذْهَانَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، لِئَلاَّ تُضِيءَ لَهُمْ إِنَارَةُ إِنْجِيلِ مَجْدِ الْمَسِيحِ، الَّذِي هُوَ صُورَةُ الله".
(٢كو٤: ٣، ٤).

وأيضًا: "وَأَنْتُمْ إذ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا بِالذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، الَّتِي سَلَكْتُمْ فِيهَا قَبْلًا حَسَبَ دَهْرِ هَذَا الْعَالَمِ، حَسَبَ رَئِيسِ **سُلْطَانِ الْهَوَاءِ، الرُّوحِ الَّذِي يَعْمَلُ الآنَ فِي أَبْنَاءِ الْمَعْصِيَةِ**". (أفسّس ٢: ١، ٢).

وأيضًا قال بولس الرسول: "الْبَسُوا سِلاَحَ اَللهِ الْكَامِلَ لِكَيْ تَقْدِرُوا أَنْ تَثْبُتُوا ضِدَّ مَكَايِدِ إِبْلِيسَ. فَإِنَّ مُصَارَعَتَنَا لَيْسَتْ مَعَ دَمٍ وَلَحْمٍ، بَلْ مَعَ الرُّؤَسَاءِ، مَعَ السَّلاَطِينِ، مَعَ وُلاَةِ الْعَالَمِ، عَلَى ظُلْمَةِ هَذَا الدَّهْرِ، مَعَ أَجْنَادِ الشَّرِّ الرُّوحِيَّةِ فِي السَّمَاوِيَّاتِ" (أفسّس ٦: ١١، ١٢).

وإنما يعني فقط **أنه لم يعد يعمل في نفس حريته الأولى**، إذ قد وُضِعت عليه قيود في عمله لا يتخطاها. ويعبر عنها بسجنه أو تقييده.

الاختطاف

لن تجتاز الكنيسة في الضيقة لأنّها ستؤخذ للمجد عند مجيء الرّبّ واختطافه لها، قبل الضيقة مباشرة (رؤ٣: ١٠). وكما يقول القديس بولس: "سنخطف جميعا" (١ تس ٤: ١٧).

ماذا يعني المسيح بقوله يؤخذ الواحد ويترك الآخر؟

أثارات الآيات التي ذكرها متّى ولوقا في إنجيليهما (مت٢٤: ٤٠؛ لو١٧: ٣٤) بعض الحيرة لدى بعض المفسرين، ففي بعض الأوقات تمّ تفسير هذه النصوص بشكل غير دقيق، حيث قال بعض المفسرين (غير الأرثوذكس) إنّ اختطاف المؤمنين سوف يحدث أولًا، ثمّ يأتي زمان ضيقات تعود خلاله إسرائيل للرب، ويأتي بعده المسيح للدينونة الأخيرة وقيامة الأموات.

وكأن المسيح صار له مجيء أوّل وثاني وثالث!

ما تعلّمناه من الكنيسة هو أنّ الرّبّ أتى في المجيء الأوّل في تواضع لأجل الخلاص (مت٢٠: ٢٨؛ يو٣: ١٧)، وفي مجيئه الثاني يأتي في مجد للدينونة (انظر: مت٢٤: ٢٧، ٣٠؛ ٢٥: ٣٠؛ مر٨: ٣٨؛ أع١٧: ٣١؛ عب٩: ٢٨)، **ولم نسمع من الكنيسة قط، طوال ألفي عام، أنّ هناك مجيئًا ثالثًا للمسيح**.

فما هو معنى هذه الكلمات؟

١- هذا هو **الفصل بين الجداء والخراف، بين المؤمن وغير المؤمن، بين من يُؤخذ للمجد ومن يُترك للدينونة**، يقول القديس **هيلاري أسقف بواتيه**:

"إنّ الفصل بين المؤمن وغير المؤمن سيكون بأخذ الواحد وترك الآخر".[٥٢٢]

٢- **وبتكملة النص الكتابيّ نجد أنّ المسيح قد أجاب سؤال التلاميذ عن أين يُترك الآخر**؟ فقال:

"حَيْثُ تَكُونُ الْجُثَّةُ هُنَاكَ تَجْتَمِعُ النُّسُورُ".

هذا الوصف **نجد له نظير في حزقيال ٣٢: ٤-٦** الذي يقول:

"وَأَتْرُكُكَ عَلَى الأَرْضِ، وَأَطْرَحُكَ عَلَى وَجْهِ الْحَقْلِ، وَأُقِرُّ عَلَيْكَ كلّ طُيُورِ السَّمَاءِ، وَأُشْبعُ مِنْكَ وُحُوشَ الأرض كُلَّهَا.وَأُلْقِي لَحْمَكَ عَلَى الْجِبَالِ، وَأَمْلأُ الأَوْدِيَةَ مِنْ جِيَفِكَ"

وحيث كان المسيح يهوديًّا فإنّه كان يستخدم أمثلة من البيئة والتعاليم الرابينيّة ومن نصوص العهد القديم بكثرة.

٣- كما أنّ كلمة يؤخذ الواحد ويترك الآخر **تعود إلى قصة كان يرويها اليهود في عصر المسيح** عن اليهود والمصريين النائمين في الأسرّة أثناء الضربة الأخيرة[٥٢٣]

٤- وأخيرًا **فكلمة يؤخذ أي يؤخذ في السحاب مع المسيح، والسحاب كما نعلم رمز للحضور الإلهيّ**، كما هو مكتوب في رسالة تسالونيكي الأولى:

"لأن الرّبّ نفسه بهُتافٍ، بصوتِ رئيس ملائكةٍ وبوق الله، سوف ينزل من السماء والأموات في المسيح سيقومون أولًا. ثمّ نحن الأحياء الباقين سنُخطف جميعًا معهم في السحب لملاقاة الرّبّ في الهواء. وهكذا نكون كلّ حين مع الرب".[٥٢٤]

---

[٥٢٢] تعليقات على إنجيل متّى ٢٦: ٥.

[523] *Craig S. Keener and InterVarsity Press, The IVP Bible Background Commentary : New Testament (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 1993), Lk 17:34.*

[٥٢٤] ١تس٤: ١٦-١٧؛ انظر أيضًا مت٢٤: ٣٠؛ رؤ١: ٧.

لمزيد من القراءة

- إيماننا المسيحيّ، الكتاب الثاني، الراهب باسليوس المقاريّ.
- المُلك الألفي في تعاليم الكنيسة الأرثوذكسيّة، الآب متّى المسكين.
- المجيء الثاني متى يكون وما هيَ علاماته، القمص عبد المسيح بسيط أبو الخير.
- الخلاص الذي ننتظره، الآب شنودة ماهر إسحق (أربع كتب).
- الحياة بعد الموت، المُطران إيريثيوس فلاخوس.
- القديس بولس الرسول، الآب متّى المسكين.

الروح والعروس يقولان تعال، آمين تعالى أيها الرب يسوع

ماران آثا